رواية

رضوى عاشور

قطعة من أوروبا



رضوى عاشور

قطعة من أوروبا

الكتاب
قطعة من أوروبا
تأليف
رضوى عاشور
الطبعة
الأولى، 2003
عدد الصفحات: 224
القياس: 14.5 × 21.5

الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 2303339 ـ 2307651
فاكس: 2305726 ـ 2 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma
بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 750507 ـ 352826
فاكس: 343701 ـ 1 961+

مدخل

في نوفمبر عام 1943، اصطحب تشرشل، رئيس وزراء بريطانيا، الرئيس الأمريكي روزفلت لمشاهدة أبي الهول. لاحقا، كتب تشرشل في مذكراته: «حدّقنا فيها لبضع دقائق لفّنا فيها الصمت، وقد بدأ الليل يخيم بظلاله على المكان. لم تقل لنا شيئا. احتفظت بابتسامتها الغامضة.»

استوقفني تأنيث تشرشل لأبي الهول، عللت ذلك بتأثر المخيّلة الإنجليزية بالصورة الإغريقية القديمة التي تقدمه على شكل امرأة لها جسم أسد ورأس إنسان، تطرح الأسئلة الصعبة، وتقتل من يخطئ في تقديم الإجابة الصحيحة.

لم يعبِّر تشرشل عن الفزع الذي عبّر عنه الرحالة الأوروبيون في القرن التاسع عشر فيما كتبوه عن مشاعرهم وهم يتأملون التمثال: «جمّدنا بنظرته المفزعة»، هذا ما كتبه الروائي الفرنسي فلوبير، وأضاف أنه أحس ببوادر دوار، وخشي أن يفقد السيطرة على نفسه. وكتبت هارييت مارتينو عبارة محيّرة تقول: «لا يملك الوافد الغريب على المكان إلا أن يفشل تماما في رؤية أبي الهول، أو يراه فيرى فيه كابوسا.» ليست ترجمتي مصدر الغموض في الكلام، الأصل الإنجليزي غامض مُلْتَبِس: ما الذي تعنيه بـ«يفشل تماما في رؤية أبي

الهول؟» هل تعني أن ينظر المرء إليه فلا يراه كأنه غير موجود؟ لو صح هذا التفسير فما تقوله السيدة الإنجليزية يعني أن التمثال يشكِّل للغريب كابوسا لا مهرب له منه إلا بتجاهله وإنكار معناه.

ربما أسهم هذا التراث في تشكيل مُخَيِّلَة ييتس وهو يكتب قصيدته الشهيرة التي يربط فيها بين اختلال العالم وظهور أبي الهول: وحش مُرَوِّع يزحف ببطء إلى بيت لحم ليولد من جديد، لكن ظهوره، في مُخَيِّلة الشاعر ومنطق القصيدة، لا يأذن بعودة المسيح وخلاص البشر، بل بقيامة معكوسة حيث «لا يسمع الصقر صاحبه»، ويغرق العالم في «الموجة المُعْتِمة بالدماء». تصبح صورة أبي الهول في نص ييتس مرادفا لظهور حضارة وحشية تُغرق «طقس البراءة»، وتُغرق معها الحضارة الأوروبية.

أما المقريزي فيشير إلى أبي الهول باسمين شائعين في زمانه أولهما «بلهيب» (من الهيبة، ربما) والثاني «طلسم الرمل»، لأنه يحمي مصر من جور الرمال عليها. يصف المقريزي أبا الهول قائلا: «في وجهه حمرة ودهان يلمع عليه رونق الطراوة، وهو حسن الصورة مقبولها عليه مسحة بهاء وجمال كأنه يضحك مبتسما.» يشير المقريزي أيضا لتمثال آخر لم يعد له أثر، كان يقع في الجانب المقابل لأهرام الجيزة، على الشاطئ الشرقي للنهر فيما نسميه الآن حي مصر العتيقة أو إلى الجنوب منه. يقول المقريزي:

«طلسم الرمل يقابله في بر مصر صنم عظيم الخلقة والهيئة متناسب الأعضاء كما وُصف، في حجره مولود وعلى رأسه ماجور، الجميع صوّان مانع يزعم الناس أنه امرأة وأنها سرية أبي الهول المذكور، وهي بدرب منسوب إليها، ويقال لو وُضع على رأس أبي الهول خيط ومُدّ إلى سريته لكان على رأسها مستقيما، ويقال أن أبا الهول طلسم الرمل يمنعه عن النيل، وأن السرية طلسم الماء يمنعه عن

مصر. . . وذُكر أنه طلسم النيل كي لا يغلب على البلد، وقيل إن بلهيب الذي عند الأهرام يقابله، وإن ظهر بلهيب إلى الرمل وظهر هذا إلى النيل وكل منها مستقبل الشرق. وقد نزل في سنة إحدى عشرة وسبعمائة أمير يعرف ببلاط في نفر من الحجّارين والقطّاعين وكسروا الصنم المعروف بالسرية وقطعوه أعتابا وقواعد ظنا منهم أن يكون تحته مال، فلم يوجد سوى أعتاب من حجر عظيمة فحفر تحتها إلى الماء فلم يوجد شيء، وجعل من حجره قواعد للعمد الصوان التي بالجامع المستجد بظاهر مصر المعروف بالجامع الجديد الناصري.»

ليس الموضوع «أبو الهول»، ولا تشرشل ولا المقريزي، بل هذه الرغبة غير المفهومة تماما وربما غير المبررة في كتابة حكايتي. أقول ليس مقبولا ولا معقولا، وأنا في الخامسة والستين، أن أهبط على الكتابة هبوط مظلّي غير مدرب، يقفز من علٍ لأنه يريد، ويعي أنه- للناظرين، ولنفسه - يبدو مضحكا في حركاته غير المحكومة، وقد يسقط فيدق عنقه، ثم ما هي المظلة التي أشرعها فوق رأسي؟

في عام 1943 حين ذهب الرجلان لرؤية أبي الهول بعد اجتماع ضمهما في فندق مينا هاوس، كنت في السادسة من عمري، لم أتعرف بعد على صورة الرجل البدين ذي القبعة والسيجار -أقصد تشرشل، والرجل الآخر- روزفلت- ذي الرأس المدور والعدستين المدورتين لنظارته الطبية. وفي العام التالي حين تدور المعارك الطاحنة في العَلَمِين وتخلّف آلاف القتلى في ساحل مصر الشمالي، سيبقى اسما رومل ومونتجمري كأسماء تشرشل وروزفلت مجرد كلمات، لا أدري إن كانت تشير إلى أماكن أو أشخاص أو أنواع من الطعام.

تدريجيا، ومع مرور الوقت، ستحمل الأسماء- والسنوات أيضا- معانيها، وتمتلئ بها كجرار كبيرة مستقرة في غرفة خزين نصف معتمة في قاع البيت، أو مرفوعة على ظهر ناقة تشي خطواتها الوئيدة بحملها

الثقيل. هل يمكن أن أعيد التشبيه؟ أحاول. ستحمل الأسماء- والسنوات أيضا- معانيها، وتمتلئ بها كالمدينة نفسها: شوارعها وبناياتها والتماثيل في ميادينها. في طفولتي كانت الأماكن بلا حكايات، لا أعرفها إلا بالنظر وعبورا، مجرد هياكل في خلفية مشهد أسريّ، أهرام الجيزة مثلا تصبح، حين نعرّيها من حكايتها، كالرمال التي تحيط بها، خلفية للرحلة المدرسية، أو مثلثات ثلاثة تناسب الجانب الأيسر من الصفحة البيضاء في كراسة الرسم، مجرد أشكال يخطها قلم الطفل في دقيقتين، خفيفة، كأنها لا شيء.

***

في هذه الرواية أنا الناظر. ليس هذا الاسم هو ما اختاره لي والديّ، ولا هو كُنيتي التي يناديني الناس بها، أنا الناظر لأن مهمتي النظر، أنقل عبر حكايتي ما نظرت إليه من نظر العين والقلب، أي ما رأيته بالبصر والبصيرة. حين رجعت إلى المعاجم لأتأمل مادة «نَظَرَ» وأطمئن أن الاسم يفي تمام الوفاء بالغرض، استوقفتني عبارة «ناظرُ العين»، وهي النقطة السوداء الصافية التي في وسط سواد العين، وبها يرى الناظر ما يُرى، وهي البصر نفسه، وهي أيضا عرق في الأنف (أو عرقان على جانبي الأنف) فيه (أو فيهما) ماء البصر، أترجمهما بلغتنا المعاصرة إلى قناة الدمع. قلت هذا اسم يناسبني، ثم عدلت عن استخدامه لغرابته، وأيضا لمنافاته الدقة، فما أرويه ليس البصر نفسه بل ما رأيته فأعجبني أو ساءني، أتفكّر فيه وأقدّره قياسا على موقعه مني وموقعي منه. ثم أعجبتني «نظيرةُ القوم» وهو طليعتهم، ينظر إليه قومه، يمتثلون ما أمتثل، وهو طريقتهم، ولكني وجدت هذا الاسم الثاني تماما كسابقه غير مألوف ويفتقد الدقة، فأنا، على عكس نظيرة القوم، رجل وحيد معتكف في داره، لست طريقة أهلي، ربما كان لي أهل أتعرف عليهم ذات يوم، ولكن هذا أمر مستبعد لأن العمر لن يمتد طويلا.

أنا الناظر، منظرتي تلّة عمري، أقف عليها رقيبا وحارسا، أنتظر وأعتبر وأقدِّم دلائل المحبة، لأن النظر في لسان العرب دليل محبة، وترك النظر دليل انصراف أو بغض وكراهية.

ربما كان هذا التوضيح زائدا عن الحاجة، يستبق الرواية بإعلان ما قد تشير إليه وتضمنُّه، ولكني أردت رفع اللبس، لأن كلمة «الناظر» في العربية الدارجة في مصر تحيل إلى مدير المدرسة، وفي الماضي غير البعيد كان الوزير المتنفِّذ يدعى الناظر، يدير شئون نظارته المحدَّدة ويحكم سير الأمور فيها. لم أعمل مديرا لمدرسة في حياتي، ولا توفرت لي سلطة الإدارة والمديرين، ناظر المدرسة أو الوزارة ينافي المقام والمقال وتجربتي، كيف لي وأنا أقصد الدقة والأمانة أن أترك لاسمي الدال على مهمتي أن يسحب خيال القارئ إلى طريق مفارقة تغيُّر المعنى وتعكسه؟

الفصل الأول

كتب الناظر:

كان الولد يعاني من مرض في عينيه، فأرسلوه إلى فيينا للعلاج. في تلك الرحلة التي دامت عامين، لم يصطحبه أبوه، إذ كان رجلا منشغلا بمهام كبيرة أملت عليه التنقّل المستمر بين مصر وبلاد الشام والجزيرة العربية. ورغم صغر سن الولد، لم يكن هناك ما يدعو للقلق عليه، ليس فقط بسبب وضعه المالي وما وفّره له أبوه من مرافقين، بل أيضا لأنه، لمكانة أبيه وسلطته، حظي برعاية حكام النمسا، واختلط بأفراد أسرها العريقة، وشملته الرعاية المباشرة لوزير خارجيتها.

عاش الولد في فيينا، عالج عينيه على ما يبدو، رأى شوارعها ومبانيها، تردد على قصورها، شارك في مآدب نبلائها وحفلاتهم حيث يرقص الرجال مع النساء على أنغام موسيقى الفالس الآسرة، الرجال في سترات لها ذيول وسراويل سوداء ضيقة تُفَصِّل الساقين، والنساء بأثواب ملونة محبوكة على الصدر وتنفلت أسفل الخصر سخية فضفاضة.

قبل أن يتم الخامسة عشرة صدر قرار بإلحاقه ببعثة تعليمية في فرنسا فانتقل الولد إلى باريس ليدرس في معهد من معاهدها التعليمية،

ولا بد أن الصورة التي لدينا التقطت له وهو في الرابعة عشرة من عمره أثناء إقامته في النمسا، أو بعد ذلك وهو يدرس في فرنسا. في الصورة وجه طفل، وجسد فتى نحيل، ووقفة مشدودة تشي بالأهمية والمكانة، توحي بصرامة ما، تؤكدها سترة عسكرية ألبانية مقصّبة، محبوكة على الجذع والخصر، لها ياقة عالية تُطَوِّق الرقبة. على رأس الولد طربوش تركي قصير يخفي ثلثي جبينه، وللطربوش شراشيب طويلة أشبه بذيل حصان.

قضى الولد أربع سنوات في فرنسا ثم عاد إلى مصر.

كم مرة زار باريس أو فيينا بعد ذلك؟ لا أدرى تحديدا ولن أتوقف للبحث، سأنتقل مباشرة إلى زيارة بعينها إلى العاصمة الفرنسية قام بها بعد عودته بسبعة عشر عاما. لم يعد ولدا بطبيعة الحال. أصبح رجلا مربوعا له شاربان ولحية تغطي ذقنه وصدغيه، يرتدي سترة طويلة تطول ركبتيه وتزين صدرها خمسة أوسمة من الذهب الخالص، ثلاثة منها على شكل نجوم ثُمانِيّة تتوسطها الأهلة، واثنان مرصعان بالأحجار الكريمة. يتقن الفرنسية والتركية، ويعرف العربية بدرجة أقل.

في تلك الزيارة التي تهمنا كانت العاصمة الفرنسية تشهد انقلابا معماريا يقوده شخص اسمه أوسمان، خطط لبلدية باريس الجديدة، هدم وقوّض واستبعد لحساب شوارع جديدة عريضة صارمة في خطوطها الهندسية، تقطعها الميادين المدورة، وتُجمِّلها حدائق عامة أقرب إلى غابات صغيرة، وإن كانت مزروعة ومنسقة، ثورة معمارية لم يغب عن القائم بها شيء، حتى المجاري بدت إنشاءً مدهشا يأخذون كبار زوار المدينة لمشاهدته.

أثناء رحلته التي زار فيها باريس ثم لندن ثم باريس مرة أخرى ثم الآستانة، أنعم عليه الباب العالي بلقب خديوي مصر، فعاد إلى عاصمة ملكه يحمل معه اللقب المدوّي وأحلاما جامحة في الهدم والبناء،

وشكّل وزارة جديدة كلف فيها وزير أشغاله بتخطيط القاهرة الجديدة على غرار باريس. لم يطلب من وزيره تدمير المدينة القديمة، إذ كان في عجلة من أمره، يفكر في الاحتفال الكبير الذي سيقيمه، ولم يكن لديه سوى عامين. سيكتفي بإنشاء حي جديد وتطوير جزء من حي قديم، مؤقتا.

وللدقة لا بد من الإشارة أن عملية الإعمار المباغت لم تكن جديدة تماما، كان جده- الحالم أيضا بمدينة جديدة- أول من استقدم «المعلّمين الروم» لإدخال المباني الرومية إلى الديار المصرية فأعطى الأهالي ما يمكن أن نسميه بلغتنا الحالية دورة تمهيدية تعدهم لمشهد تدمير المباني الأثرية لفتح سكة جديدة، أقصد مشهد المعاول والمِهدّات والجرّافات وهي تقتلع بيوتا ومساجد وأسبلة وأشجارا وأبوابا ومشربيات، وقبورا أيضا، ولكن، كما أسلفت، لم يتح للحفيد متسع من الوقت للهدم، أو أن وزير أشغاله، وكان رجلا نابغا رغم كل شيء، فضّل أن يركّز الجهد على التخطيط لمدينة جديدة، فلم يهدم سوى جزء يسير واتسع في الجديد المجاور.

في هذا الجديد المجاور المعروف الآن بوسط البلد، والذي كان اسمه حي الإسماعيلية، ولدت. وفي هذا الحي نفسه، في بناية مجاورة للبناية التي ولدت فيها، أجلس الآن للكتابة بعد أكثر من قرن على رحيل إسماعيل الذي أمر بإنشائه، ورحيل وزير أشغاله علي مبارك ومساعده محمود الفلكي اللذين أشرفا على تخطيطه. كان هذا الحي الجديد، القاهرة الرومية كما يسميها بعض المؤرخين، يُخلّف وراءه القاهرة الإسلامية، يتركها مستتبة في ماضيها، قانعة به أو غارقة فيه، ويتطلع إلى عالم جديد، يسحب إليه المدينة بمؤسسات حكمها وقصور حكامها ومراكزها التجارية، ينقلها غربا- لا مجاز هنا- أقصد الغرب الجغرافي حيث تمتد قاهرة إسماعيل من ميدان عابدين وميدان العتبة

إلى النيل غربهما، ومن شاطئ النيل إلى الجزيرة غربه. نزل الوالي من القلعة، وانتقل مقر الحكم إلى قصر عابدين حيث الواجهة الإيطالية يتصدرها سور وبوابات من مشغول الحديد، يعلوها التاج الملكي والحرف الأول من اسم إسماعيل بالأبجدية اللاتينية مشكّل بخالص الذهب، أما قلعة الجبل وأسوارها الحجرية الخشنة فبقيت في أعلى الهضبة تنتظر إدراجها في ملف الآثار.

لم يكن حي الإسماعيلية سوى جزء من الإنجاز المعماري الهائل لإسماعيل الذي اشترى في سنوات معدودة 450 جسرا، وألف ميل من قضبان السكة الحديد وأسلاك البرق، وأنشأ مدارس ومؤسسات ومسارح ومتحفا للآثار ودارا للكتب، وشيد قصورا وحدائق استقدم لها مهندسين أوروبيين يُعجز معظمنا تذكر أسمائهم أو نطقها بشكل سليم. وفّر المال اللازم لتلك النهضة المعمارية رواج القطن المصري في السوق العالمي، ووجود خل وفيّ يحسن التفتيش في رزق الفلاحين، والاستدانة. وقد لا يضرنا هنا، وإن كان يخرج بنا قليلا عن السياق، أن نشير إلى أن الاتساع العمراني التي شهدته القاهرة في عصر إسماعيل، لا يضاهيه سوى ما شهدته المدينة قبل ذلك بخمسة قرون في عهد الناصر قلاوون، مع فارق واحد في مصير الرجلين والبلد.

مات إسماعيل منفيا وهو في الخامسة والستين، ولكن صورته الأخيرة تظهره أكبر كثيرا من سنه، يبدو وهو جالس طاعنا مهدما: عظمتان بارزتان أعلى الوجنتين، جفنان متهدلان، ووجه نحيل مسحوب باتجاه شاربين ولحية لا أثر فيها للون سوى الأبيض، يرتدي سترة شتوية ثقيلة تحتها قميصان وفوقها عباءة من صوف مضفّر، وقطعة من فراء الغنم تغطي بطنه وساقيه.

أراد إسماعيل، أثناء مرضه الطويل، العودة إلى مصر كي يموت فيها ولم يُسمح له بذلك. لاحقا، حُمِلَت رفاته إليها ودفن بجوار

والدته. لم يدفن في الحي الذي أنشأه بل شرقيه في الرفاعي، وواصلت الإسماعيلية نموها على الطريقة التي أرادها، يخطط لها معماريون نمساويون وفرنسيون وإيطاليون وسويسريون، مع تعديل بسيط في خطة الحي وعلى أطراف الميدان الذي يحمل اسمه: قصر النيل شمال الميدان صار ثكنة لجنود الاحتلال، وقصر الدوباره جنوبه صار مقر الحاكم الفعلي للبلاد: إفلين بيرينج المعروف باسم لورد كرومر.

حكاية الولد الذي عالج عينيه في فيينا وسحرته مبانيها واعتلى عرش مصر ثم نقلته «المحروسة» إلى إيطاليا منفيا، حكاية قديمة، بدأت وانتهت قبل أكثر من نصف قرن من ولادتي. ولدت في فترة ولاية حفيده، «الفاروق مليك البلاد المُفَدَّى». كانت العروض السينمائية، سواء كان الفيلم عربيا أو أجنبيا، تنتهي بعزف النشيد الملكي فنستمع إليه وقوفا، وعندما بلغت الخامسة عشرة لم يعد هناك نشيد ملكي، لأن «المليك المفدّى» كان قد نفي من البلاد فحملته نفس «المحروسة» التي حملت جده، إلى منفاه في إيطاليا.

حين استقل فاروق «المحروسة» من ميناء الإسكندرية في يوليو عام 1952، كنا في القاهرة، نسكن في بناية من أربعة طوابق في شارع قصر النيل. ما زالت البناية قائمة، أمر بها أحيانا، أرفع رأسي لأتأمل شرفاتها، الشرفات الصغيرة المقوسة التي تحيط كالحلية بنوافذ كبيرة، والشرفات المستطيلة، الأطول والأوسع، لكل شرفة منها سور من مشغول الحديد، قُضُب دقيقة تتفرّع وتفترق وتلتقي في أشكال نباتية، أعبر الشارع لتسمح لي المسافة برؤية المبنى كاملا. أعبره مرة أخرى لاختلاس نظرة إلى مدخل من مداخله. أستعيد وقفتي وحدي أو مع أمي أو أبي أو اخوتي في الشرفة، أمامنا ممر بهلر وأقواس بواكيه على جانبيه، عن يميننا امتداد شارع قصر النيل في اتجاه ميدان مصطفى كامل، وعن يسارنا ميدان سليمان باشا نكشف جزءا من دائرته

والتمثال البرونزي في مركزه، ومفرقين من مفارقه الأربعة، وعمارة جروبي ومدخل المحل تعلوه كلمة «جروبي 1924»، ولافتة كبيرة تحمل الاسم مكتوبا بالحروف اللاتينية تتبعه عبارة "Confisserie de la maison royale"

في مرسوم أصدره عام 1869 يشير إسماعيل إلى «الأمر الكريم بمقتضى إرادتنا» الخاص بشق عدد من الشوارع. ويطلب سرعة تحرير المقايسات وعرضها. أنقل البند الخامس والسادس من «تقويم النيل». أولهما يخص: «السكة المصمم على فتحها من نقطة تقاطع شارع عبد العزيز وشارع قَوَلَة المارة من جهة باب اللوق وموصولة للقنطرة المزمع إعمالها على بحر النيل للتعدية والمرور من اتجاه قصر النيل يجري المبادرة في فتحها بما لا يجري توصيلها الآن إلى قصر النيل بل فقط يكون ابتداها من نقطة تقاطع الشارعين المحكي عنهما نحو الأربع مفارق المقابلة إلى قصر النيل». وثانيهما يخص «السكة المصمم عليها من الأربعة مفارق التي أمام قصر النيل يجري المبادرة في إعمالها أيضا وتسمى سكة سليمان باشا وهذه السكة يكون ابتداها مارة من الأربعة مفارق لحد قصر النيل».

ويحسن بنا أن لا نخلط بين شارع قصر النيل القائم حاليا والذي أصدر إسماعيل أمرا بانشائه لاحقا، وقصر النيل وهو قصر فعلي أقامه عباس الأول، عم إسماعيل، على شاطئ النيل ثم تحول بعد الاحتلال إلى ثكنات للقوات البريطانية. ثم رحل الإنجليز وهدم القصر والثكنات وأقيم مكانهما مبنى الجامعة العربية وفندق هيلتون التابع للشركة الأمريكية المعروفة. الفندق والجامعة يشرفان على النيل من ناحية، وعلى ميدان التحرير (الإسماعيلية سابقا) من ناحية أخرى.

من هذا الميدان، سمعت للمرة الأولى صوت طلقات نارية. كانت الشرطة تطلق النار على المتظاهرين من الطلبة والعمال. ورغم

هذه السابقة المبكرة (فبراير 1946)، لا أعتقد أنني تنبّهت لما يدور حولي إلا بعد خمس سنوات، وقد أصبحت أخبار المقاومة الشعبية الدائرة في منطقة القنال موضوعا للحديث العام، في البيت والشارع والمدرسة، بل إن طالبا في مدرستنا (لا يكبرني سوى بعام واحد) حاول التسلل منفردا إلى منطقة القنال، فأعادوه. وعندما تحلّقنا حوله في فناء المدرسة، وألححنا عليه في معرفة ما جرى، حكى ثم اختنق صوته وانتحب، فبكينا. الأخبار الواردة من جهة القنال تثير غضبنا وخيالنا، وتداعب رغبتنا في إنجاز أعمال بطولية، وتعوض بشكل لا نعيه إحساسنا بالقهر. نتناقل بشكل يومي تقريبا حكايات هذه المقاومة: كيف اضطر الجنرال إرسكين قائد القوات البريطانية في منطقة القنال إلى خطف قفص طماطم من عربة بائع متجول بعد أن امتنع الموردون عن توريد الطعام إلى المعسكرات؛ عبارة: «الجيش الإنجليزي سيصطاد سمكا اليوم» التي يقولها الفدائيون إشارة لجثث جنود الاحتلال التي كان يلقى بها في ترعة الإسماعيلية؛ قصة نسف كوبري سالا التي تمت في وضح النهار بواسطة اثنين من الفدائيين تنكرا ووقفا على الجسر بعربتي برتقال أخفيا تحته المتفجرات، ثم تعاركا فركض بائع منهما وراء الآخر ليضربه في تمثيلية مُحْكَمَة تؤدي إلى نسف الكوبري ومعه أكبر محطة لاسلكي في المنطقة، دون إصابة أي منهما.

مساء يوم الجمعة 25 يناير عرفت عن طريق الإذاعة بخبر مذبحة الإسماعيلية (حاصرت الدبابات والمدافع والمصفحات البريطانية مبنى المحافظة والثكنة المتاخمة لها، ووجه قائد القوة إنذارا لبلوكات النظام المصريين في المبنى يطالبهم أن يتركوا سلاحهم ويغادروا خلال ساعتين. رفض المصريون الإنذار فضربوهم بالمدافع؛ قاوم المصريون بما لديهم من بنادق حتى نفذت ذخيرتهم، استشهد منهم خمسون، وجرح ثمانون، وأسر ألف، ودمر مبنى المحافظة). قرأ المذيع بيان

وزارة الداخلية، ثم أذاع نداء من طه حسين، وزير المعارف، بمناسبة استئناف الدراسة في اليوم التالي. توجه طه حسين إلى الطلبة وأولياء الأمور والنظّار والأساتذة، طالبهم بضرورة الهدوء والمحافظة على النظام.

قضيت مساء الجمعة في انتظار صباح السبت.

في السادسة والنصف صباحا، اتصلت ابنة خالة أمي، كانت وصلت للتو قادمة من مكان ما خارج مصر. أخبرت أمي أن عمال المطار، بعد أن سمعوا بالمذبحة، رفضوا تموين طائرتين بريطانيتين كان مقررا إقلاعهما منذ الليلة السابقة، ولم يسمحوا لركاب طائرتين أخريين حطتا في المطار فجرا بمغادرة الطائرة. هدد العمال باستخدام البنزين في رش الطائرات وإحراقها بمن فيها من ركاب. حكمدار بوليس مصر ووكيل الأمن العام ومسئولون آخرون كانوا في المطار يحاولون تهدئة العمال. و«المطار هايج والدنيا مقلوبة والناس والعة!». نقلت أمي ما سمعته من قريبتها إلى أبي فأعلن: «لا مدرسة اليوم!» واتجه إلى باب البيت في طريقه إلى عمله. تبعته، حاولت إقناعه، قاطعني، وقال وهو يفتح باب المصعد: «في غيابي أنت المسئول. لم تعد طفلا. سأذهب إلى البنك وأترك أمك وأخوتك في رعايتك»، «ولكن يا أبي. . .» دخل المصعد وأغلق الباب ونزل. عدت إلى الشقة وصفقت الباب ورائي فانغلق محدثا صوتا عاليا جعل أمي تستفسر.

* * *

بدا الصوت كوشيش موج البحر في الليل عندما نكون على بعد شارعين أو ثلاثة من الشاطئ. تسللت إلى خارج البيت، ركضت باتجاه ميدان الإسماعيلية، ثم عدت أركض في الاتجاه المعاكس. كان الصوت واضحا الآن، يتعالى ويرشدني إلى المكان. تجاوزت ميدان مصطفى كامل، واتجهت إلى ميدان الأوبرا. رأيت الحشد فسرت إليه

بخطى عادية كأنني ذاهب إلى المدرسة. كانوا يحتلون جانبا من الميدان، يرفعون على الأكتاف عددا من رجال بلوكات النظام في زيهم الرسمي الأسود والخوذات على رءوسهم. مشيت معهم وهتفت. بعض المتظاهرين دخلوا إلى الكازينو وألقوا بالأثاث من الشرفات ثم أشعلوا فيه النار. وعندما اقترب رجال الإطفاء وحاولوا استخدام خراطيم المياه، دسنا عليها. انبرى البعض لقطع الخراطيم بالمُدي والسكاكين. خلّفنا الكازينو وراءنا ثم عدنا إلى ميدان مصطفى كامل ومنه إلى ميدان الإسماعيلية. التقت بنا مظاهرة أخرى كبيرة قادمة من ناحية كوبري قصر النيل. سمعت الناس تقول: طلاب الجامعة. مشينا في شارع القصر العيني ثم انحرفنا يسارا وتوقفت المظاهرة أمام قصر كبير لم أتعرف عليه إلا عندما سألت. قالوا: هذا مجلس الوزراء. ثم ظهر شخص في شرفة من شرفات الطابق الأول وفي يده مكبر صوت. فتعالت الهتافات تطلب السلاح، قال الرجل: «صدورنا قبل صدوركم ورقابنا قبل رقابكم، ندافع بها عن القنال وعن مصر.» قاطعه المتظاهرون وتحدث بعض منهم وطالبوه بعقد مجلس الوزراء فوعدهم بذلك. ثم توجهنا إلى عابدين.

داخل المشهد كطفل في بيت - بيته - لا يحيط بكل ما يجري حوله، يتعرف على أشياء ولا يتعرف على غيرها. بعدها، بأيام أو شهور أو سنوات سأتعرف على الرجل الذي خطب فينا عبر مكبر الصوت، وأتعرف على من تحدثوا، معنى ما قالوه، والمجموعات السياسية التي يمثلونها؛ تكتسب الوجوه والأسماء والمواقف دلالات لم تكن لها. خذ مثلا هذا الشاب الذي رأيته محمولا على الأعناق في المظاهرة القادمة من كوبري قصر النيل، مظاهرة جامعة فؤاد، أدهشني إقدامه على الاشتراك في المظاهرة في زيه العسكري، كان ملازما في الجيش، في عمر طلاب الجامعة الذين حملوه على أكتافهم. قال

الوزير الذي حدثنا عبر مكبر الصوت من شرفة المجلس إن النحاس باشا وعد ببحث مطالبنا في أول اجتماع لمجلس الوزراء، وإن موعد الاجتماع غدا الأحد، قاطعه الضابط الشاب: "فليكن الاجتماع اليوم، وليكن اجتماعا غير عادي... وإلا فمتى يكون الاجتماع غير عادي؟! سنعتصم هنا حتى يجتمع المجلس." اقتربت من الشاب وحرصت أن أظل قريبا منه. ولما تحركت المظاهرة في اتجاه عابدين سرت خلفه.

نقصد قصر الملك. لا أرى أول المظاهرة ولا آخرها، ولا أرصفة الشوارع، أهتف بصوت عال، لا أسمع صوتي، أمشي في الصوت المدوِّي، لا أكترث بتتبع تردده الصاعد أو دوائره المتسعة، لا أتطلع إلى السماء فوقنا أو العمائر من حولنا. أمشي داخل الصوت. لا ترى المظاهرة حين تكون فيها، لا تشعر بالهيبة (أو الفزع) التي قد يشعر بها من يراقبها من خارجها. كنت صبيا لم أتم الخامسة عشرة بعد. أمامي وخلفي وعن يميني ويساري بشر مثلي تجمعهم وتحركهم قوة بسيطة (أو مركبة، لا أدري) يصعب عليّ توصيفها بدقة، رغم أنني أعرف أنها كبيرة وعاتية وواضحة كموجة أو دوامة أو نيران تستغرقنا معا في نفس اللحظة فتسري في العصب استجابة واحدة.

توقف الناظر، قال: كنت في المظاهرة. لا بد من عين خارجية. سأقتبس شهادة رجل الشرطة الذي ضرب النار عليها.

شهادة رجل الشرطة

«كل شيء كان هادئا. بعد الساعة التاسعة أتت مظاهرة من شارع فؤاد متجهة لميدان الأوبرا، وكانت من عمال السكة الحديد. ومرت من ميدان الأوبرا واتجهت إلى عابدين (...)

وبعد الساعة العاشرة جاءت مظاهرة أخرى من ميدان العتبة،

وكانت من الأولاد والعمال، وكان فيها عسكر من بلوكات نظام مصر (. . .) وكان عددهم حوالي ألف وعسكر بلوكات الخفر (المشاركين في المظاهرة) حوالي 25، وقبل هذه المظاهرة، وبعد الساعة عشرة أيضا مرت مظاهرة من طلبة الأزهر، وقفت عند تمثال إبراهيم باشا وهتفت: «نريد السلاح يا نحاس»، ثم اتجهت إلى عابدين، وكان عددها حوالي 300، وهدأت الحالة في الميدان حوالي ساعة. ثم فوجئت بمظاهرة كبيرة جدا لا أستطيع تقدير عددها، بدايتها في الميدان وآخرها في ميدان عابدين، وهي عبارة عن خليط من المظاهرات الثلاث التي سبق أن مرت عليّ. وبلغت هذه المظاهرة ميدان الأوبرا بعد الساعة الثانية عشرة. وكانت إلى هنا سلمية. وما أشعر إلا والأولاد دخلوا الكازينو وبدأوا في تكسير الكراسي والزجاج. حاولت الاتصال بسعادة مدير الأمن لأبلغه كما كنت أفعل في التبليغات السابقة حيث كنت أبلغها من الكازينو، فاعتدوا علي وأخذوا التليفون وكسروه في الأرض. اتصلت بالمدير من مكان (آخر) بنفس المحل (. . .) كان معيناً بالميدان خمسون جنديا وضابطان، كانوا جالسين بجوار الفسقية ولم يحركوا ساكنا، بعضهم معه بنادق والباقي معه عصي. وكان فيه ثمانية عساكر لحراسة سينما أوبرا بعصي وبنادق (. . .) أبلغت المدير أن العسكر لا يفعلون شيئا، وأن المطافي لم تحضر والأهالي مانعينها. (. . .) طلب مني الاتصال بكبار ضباط البوليس وإبلاغهم أوامر الوزير بتفريق المظاهرات بالقوة، وصل لوريان بهما عساكر قادمون من جهة عابدين ومعهما وكيل الأمن العام وإبراهيم بك إمام (رئيس البوليس السياسي). أطلقت بضعة أعيرة في الهواء وبعض القنابل المسيلة للدموع، فلم يبق متظاهر واحد، تفرقوا في الشوارع المحيطة بالميدان. بدأت المطافي تعمل حتى أخمدت النار داخل وخارج الكازينو. أبلغت المدير فطلب مني أن أبلغ جبر وإمام بالتوجه إلى سينما ريفولي.

وبعد فترة عاد المتظاهرون إلى الميدان وابتدأوا يخربون في الكازينو مرة أخرى، وكانوا في هذه المرة أقل. العسكر لا يفعلون شيئا. كلفني المدير أن أبحث عن أحد الضباط وأكلفه بفض المتظاهرين ولو بضرب النار في المليان. علمت أن النار اشتعلت في باركليز (بنك إنجليزي) فأبلغت المدير. كانت النار أيضا اشتعلت في جروبي. وحضر بعض الأولاد من المتظاهرين لمحل تحت عمارة الكونت زغيب بجوار أسدية وأشعلوا فيه النار. أبلغت المدير. اشتعلت النار في محلات كثيرة كنت أراها وأنا في الميدان بشارع عبد الخالق ثروت... كانت الساعة الثالثة وعشرين دقيقة تقريبا»

لم أشهد سينما ريفولي وهي تحترق، ولا المطافئ وهي تخمد الحريق في الكازينو. في الوقت الذي كان الملازم أول محمد حلمي صديق صاحب هذه الشهادة يقف في شارع عبد الخالق ثروت ويشاهد اشتعال النار في محلات كثيرة، كنت في ميدان عابدين أمام القصر. كنا نملأ الميدان ونفيض عنه في شوارع جانبية. نقف أمام بوابات القصر، نهتف بسقوط الملك، وعندما هتفنا بسقوط الملك انهمر الرصاص علينا من جهة البوابات ومن جهة قسم عابدين في الطرف الآخر من الميدان. تفرقنا في الشوارع. ربما تصورت بشكل تلقائي أن المتظاهرين سيعودون للالتقاء عند مجلس الوزراء. عدت إلى شارع القصر العيني، بحثت عن مجلس الوزراء. لم أجده. كانت الساعة تجاوزت الخامسة مساء والليل يقترب. تلفت حولي، كان الشارع شبه مهجور. ركضت. رأيت سيارات جيش تقطع الطريق. حاولت أن أمشي بشكل عادي، سرت ببطء قاصدا البيت. مررت بميدان الإسماعيلية. يكاد يخلو من المارة. رأيت عددا من سيارات الجيش المحملة بالجنود تقف في الجانب الجنوبي الغربي من الميدان حيث الشوارع المفضية إلى السفارتين البريطانية والأمريكية. وفي غرب

الميدان عند مقهى أسترا المواجه للجامعة الأمريكية والمدرسة الفرنسية، مجموعة من الشباب. واصلت السير.

أول ما شاهدت من المباني المحترقة هو مبنى الخطوط الجوية البريطانية، النيران مشتعلة في الطوابق العليا من المبنى يتصاعد منها دخان أسود كثيف، ومعرض السيارات في الطابق الأرضي متفحم، داخله وأمامه هياكل سيارات محترقة، وسيارات مقلوبة، وفي الجانب الآخر من الشارع كانت المكاتب التابعة للشركة نفسها قد أكلتها النيران. في مجرى الشارع لافتات محطمة وبقايا أثاث محترق وركام من زجاج مكسر وأخشاب وحدائد ودفاتر وأوراق تحولت أطرافها إلى رقائق من رماد.

تكرر المشهد على جانبي شارع قصر النيل. جروبي، الطابق الأول من المبنى حيث النادي اليوناني، محلات روبرت هيوز، بن زَيون، شالون، بوسطون هاوس، ميزون أوبل للسيارات، ميزون فرانسيز للكتب، المغسلة الأمريكية، فانيتي شوب، ومتاجر أخرى لم أعد أتذكرها، مررت بها وتطلعت. رأيت الواجهات الزجاجية المهشّمة والمداخل المدمرة، والأثاث المتفحم، والبضائع المتناثرة في الشارع والسيارات المقلوبة.

واصلت طريقي إلى البيت.

الفصل الثاني

كان أبي وفديا بالوراثة، فخورا بمشاركة أبيه وأعمامه في الثورة، ينقل لي أحيانا بعض ما سمعه منهم عن أحداثها. لم يكن عضوا في الحزب ولا نشطا في أي عمل سياسي وإن بقي على ولائه للوفد وانحيازه التلقائي لرموزه، وتشككه في سياسات الأحزاب الأخرى. كان كأغلب أبناء جيله راغبا في جلاء الإنجليز عن مصر، متحمسا للأعمال الفدائية ضد المعسكرات الإنجليزية في القنال، يتابع تفاصيلها، كما يتابع تصريحات النحاس وخطبه وأي خبر صغير يرد في الجرائد عنه، ولم يحل ذلك دون اعتزازه بإتقانه للغة الإنجليزية وإعجابه بما حفظه أيام الدراسة من قصائدها، ومنها قصيدة بالذات لكيبلينج كتبها خطّاط ما فحوّلها أبي إلى لوحة معلقة على الجدار خلف مكتبه، يسعده أن يحكي مفصلا عن زيارة للندن قام بها عام 1937 موفدا من البنك الأهلي الذي يعمل فيه.

ولأن الوفد كان في الحكم يوم 26 يناير 1952، كان أبي حاسما في اتهام الإنجليز والقصر بتدبير حرائق ذلك اليوم في وسط المدينة، وظل يكرر حتى مات أنهم أحرقوا القاهرة للتخلص من النحاس باشا، وإسقاط حكومة الوفد، وضرب الحركة الوطنية.»

أتذكر وجه أبي في تلك الليلة. (لم يكن شاحبا بل مدموغا بتلك

الحُمرة المكتومة للمصابين بارتفاع ضغط الدم. لم يرد ذلك بخاطري، كان الأمر- أقصد ارتفاع ضغط الدم، وشكل المصابين به- يقع خارج نطاق معارفي). جلست بجواره ونحن نستمع من المذياع إلى بيان الحكومة حول الأحداث.

لسنوات طويلة كان فتح المذياع يتطلب نقل كرسي، والصعود عليه لكي تطول يدي مفتاحه- عملية معقدة يزيدها تعقيدا وعيي التام بأنني أتجاوز المسموح بما قد يعرضني للتعنيف والمؤاخذة. المذياع قطعة كبيرة من أثاث خشبي، يحتل جانبا من غرفة الجلوس، تؤكد مهابة حجمه وموقعه طقوس أبي اليومية المرتبطة به. يستيقظ مبكرا ويتناول إفطاره ثم ينتقل إلى القاعة البحرية، يحتسي قهوته وهو يستمع إلى النشرة. (يقرأ الجريدة في مقر عمله، فأسمعه أحيانا يخبر أمي بوفاة شخص أو بمشكلة ما، يقول «قرأتها في الجريدة.») في الثامنة والنصف مساء، يستمع مرة أخرى للأخبار. لا يُسمح لنا، نحن الأطفال، بفتح المذياع؛ كان ذلك، على ما يبدو، جزءا من برنامج تربوي يرى في الإسراف في الاستماع إليه ترفا أو مفسدة. تفتح أمي المذياع لنتابع برنامج للأطفال أو تمثيلية مضحكة ثم تغلقه، فتحتد رغبتنا فيه وفي استراق لحظات من متعه الكامنة.

كنت في الحادية عشرة يوم تسللت من حجرة نومي في الليل وفتحت المذياع وأبقيت الصوت خافتا ووقفت ملاصقا له استمع إلى أغنية «مسافر زاده الخيال» لعبد الوهاب. لم أر أبي وهو يخرج من غرفة نومه، ولم أشعر بخطواته. سمعت صوته يقول: «ما شاء الله!» صارما وباترا ونهائيا في حكمه عليّ بالعقوق. رغم ذلك، لم يبد أبي ولا أمي استياءً ولا اعتراضا على تتبعنا «لألف ليلة» طوال شهر رمضان. ربطني المسلسل بالمذياع. توقُّد البداية، والأسى عند الختام، تجربة تتكرر كل مساء، ثم تعود تتكرر في العام اللاحق، فانتظرها من

عام لعام لأنني أحب حكايات شهرزاد، يمتعني أن أتابعها في كلام الممثلين وهم يؤدونها مشاهد أتخيلها وأنا أنصت عبر المذياع إلى تفاصيلها. أحب موسيقى الاستهلال، وصوت الجوقة وهي تغني: «ألف ليلة وليلة، كل ليلة وليلة»، ولكن أكثر ما أحب صوت الممثلة وهي تبدأ المسلسل بعبارة: «بلغني أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد»، أو تعلِّق الحكاية في نهاية الحلقة بـ«هنا أدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح» متبوعة بصياح الديك. يصعب علي الآن وصف الصوت لأنه يختلط بوقعه في نفسي، يجمع بين المدهش والأليف، والغامض والواضح- وكانت مخارج ألفاظ شهرزاد دار الإذاعة المصرية واضحة، وصوتها عاليا وعميقا يملأ رنينه البيت، رغم مكانها الملتبس في خيالي، لا أعرف شكل المرأة، لم أره ولا أراه، أقنع بالصوت وخيال موزع بين صندوق خشبي موصول بسلك إلى مصدر للكهرباء في الحائط، وحجرة ما في مبنى الإذاعة القريب من بيتنا، وامرأة تسحب الملك وتسحبني إلى أزمنة بعيدة وأماكن يسكنها ملوك وجان، وصيادون وخبازون وتجار، وصبايا كالحوريات، وعجائز يُدَبِّرْن شرا، وأمراء تحولوا إلى تماثيل، وأحصنة تطير، وغزالة ليست غزالة، وأسماك ليست في حقيقة الأمر أسماك. تحكي المرأة فأتجمد أمام المذياع ورهبة الممكن والمستحيل، بوابة كبيرة مشرعة تهبط علي سحرا وأنا في أمان البيت بين أبي وأمي واخوتي، في شقة أصعد إليها بمصعد أو عبر سلم مرورا ببواب معيَّن، في عمارة معيَّنة مماثلة لمئات العمارات المجاورة، لا أختي ستتحول إلى غزالة، ولا المدرس الذي أكرهه سيُسخط قردا، ولن أستيقظ ذات صباح لأكتشف أن لأخي جناحين وأنه يحط بيننا حين يشاء، وحين يشاء يطير.

لا أريد أن أستدرج فيما لا داعي له من تفاصيل، أردت الكتابة عن المذياع لأنه، في ذلك العام الدراسي الغريب الذي انقضى معظمه

معلقا بين المظاهرات وإغلاق المدارس إلى أجل غير مسمي، يسمّونه بعد ذلك بأسبوعين أو ثلاثة، صار أساسيا يحدد جدول أعمال اليوم، وكذلك أحلام النوم وكوابيسه. أصبح ذلك المذياع الخشبي، زر تشغيله، الموسيقى التي تسبق نشرة الأخبار، صوت المذيع وإنصاتي، رغم بقايا نعاس في عيني أو بوادر إغفاء، بمثابة قوسين يضمان مجريات النهار والليل، يوما بعد يوم.

في الأيام الأولى من العام الدراسي بدا كل شيء عاديا معتادا، الدروس والنشاط المدرسي، والحديث الهامس عن بنت جميلة، أو عن ممثلة في فيلم شاهده ولد واحد في الفصل فحكاه تفصيلا حتى أصبح الفيلم بكل مشاهده، وشكل الممثلة، طولها وعرضها وقصة شعرها وحجم صدرها ونحرها وخصرها، وما ارتدته من أثواب، وما قالته لحبيبها، تجربة عاشها كل طالب من طلاب الصف، وقد أضاف إليها بقدر ما منحه خياله.

لا أذكر الآن خطاب النحاس في البرلمان يوم 8 أكتوبر، لا أذكر رنة الصوت، ولا مخارج الألفاظ ولا التشديد على كلمة في جملة أثارت عاصفة تصفيق من أعضاء مجلسي النواب والشيوخ من مؤيدي الحكومة والمعارضين لها. بعد أقل من خمس سنوات سوف أستمع إلى خطاب آخر لزعيم آخر، وسوف أذكر كل شيء: نبرة الصوت ونص الكلمات ومشاعري، وموقعي من المذياع، والمقعد الذي جلست عليه، ، وما قلت وما لم أقل، كلها واضحة مستقرة في رأسي، تأتيني في ثانية إن استدعيتها، أو تطفو فجأة بلا سبب واضح. لسنا في عام 1956، لن أستبق الأحداث، نحن الآن في خريف 1951:

ولد في المرحلة الثانوية في الرابعة عشرة من عمره، يذهب إلى المدرسة؛ يوم عادي لا يبدأ أسبوعا جديدا ولا ينهيه، مجرد يوم ثلاثاء باهت كأنه بلا معنى. يتحدث بعض الأولاد في المدرسة عن إلغاء

المعاهدة، يتحدثون بحماس مأخوذين ممسوسين بالحكاية وأصلها وفصلها ومسارها القادم.

سَرَت العدوى.

في طريق عودته من المدرسة اشترى الولد الجريدة.

صار يواظب على قراءة الجرائد، والاستماع لنشرات الأخبار، ومتابعة ما يحدث.

الكلمات قاصرة، لم أكن أقرأ وأسمع وأتابع، كنت في قطار سريع يختلط صوت صفاراته العالية وإيقاعه المرتج بقوة الحياة في كل من على متنه من صبية. سأعيد الصورة: لم تكن رحلة مدرسية، لم تكن للصفارات المصاحبة للقطار وهو يقطع المسافات نهبا، رنين أجراس الأفراح والأعياد وحدها، بل صوت وصدى يصعب علي وصفهما. لست شاعرا لأتمكن من جمع النقائض، وتركيز الحكايات المركبة الطويلة في كلمات أحددها وأحمّلها بما يتجاوز طاقتها، وأمكِّنها وأنا أدفع بها إلى الحافة. كيف أنقل بيسر مختصر مفيد ومكثف وقع الصوت فينا ونحن داخل ذلك القطار السريع، نتسابق معه، ونتجاوزه ونغلب، لأنه قطار من حديد، ونحن من لحم ودم، رشق السكين في أجسادنا يتحول بمعادلة غامضة إلى قوة دفع كأنها جنّ أو وقود أو شهوة مثقلة ببذور الحياة؟

من أين أتتني صورة القطار؟

القطار الآخر، الذاكرة لا تسقط شيئا.

كتب:

رفض العمال المصريون تسيير قطار ينقل الجنود وعتادهم إلى مدن القنال (أرسلت بريطانيا ثلاث ناقلات جند تحمل ثلاثة آلاف فرد من عسكرها ردا على إلغاء المعاهدة). لم يسر القطار إلى مقصده.

امتنع سائق القطار عن تسييره، امتنع مساعده، وامتنع العمال عن تزويده بالوقود.

دارت العجلة: رفض العمال شحن وتفريغ السفن البريطانية. ترك العاملون أشغالهم في المعسكرات وغادروا. أضرب المتعهدون والموردون. قاطع التجار معسكرات جيش الاحتلال. في الإسماعيلية: خرج الأهالي في مظاهرات حاشدة تأييدا لإلغاء المعاهدة. احتل عسكر الإنجليز المدينة بالسيارات المصفحة. أطلقوا النار على الأهالي.

سبعة شهداء وأربعون جريحا.

في اليوم نفسه، مظاهرات في بور سعيد. هجوم بريطاني. المتظاهرون أضرموا النار في مخازن البحرية البريطانية.

خمسة شهداء والكثير من الجرحى.

في اليوم التالي احتلت القوات البريطانية مكاتب الجمارك والجوازات والحجر الصحي والحجر الزراعي في المدينتين. عُطِّلَت المواصلات. استولت على خط السكة الحديد. احتلت كوبري الفردان.

بعد ثلاثة أيام احتلت جمرك السويس. حاصرت مدن القناة وقراها. أقامت حواجز تفتيش.

بعد أقل من أربعة أسابيع، الإسماعيلية مرة أخرى: أطلقت القوات البريطانية النار على بلوكات النظام.

ثلاثة عشر شهيدا وثلاثة وعشرون جريحا.

السويس، بعد أسبوعين:

ثمانية وعشرون شهيدا وسبعون جريحا.

في اليوم التالي شيعت السويس شهداءها، خمسة عشر نعشا

خرجت تباعا من المستشفى محمولة على الأكتاف. أطلق الإنجليز النار.

خمسة عشر شهيدا وتسعة وعشرون جريحا.

تمتم: معادلة غريبة غير مفهومة؛ استدرك: معادلة واضحة لا لبس فيها، لم يكن الشهداء يستقرون في قبور مظلمة بلا حس ولا خبر.

يوم الأربعاء، يوم تشييع شهداء السويس في الرابع من ديسمبر: سقط من جنود الاحتلال أربعة وعشرون قتيلا وسبعة وستون جريحا. يوم الخميس خرجنا إلى الشوارع. في المساء أعلنت الحكومة تعطيل الدراسة في كافة المدارس والجامعات، في القاهرة والجيزة والإسكندرية.

يوم الجمعة حاصرت القوات البريطانية السويس وحشدت آلاف الجنود ومئات الدبابات والمصفحات وعددا من الطائرات الحربية. صباح السبت اكتسحت تلك القوات كفر أحمد عبده في السويس. هدمت كل منازل الحي ونسفتها بالألغام. أزالت الحي إزالة كاملة. بعد تسعة أيام ضربوا محافظة الإسماعيلية بمدافع الهاون.

عدنا إلى الدراسة وتجددت المظاهرات فأعلنت الحكومة إغلاق المدارس والجامعات بدءا من يوم السبت 29 ديسمبر إلى أجل غير مسمى. تواصلت المعارك وسقط شهداء من طلاب الجامعة لا يكبرونني سوى بسنوات قليلة. شيَّعت الجامعة شهيدا من طلابها في جنازة شارك فيها عشرات الآلاف. بعدها بيومين سقطت التل الكبير وأعلن الملك ابتهاج البلاد بولادة ولي عهد فبدأنا إضرابا منذ يوم الأحد 20 يناير، هتفنا ضد الملك وسمعنا أن طلاب مدرسة عمرو بن العاص بمصر القديمة صعدوا إلى سطح المدرسة ورشقوا رجال الأمن

بالحجارة وبأثاث المدرسة. تناقلنا الخبر، فكرنا: هل تكون هذه هي الخطوة القادمة؟ لم نكن أجبنا على السؤال حين قررت وزارة المعارف تعطيل الدراسة من جديد على أن تستأنف صباح السبت 26 يناير.

صباح السبت نزلتُ إلى الشارع. كانت المرة الأولى التي أتظاهر فيها مع غير طلاب مدرستي. في الليل جلست بجوار والدي أستمع من المذياع إلى بيان الحكومة:

جاء في البيان أن: «دعاة الفتنة في البلاد وفريقا من الذين فسدت ضمائرهم لم يتورعوا عن استغلال هذا الظرف فأثاروا الفتنة وأشاعوها وعرّضوا مدينة القاهرة للفوضى والدمار والحريق والنهب والسلب محاولين بذلك قلب نظام الحكم في البلاد وفقا لخطة مدبرة ومطمّعين العدو أن يتخذ من ذلك ذريعة إلى التدخل في شئون الوطن.»

قرأ المذيع بيان الحكومة وأعلن قراراتها بمنع التجول وإعلان الأحكام العرفية ونزول الجيش إلى الشارع؛ بعدها عاد المذيع ليعلن قرار الملك بإقالة حكومة الوفد، وتكليف علي ماهر بتشكيل وزارة جديدة.

كرر أبي: هذه الأحداث من تدبير الإنجليز أو السراي، أرادوا التخلص من الوفد وحققوا ما أرادوه. اختلفت مع أبي، لم يستمع لكلامي، أغلق المذياع بشكل مباغت وقال: «سننام!» وقبل أن أصل باب غرفتي أطفأ أنوار البيت ودخل إلى فراشه.

لم يربكني رأي أبي، تمردت عليه وأسقطته بسرعة وسهولة. الارتباك جاء في الأيام التالية حين تكرر الحديث عن «خطة مرسومة مدبرة» و«أيدي أجنبية» و«مؤامرة». كلهم تحدثوا عن مؤامرة، أبي، وزعيم الوفد وقياداته، وقيادات الأحزاب الأخرى، وكتّاب الجرائد التابعة للحكومة والمعارضة لها. المدرسة مغلقة، لا مجال للتشاور

والتفكير المشترك مع الأصحاب، لا مجال لقوة نستجمعها بتواجدنا معا، تمنحنا الثقة في أنفسنا وفكرتنا. تأتينا التصريحات من كل جانب، كأنها قصف من الجهات الأربع. هل سلّمنا؟ لا أدري، لم أعد أذكر سوى أننا ،عند استئناف الدراسة، كنا واهنين صامتين وعلى قلق، كأن السؤال على غير السابق من الأسئلة يستبدل بتورد الوجه الشحوب، وبالاندفاع تشتتا ينعكس بطأً في الحركة والتفكير.

ولكني رأيت بأم عيني نادي التُرف محروقا واللوحات الزيتية، أو قل المتبقي منها، لصور كرومر وجورست وكيتشنر واللنبي ولويد تدوسها الأقدام، رأيت شبرد وشركة كوك وشركة الطيران البريطانية وشيكوريل مخرّبة تدعو البوم ليعشش فيها، هل كنت بحاجة لإشارات أكثر وضوحا؟! كيف أربكوني؟

«هل شاركت في مؤامرة؟!» لم تطفُ الفكرة واضحة وضوح الكلمات. طويتها كما يطوي الإنسان لحظة ذنب اقترفه ثم دفع به عميقا في جانب مهمل ومظلم من تلافيف عقله. ليس التشبيه دقيقا، أعيده: طويت اللحظة كورقة يحفظها الإنسان ضمن أوراق قديمة وصور باهتة لا يستشعر حاجة لها، ولكنه لسبب مبهم لا يتخلص منها. هذا التشبيه أيضا ليس دقيقا. كنت أعود لها، دائما أعود، أعود تسللا، أو كشخص مصاب بداء المشي أثناء النوم، يقوم ويمشي، يتفقد أشياء ويفعل أشياء، وفي الصباح ينسى ما قام به.

تربيت على كتب عبد الرحمن الرافعي. في المدرسة الثانوية قرأت كتبه عن عصر إسماعيل، والثورة العرابية، ومصطفى كامل، ومحمد فريد، وثورة 1919. في الجامعة اشتريت كتابه: «مقدمات ثورة 23 يوليو»، وكتابه التالي أيضا، الأخير على ما أعتقد، «ثورة يوليو تاريخنا القومي في سبع سنوات». قال الرافعي في «المقدمات»:

«حريق القاهرة يوم 26 يناير 1952 كان مأساة ينفطر لها القلب حزنا

وأسفا»، قال إن الحريق «انبعث من النفوس المريضة بين المواطنين»، حريق القاهرة «قامت به العناصر الرديئة من الشعب»، «رأينا الغوغاء يشعلون النار جزافا في المحلات التجارية دون مبالاة أو اكتراث.»

وفي كتابه التالي، وتحت عنوان «الدسائس والمؤامرات الأولى لإحباط الثورة: حوادث الشغب في كفر الدوار» وصف الرافعي إضراب عمال شركة الغزل والنسيج بكفر الدوار في أغسطس 1952 بنفس المفردات التي سبق له استخدامها في حديثه عن الحريق. لم ير في الإضراب الذي شارك فيه عشرة آلاف عامل سوى «فتنة» و«هياج» و«إثارة» و«شغب».

كتب الرافعي:

«وتبيّن من سرعة تعاقب حوادث الشغب أنه لولا قوة الجيش وتدخله السريع لقمع الفتنة لتعددت وقائع الشغب في أنحاء متفرقة وتجددت أحداث مشابهة لحوادث حريق القاهرة، تلك الحوادث التي لم تقمع إلا حين تدخل الجيش وأعاد النظام في يناير 1952.

وقد حكمت المحكمة العسكرية العليا في 8 أغسطس بالإعدام على محمد مصطفى خميس أحد عمال المصنع و«قائد الشغب»، وعلى محمد حسن البقري، ونفذ فيهما حكم الإعدام بسجن الحدرة بالإسكندرية.»

عاودت قراءة كتاب «مقدمات ثورة يوليو» لأنقل رأي الرافعي في مظاهرتنا، يقول:

«لم يكن معروفا على وجه التحقيق ماذا كان يقصد هؤلاء الطلبة من مظاهراتهم الصاخبة» ويخلص إلى «أن الروح الوطنية لم تكن مصدر هذه المظاهرات. بل كانت تتسلط عليها روح الشغب والفوضى والإخلال بالأمن والنظام، والاستجابة إلى نداء المضللين والهدامين

الذين أرادوا إذاعة الفوضى والاضطراب في الوقت الذي كانت مصر فيه تواجه معركة من أهم معارك الكفاح الوطني.

ثم إن الجهاد لا يكون بمثل هذه المظاهرات الصاخبة التي ليست لها غاية مشروعة . . . وإنما يكون الجهاد ببذل النفس والتضحية في معارك القتال ذاتها، لا بالشغب والمسرحيات في شوارع العاصمة ومدارسها.»

صدّق الولد، انسحب إلى دروسه. لا وقت للأسئلة. كتابه في يمينه، والمدرسة على بعد شارعين. يذهب ويعود. «شدّ حيلك» قال أبوه. شدّ الولد وجدّ وصار طالبا جامعيا، كتابه ما زال في يمينه يتعلم منه أصول حرفته الجديدة. يذهب إلى الجامعة، جامعة لا تعرف المظاهرات الكبيرة. الضباط الأحرار يحكمون البلاد بما يرضي الله والشعب، وهو الشعب: طالب صغير له قاعة الدرس، ولهم إدارة شئون البلاد، وللإذاعة الأغاني العاطفية والأناشيد.

تمتم الناظر: قتلتني يا مؤرخ!

داهمه برد مفاجئ. تدثر بعباءته الصوفية. جلس متربعا. هل أغفى فرأى فيما يرى النائم ما رأى، أم كان يقظا يمشي مشيا بلا صوت كأنه في منام، يحدِّق في مشهد فيه صبي، وفيه شيخ، وفيه قبر مفتوح، وفيه جمهرة من صبية وصبايا قادرين على الركض، ويركضون؟ مسح دموعه، قال: الوقت يداهمني. قرّب المدفأة من المائدة وواصل الكتابة.

الفصل الثالث

يُحَيِّرُني شكل استجابتي للمرأة الحامل، ابنتي، أو ابنة أصدقاء أو معارف، أو امرأة عابرة تلتقطها عيني في الطريق: شعور كأنه الإشفاق، أو التوجس أو الخوف، أو شيء آخر أجد صعوبة في تعريفه لأنه مبهم وغير محدد، ورغم ذلك أعرفه تماما لأنه يتكرر، ليس فقط عندما أتملى البطن المتكور وامتلاء الثديين، بل في لمحة، ترسل العينان فيها إشارتهما البرقية إلى الرأس فتأتي الإجابة الفورية: اضطراب ما، انقباض أو اختلال طفيف في الحركة المنتظمة لعضلة القلب، أو دوار لا يدوم سوى جزء من الثانية، اضطراب بسيط غير ملحوظ، ألحظه.

أستغرب هذا الشعور لأنني أحبُ الأطفال، واحتفي بتوقع مولود جديد في العائلة، ليس احتفاءً اجتماعيا بل فرح عميق لا يصدر عن فكرة نظرية بتجدد الحياة، ولكن عن خبرة عمر ممتد لرجل أنجب ثلاث بنات واستمتع بحمل أحفاده بين ذراعيه فأيقن أن في الكلام المجرد عن تجدد الحياة تلخيصا دقيقا لوعي البشر بتلك التجربة الأغنى من أي تعريف. فلماذا تصيبني فكرة الحمل بالأسى والارتباك؟!- للدقة: لا أسى ولا ارتباك بل فزع مكتوم تتصفي صرخته فلا يصل منها سوى صوت واهن أمر عليه، وأمضي.

أتذكر أمي: بطنها المنتفخ أقرب إلى لغز بلا حل، مدهش ومثير

ومحيِّر، يتطلب صبرا لا أملكه. أسأل كثيرا، تقول إن الصغير يتحرك في بطنها ويأكل أيضا، أكذِّبها. تمسك بيدي تضعها على بطنها، تقول: «ها هو يتحرك، ألا تشعر به؟!» أصيح: «نفتح الصندوق ونشوف!» تضحك أمي على استخدامي كلمة الصندوق.

في حملها التالي أصبح صاحب معرفة، أُطْلِع أختي على ما لدي من أسرار الصندوق. لم يخل الأمر أبدا، في حالة أمي والعمات والخالات، من حب استطلاع من جانبي، وإحساس بالمغامرة، ورغبة مثيرة في متابعة هذه اللعبة الأشبه بتعقبنا لولد أو بنت من رفاقنا في اللعب مختف في الحجرة المظلمة.

في حملها الأخير اختلف الأمر. ولد كبير في التاسعة، يرعى أختيه الأصغر، يعي أن المثير في الحمل والولادة يمتزج بقلق لا يخل من خوف، ورجاء معلق بين الصرخة المختنقة وصرخة أخرى تعقبها كلمات التهنئة. أمي تلد في البيت على يد قابلة. تحدد لي الأصوات ووجه أبي وجدتي مسار هذه المشاعر، أعرفها ولا أحيط بها.

أقف خارج الغرفة مع أبي، ينفتح الباب، أسمع كلمة: تفضلوا. أمي ترقد في السرير، جدتي متربعة على مقعد كبير، الصغير بين يديها لا يبد منه سوى رأس مدور، وعينان مغلقتان، وشعر أسود مبتل، ويدان أصغر من يدي دمية أختي. تقول جدتي: يشبهك! أتطلع إليه. أمد يدي. أحمله. أحمله قبل أن يحمله أبي.

حملتُ أخي الأصغر كأنني أبوه، حملته بحرص، ربما كنت فرحا بكونه ولدا مثلي، ربما أحببت شكله، أو أحببت نفسي وأنا أحمله بين ذراعيّ، صغيرا وهشا ويحتاج حمايتي.

تمتم الناظر: «الحجرة المظلمة، لعبة للكبار، الشروط أصعب، ونتيجة الفوز أجنحة أو أوتاد، نهاية لعبة صغيرة: بداية اللعبة

الأخرى». صاح: «اذهب يا أبا العلاء، لا أريدك معي. لن أكتب هذا الكلام!»

في المراهقة يتغامز الأولاد لفكرة المرأة الحامل ولمشهدها. يكتمون البسمة الماكرة، أعرف ذلك ولا أذكر واقعة بعينها. أحببت حب المراهقين العاصف: قاطرة تطير، لا يلحق بها لا ظلها ولا جاذبية الأرض، ترتج، تحرق وقودا، تشق الدخان المنبعث منها بصفاراتها العالية، أحمال الشهوة مكدسة فيها تثقلها، ولكنها، سبحان الله، تطير!

تزوجت وأنا في الخامسة والعشرين، تزوجت امرأة اسمها شهرزاد، خلّفت لي ثلاث بنات، ثم أخذتهم وذهبت، قلت: لا يهم! ولكني في الليل كنت أجلس على سريري مفزوعا كمن استيقظ فجأة ليجد نفسه في مدينة غير مدينته، لا يدري متى انتقل وكيف، وماذا حدث له على الطريق.

توقف عن الكتابة، قال: أنا لا أحكي الحكاية، بل أعبر من جانب إلى جانب على قنطرة من ألواح متباعدة، لماذا أبقيها متباعدة؟ كيف أحكي حياتي دون الخوض فيها؟! كيف أتفكّر في أطرافها وأخبر بما يؤول إليه أمرها وهي كرؤية معلقة على رجل طائر؟ قال: ما لا أكتبه زائد عن الحاجة، لا يدخل في صلب الحكاية، ولا يغير من الأمر شيئا: ذهبت امرأتي إلى الموت أو إلى رجل آخر، خلفت لي أولادا أو بنات، عشتُ وحيدا بعدها أو تناسختْ في حياتي تجربة اليمام، غصنٌ وإلفٌ وأبدية، كنت رجلا ملولا فاقد الصبر يُقبل ويُدبر بمنطق يستعصي على الفهم، أو آمنا وساكنا في جيب الكنغر الذي توفره لي امرأتي، لا فرق، هل هناك فرق؟! تقول طبعا هناك فرق، فأقول لك: حدق دقيقة واحدة في مشهد زلزال، تشققت الأرض بفعله، وتهدمت البيوت، واختلطت أحجارها وأخشابها بأشلاء الجثث. أنا من أهل المدينة

المنكوبة يا سيدي، ما جدوى التفاصيل؟! بلى، بعض التفاصيل لا مهرب منها، هل يمكنك إسقاط حقيقة أنك مقعد مقيد إلى كرسيك، غير قادر على الصعود والنزول، والرواح والمجيء بقانون ساقين قويتين قادرتين على الحركة ببطء أو سرعة، متثاقلتين إن أرادتا، مهرولتين إن قصدتا، وإن عنّ لهما الركض تجد نفسك راكضا وتطير؟!

شطب على الفقرة التي كتبها بخطين كبيرين متصالبين.

عاد لقراءتها.

نزع الورقة، ألقى بها في سلة المهملات.

كتب:

لم أفرح على طريقة الأفلام عندما أخبرتني شهرزاد بحملها الأول، كانت الفرحة وجلة تتحسب للوقفة البلهاء في ممر من ممرات مستشفى ما، أمام باب ما، خلفه امرأتي وطفلتي تخوضان حربا، يفصلهما عني لوح من خشب، أقف وراءه ويداي عاطلتان ورأسي خاو وقدماي تقطع الانتظار بحمل جسمي من مقعد إلى نافذة ومن جانب في الممر إلى جانب سواه.

ما علاقة هذا الكلام بسؤالك؟ تراوغ مرة أخرى، لا تفصح عن سؤالك لأنك تخشى الخوض فيه، تخاف المرايا، ووحوشا كاسرة تقفز منها مشرعة مخالبها في وجهك.

تعبت!

ارتدى معطفا وغادر البيت.

لا ازدحام الآن، والأضواء لا تجرح العين. أقفلت المحلات التجارية. انتهت الحفلات المسائية لدور السينما. هدوء يشمل الشوارع الصاخبة من مطلع النهار إلى الساعات الأولى من الفجر. يمكنه أن يمشي دون أن يتعثر في المارة أو يصطدم بهم أو تختل مشيته بشكل

مفاجئ بسبب حفرة في الطريق لا يلمحها لكثرة الأقدام من حوله. سار من ميدان طلعت حرب إلى ميدان التحرير.

كبّرت البنات. هل كان الأمر صعبا؟

استدار عائدا إلى طلعت حرب، توقف في المفرق. سأحكي عن عرس البنات. لا لن أحكي. توقف ليقطع الميدان إلى شارع قصر النيل. ما الذي يُحكى؟ الطبل والزمر والفرح ويداي تسلمان ابنتي إلى رجل غريب وأعود إلى بيتي لا أعرف أين أضع جسمي ولا روحي.

انعطف يسارا باتجاه شارع 26 يوليو. تعطي ابنتك باسما ثم تأوي إلى فراشك لتجد عيني ذلك القط القابع قريبا منك. وميض لا تحتمله يلتمع في الظلام، . خائف؟ مجرد إرهاق، ولكن الرجفة تسري في بدنك كأنك مريض بالبرد. لا أحد يموت بالبرد! ستقبل الولد، ستحب الولد، ستفسح حيِّزا لثلاثة رجال هبطوا عليك تباعا بمظلاتهم، سُنَّة الحياة!

انتبه إلى أنه يقف أمام محلات شيكوريل: لابد أن أكتب عن شيكوريل.

حتى نهاية الخمسينيات كان المحل هو الأكبر في وسط البلد، كأنك في باريس. أحدث الأزياء، وصوت الفتيات، يقبلن عليك لخدمتك: «وي مسيو، وي مدام»، «أو رفوار مسيو، أو رفوار مدام». لم أر المحل ساعة أضرمت النار فيه يوم الحريق، كنت في عابدين، أهتف بسقوط الملك. بعد الحريق جددوا المحل وظل متجرا من المتاجر الأكبر في القاهرة. سمعت حكاية سلومون شيكوريل من والدي ثم قرأت عنها مؤخرا في جريدة. مات سولومون قتيلا في قصره عام 1927. طعنه شاب صغير يعمل في خدمته ثماني طعنات أودت بحياته، وشيع جثمانه في جنازة كبيرة قطعت به الطريق من الجيزة إلى

البساتين. أغلقت معظم المحلات الكبيرة في وسط البلد حدادا يوم الجنازة. ليس هذا ما أريد تسجيله. ما المثير في حكاية رجل ثري يسكن قصرا ثم يطعنه رجل فقير من طائفته أو من طائفة أخرى؟ صاحب القصر قال تعالى يا ولد. جاء الولد، وعمل في خدمة الغني. ثم قال الغني للفقير: رُح يا ولد، أنت لا تصلح لخدمتي. طعن الولد صاحب القصر، وظل يطعن فيه حتى مات. حكاية تتكرر كل يوم بشكل أو آخر، فعلا أو مجازا، لأن الغني ظالم والفقير مظلوم، أو لأن الولد مجرم أو مهمل أو يفتقد الكفاءة المطلوبة، والغني يريد عملا في مقابل ما يدفعه من أجر. لا جديد في الحكاية ولا داعي لأن نحكي تنويعة من تنويعاتها حتى ولو كان القتيل هو سولومون شيكوريل الذي أغلقت كل متاجر القاهرة الكبيرة أبوابها حدادا عليه.

أريد الكتابة عن حكاية مورينو الأب، والد سولومون.

جاء مورينو إلى مصر من إزمير عام 1910 وفتح محلا صغيرا بجوار شملا سمّاه «أو بتي بزار» (النطق السليم لاسم المحل يفترض المعرفة بالفرنسية، كذلك قراءة اللافتة). سيوسع مورينو متجره لاحقا ويخلّف لأولاده المحل الكبير، فيكبّرونه ويضيفون إليه محلا آخر فيحمل المحلان المتجاوران في بنايتين كبيرتين اسم: Les Grands Maisons Cicurel et Oreco (وهنا أيضا يفترض معرفة الفرنسية).

عاد أدراجه إلى تقاطع 26 يوليو وطلعت حرب. سار من الأمريكيين إلى جروبي. الخواجه جروبي أيضا مهم. لم يأت من إزمير ولم يكن يهوديا، ولكنه حدد وسط المدينة الجديدة بمحلاته الأربعة. اثنان باسم جروبي واثنان باسم آلامريكين. طوق أم مربع أم دائرة أم مستطيل؟ وبهلر؟ هل أكتب عن بهلر؟!

قفل عائدا إلى البيت.

سأكتب عن إدي.

هذا ما قاله الناظر لنفسه ما إن استيقظ من النوم، ولكنه قضى النهار يبحث عن قصاصة احتفظ بها ذات يوم في مكان ما. للدقة لم تكن قصاصة بل ورقة مصورة لصفحة من كتاب ورد فيها ما رواه جندي ما من طلائع القوات البريطانية التي دخلت القدس عام 1917. بحث عن الورقة حتى وجدها. الجندي نيوزيلندي اسمه لويس إزياك سالِك، كتب أنه حمل معه من مصر إلى فلسطين أول علم لليهود يرتفع على أسوار القدس (لم يكن مطابقا لعلم إسرائيل الحالي، كان نصفه الأعلى أزرق والنصف الأسفل أبيض، تتوسطه نجمة داود). رفع الجندي العلم ما إن دخل المدينة. يقول: رفرف العلم مدة عشرين دقيقة قبل دخول القوات البريطانية التي أنزلته.

العلم الذي حمله النيوزيلندي من مصر إلى فلسطين ورفعه على سور القدس في 11 ديسمبر 1917 كان من صنع مورينو شيكوريل وترزي من الإسكندرية يدعى إليعازر سلوتسكين.

قال الناظر: غريب أمر التداعي، أردت أن أحكي عن إدي فما الذي جاء بمورينو شيكوريل؟ هناك منطق في التداعي، حكاية مورينو شيكوريل ابتلعت حكاية إدي. ليكن، سأكتب عنها لاحقا.

الفصل الرابع

في 25 نوفمبر 1875، كتب بنجامين إلى سِلينا يخبرها «بسر كبير من أسرار الدولة». لم تخل مراسلاته السابقة لها من إشارات لأحداث عامة إذ كانت رسائله لها ولأختها- رسائل يومية أحيانا- تجمع بين التعبير عن مشاعره الحميمة والرغبة في التواصل بنقل تفاصيل يومه: أين ذهب، بمن التقى، ماذا قال، وماذا فعل. كان في السبعين من عمره، ولكن «قدره الحزين» وهذا نص كلماته، أعطاه قلبا «لا يريد أن يشيخ». أحب بنجامين الأختين، آن التي تكبره بعامين، وسِلينا التي تصغره بخمسة عشر عاما. كتب لهما في الفترة من 1873 حتى موته في 1881، 1600 رسالة، ألف منها للأخت الصغرى وكان مغرما بها، يراها آسرة تفوق كل النساء، يصبو إلى قربها ويشعر، رغم مكانته ومشاغله الكثيرة، أنه وحيد في العالم، ولكن سِلينا «السيدة القاسية» كما قال لها ذات مرة لم تقابل عشقه سوى بصداقة تترك لها حياتها المستقرة مع زوجها والانشغال ببناتها وأحفادها.

نعود للرسالة.

كتب بنجامين يقول:

«بما أنك تشتكين أحيانا أنني لا أطلعك على شيء (وهي شكوى، في رأيي، لا أساس لها) سأفضي لك اليوم بسر كبير من أسرار الدولة،

قد لا يصبح سرا بعد أربع وعشرين ساعة، ولكن يهمك معرفته قبل نشر الجرائد له بأربع وعشرين ساعة، إنه أهم أسرار الدولة هذه السنة، وليس -وهذا أمر مؤكد- من الأحداث الأقل أهمية في جيلنا: بعد خمسة عشر يوما من العمل والقلق المتصل (إذ أنني- وهذا أمر يبقى بيننا فقط، أستطيع أن أنسب لنفسي الدور الأهم في هذا الموضوع) اشتريت لإنجلترا أسهم خديوي مصر في قناة السويس.

وقف ضدنا كل اللاعبين والرأسماليين والممولين في العالم، نظموا أنفسهم في عصابات للنهب يعاونهم مبعوثون سرّيون مبثوثون في كل ركن، ولكننا لاعبناهم جميعا دون أن نثير أية شكوك.

أول أمس قدم دي ليسبس (وتمتلك شركته كل الأسهم الأخرى) عرضا مهما تسانده الحكومة الفرنسية التي يعمل لحسابها. كان نجاحه سيجعل القناة مملوكة بالكامل لفرنسا مما يعطيها حق إغلاقها! أعطينا الخديوي أربعة ملايين جنيه استرليني آملين أن يساندنا البرلمان لاحقا. وكان من المستحيل دعوة البرلمان لمناقشة الأمر، كان ذلك كفيلا بإثارة انفجار يحمل الخبر إلى أطراف السماوات أو أطراف الجحيم.

الحورية سعيدة جدا «بهذا الحدث شديد الأهمية» وترغب «في معرفة كل شيء عندما يأتي السيد دي اليوم.»

في اليوم التالي كتب بنجامين رسالة أخرى إلى السيدة نفسها، جاء فيها:

«أكتب لك على عجل لأخبرك بنجاح زيارتي للحورية - يمكنني القول: حققت الزيارة نصرا لا يفوقه شيء. خبر السويس أثار الحورية، قالت: «ما يسعدها أكثر من أي شيء آخر هي الضربة التي تلقاها بيسمارك»، وأتصور أنها كانت تلمح لتصريحاته الوقحة عن أن إنجلترا لا تستطيع أن تكون قوة سياسية عظمى. كررت هذه الملحوظة عدة مرات مما يؤكد أن الفكرة كانت مسيطرة عليها...»

بعد خمس سنوات ونصف من ذلك التاريخ توفي بنجامين دزرائيلي وكتب سكرتيره اللورد روتن رسالة لليدي برادفورد التي أشرنا إليها سابقا باسمها الأول، سِلينا، يعلمها بوفاة الرجل الذي أحبها طوال السنوات الثماني الأخيرة من عمره. قال: «كان اليوم الأخير والساعات الأخيرة مؤلمة إذ كان تنفسه يزداد صعوبة، ولكن اللحظات الأخيرة كانت هادئة للغاية، بدا واضحا أنه لم يعد يتألم. حظي بنهاية كريمة جدا، جميلة جدا، وعندما تطلعت في وجهه الغالي في ذات اللحظة التي فارقته الروح فيها فكرت أنني لم أره أبدا منتصرا وفائزا بهذا الشكل»

علينا أن نعترف بأنه انتصر. قبض خديوي مصر الملايين الأربعة (وهي للدقة 3,976,582 جنيها إذ تبين عند إبرام العقد أن الأسهم تنقص 1040 سهما عن العدد المقدر سابقا)، وكان على الحكومة المصرية أن تدفع للحكومة البريطانية فوائد 5% على قيمة الثمن أي أقل قليلا من 200 ألف جنيه سنويا طوال عشرين عاما بسبب مديونيتها لشركة قناة السويس واضطرارها للتنازل عن ربح الأسهم حتى عام 1894. وُقِّع العقد، واستلمت القنصلية البريطانية جميع الأسهم مودعة في سبعة صناديق كبيرة مصفحة بالزنك، حملتها سفينة بريطانية قادمة من الهند توقفت في الإسكندرية خصيصا. ركب القنصل البريطاني قطارا خاصا حمله هو والصناديق إلى الإسكندرية، ومنها انتقلت الصناديق في أمان الله والباخرة، إلى ميناء برتثموث فبلغتها- تبعا لعبد الرحمن الرافعي- في 31 ديسمبر من العام نفسه. وفي اليوم الأول من العام الجديد (لا يشير الرافعي إن كانت أعياد ميلاد بيضاء أي تغطي الثلوج فيها البلد أم باردة وبلا ثلوج) تسلم المسئولون الصناديق ونقلوها إلى «البنك أوف انجلند» حيث أودعت فيه.

لا لم نصل إلى النهاية بعد. لم نزل في البداية، بل ما زلنا على أعتاب البداية.

حين أسلم دزرائيلي الروح بدا منتصرا فائزا، هذا ما قاله مرافقه اللورد روتن، وأضيف أنا الناظر أنه انتصر بعد الموت أيضا، فبعد أقل من عام ونصف من رحيله، (للدقة أربعة عشر شهرا)، ضربت بوارج الحورية الإسكندرية واحتلت جيوشها مصر. (لابد أن أتوقف لأشرك القارئ في سبب تلك الابتسامة التي توشك أن تصبح ضحكا. للحوريات في خيالنا شكل معلوم، وللحورية في الخيال الإنجليزي ويسمونها «فيري» شكل آخر معلوم أيضا، فهي مخلوق مدهش يأتي أفعالا ساحرة ينتصر فيها للطيبين ويحقق لهم أمنياتهم، وغالبا ما يظهر هذا المخلوق في شكل صبية أو امرأة هشة نحيفة خفيفة الحركة. كيف استطاع دزرائيلي أن يجمع بين الحورية والملكة فكتوريا، وكانت لعلم القارئ امرأة سمينة يكاد ثقل التاج يدفع برأسها المدور الصغير للغرق في امتلاء كتفيها وصدرها مسقطا دور الرقبة؟ لم أجد رقبة في أي صورة لتلك «الحورية» التي جلست على عرش بريطانيا أربعة وستين عاما، وأضافت في عام 1876 إلى لقبها الإمبراطوري اسم الهند، درة التاج كما يقولون، وحكمت عبر القارات بلادا تمتد من الهند الغربية الواقعة بين الأمريكيتين إلى شبه القارة الهندية).

نعود لحكايتنا. أرسلت الحورية بوارجها وجيوشها لاحتلال مصر، واحتلتها.

هناك شخص لا تكتمل الحكاية دون الإشارة إليه، لا يبدو ظاهرا تماما في الصورة، ولكنه موجود بل وأساسي. في رسالة 25 نوفمبر كتب بنجامين لسِلينا إنه لم يعرض صفقة أسهم قناة السويس على البرلمان. فمن أين أتى بالملايين الأربعة؟ وفرها له في يوم واحد صديقه البارون لايونيل ناثان ماير دي روتشيلد.

توقف الناظر، قال: سيخلط القارئ بين هذا الروتشيلد والروتشيلد الآخر الذي وجه له وزير خارجية بريطانيا بعد أربعة عقود من واقعة بيع

الأسهم رسالة يعده فيها باسم حكومة جلالة الملك بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وقد يختلط عليه الأمر أكثر لو أشرت إلى آخرين من أبناء وأحفاد تلك العائلة. (هذا موضوع آخر قد يتسع المجال للخوض فيه، أو لا يتسع). المهم أن يعرف القارئ أن روتشيلد بلفور حفيد روتشيلد قناة السويس، وهو ما يفسر التشابه الواضح في الشكل، فكلاهما سمين، له وجه ممتلئ مدور، وعينان صغيرتان، وجبين يبدو أعرض أو أضيق بمقدار انحسار الشعر. كلاهما كان عضوا في البرلمان البريطاني، وإن خيَّب روتشيلد بلفور آمال الأسرة إذ لم يعمل في مجال الاستثمارات والبنوك كجده وأبيه وأعمام أبيه، بل انصرف إلى التاريخ الطبيعي وجمع الفراش والحشرات النادرة وما شابه. وكان هذا الحفيد، عندما وفر الجد المال اللازم لشراء أسهم قناة السويس، في السابعة من عمره، يمارس على الأرجح ولعه باصطياد الفراش.

نترك سيرة الروتشيلدَين لنعود إلى الوجه الفائز حتى بعد أن فارقته الحياة. لم يكن لفوزه أن ينتظر موته لكي يعلن عن نفسه. بعد خمسة أشهر من شراء الأسهم، وكان بنجامين يواصل كتابة رسائله لقاسية القلب سِلينا وأختها آن الأكثر تجاوبا، تقرر إنشاء صندوق للدين في مصر الغارقة في ديونها، وأصدر إسماعيل الحالم بجعل مصر قطعة من أوروبا مرسوما في 2 مايو 1876 يقضي بإنشاء الصندوق لتسلم المبالغ المخصصة للديون، و«هي إيرادات مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة وأسيوط، وعوايد الدخولية في القاهرة والإسكندرية وإيراد جمارك الإسكندرية والسويس وبور سعيد ورشيد ودمياط والعريش، وإيراد السكك الحديدية، ورسوم الدخان، وإيراد المصلح (ضريبة الملح) ومصايد المطرية (الدقهلية)، ورسوم الكباري، وعوائد الملاحة في النيل، وإيراد كوبري قصر النيل، وإيراد أطيان الدائرة السنية.»

أغلق الناظر دفتره بغتة، وجد نفسه في طريقه إلى الشارع.

لم يقطع الشارع إلى شارع قصر النيل بل اتجه يمينا إلى ميدان الفلكي. سار في خط مستقيم إلى ميدان عابدين. حين رأى القصر انحرف يسارا في شارع إبراهيم باشا (الجمهورية الآن). هذا هو الشارع المستقيم كخط صارم يفصل القاهرة القديمة عن القاهرة الرومية. لم يعد يفصل شيئا. في الجزائر أيضا شقوا الشوارع العريضة تقطعها الميادين، على منوال أوسمان. لا أتذكر اسم الرحالة الذي قال: «تريد الجزائر أن تكون نسخة من باريس، ولكنها لم تفلح إلا أن تكون صورة بائسة من مرسيليا». إنتظِر، لم يحن بعد وقت الحديث عن النسخة البائسة، حديث سوق العِرَس سيأتي لاحقا، أجِّل ذلك قليلا. جئنا ننظر إلى صندوق الدين. المبنى ما زال قائما.

توقف في ميدان الأوبرا. لم تعد فيه أوبرا، أكلتها النار. رأيتها وهي تحترق، أي صدفة! هل كان يوم خميس أو يوم جمعة؟ لم أعد أذكر، ولكني أذكر أنني اصطحبت بناتي لمشاهدة عرض في مسرح العرائس. وفي انتظار موعد بداية العرض اشتريت لهن غزل البنات، يقبلن عليه، الصغيرة تبدو أكثر استغراقا وهي ترفعه في يمينها كأنه علم، لا ترفع عينيها عن كرة السكر الوردي الملتف حول العصا في يمينها، تقضم منها ثم تضحك وتقول: «هرب!» تعجبها اللعبة المراوغة. لا يفوتني ملاحظة أثوابهن، وتصفيفة شعورهن، والبهجة المرتسمة على وجوههن. شعور كأنه الزهو يتسلل إلي. ثم أنتبه للجلبة وصوت المطافئ وأقف مع البنات على الرصيف المقابل على أطراف حديقة الأزبكية نشاهد النيران وهي تأكل في المبنى، ولكن البنات اكتفين بربع ساعة من مشهد الحريق والمطافئ: «بابا، سنتأخر على العرض!» قطعنا الممر الواقع خلف المسرح القومي، ممر ترابي موحش ومهمل تفوح منه رائحة البول، ولكنه يوصلنا إلى مسرح العرائس. دخلنا، أجلست الأصغر عن يميني والوسطى عن يساري،

والأكبر إلى يمين الأصغر. البنات يتابعن الأوبريت يضحكن ويصاحبن بالتصفيق وأحيانا بالغناء صوت الكورَس:

دي الليلة الكبيرة يا عمّي والعالم كتيرة

ماليين الشوادر يابا م الريف والبنادر

يطربني تمايل الصغيرة تجاوبا مع الغناء، أتابع حركة رأسها وكتفيها وجذعها، تتمايل خفيفا وبانتظام مع إيقاع اللحن والكلمات:

شفت ف منام صاحب المقام ده أبّهه

ويمامة حايمه عليه تسبّح ربّها

ميّلت فوق إيده وجيت أحبّها

صحّوني م النوم خدت بعضي وتنّي جي

الله حي.. الله حي..

أشرد في الحريق، ثم تشدني الفرجة، ثم أعود أشرد. البنات يضحكن على الراقصة الخشبية والحركة المبالغة لهز الردفين. أنظر وأنا شارد في الأوبرا وشجونها. ريجوليتو لفردي في ليلة الافتتاح. إسماعيل منتشيا في المقصورة الخديوية، بجواره الإمبراطورة التي شيد لها قصرا تنزل فيه أثناء زيارتها للقاهرة، وزوجها نابليون الثالث، وفرانز جوزيف إمبراطور النمسا. المدير الفرنسي جالس في مكان ما في الصدارة. عمال السخرة الذين بنوا الدار ينامون في قراهم. تأخر فردي عامين على ليلة الافتتاح، وأخيرا «عايدة». 1871 أول عرض لها في دار الأوبرا، لحنها فردي في فيلا سانتا آجاتا بالقرب من بوسيتو في إيطاليا. جاء قائد الأوركسترا والمغني والمغنية والممثلون والعازفون من أوروبا. صُمِّمَت الملابس وحيكت في باريس. قام المصريون بأدوار الكومبارس وعزف الطبول. وأرسل الخديوي برقية إلى فردي جاء فيها: «إن اختيارك أيها المايسترو العظيم، تأليف أوبرا تدور وقائعها في

دولتي حقق لي أمنيتي في خلق إنتاج وطني، وربما يصبح ذلك من أمجد ما يُذكر به عصري.»

بنت تايهة طول كده

رجلها الشمال

فيها خلخال زي ده

... ...

دي الليلة الكبيرة يا عمّي والعالم كتيرة.

مالبين الشوادر يابا م الريف والبنادر.

وقف الناظر في الميدان. هنا كانت الأوبرا، قطعة كاملة من أوروبا. صممها فاشيوتي وروسّي على طراز لا سكالا في ميلانو. الأوبرا في صدر الميدان، إلى يسارها صندوق الدين، ما زال قائما. تطلع عبر الشارع، هناك كان فندق شبرد، قطعة صغيرة من إنجلترا، كأنه القنصلية البريطانية. أحرقه المتظاهرون في يناير 1952، احترق الفندق وشركة كوك للسياحة وكانت تشغل جانبا منه. مكتب توماس كوك وابنه ينظم رحلات الإنجليز إلى صعيد مصر. مراكبه أيضا قطعة من أوروبا سابحة باسم الله في النيل: الطعام إنجليزي، مستوى الخدمة، لغة الحديث. جون ميسون كوك، ابن توماس كوك، طويل عريض قوي البنية- أتخيله في حجم روتشيلد بلفور، لكن روتشيلد كان يغوى جمع الفراشات والتاريخ الطبيعي، وجون ميسون كوك كان حاد المزاج يشرف على كل شيء، يمسك النيل وأرواح العاملين معه في قبضته. يقال: أمسك بتلابيب ترجمان لم يتحدث معه بما يراه لائقا وألقى به في النهر. «أهم شخصية في القاهرة هي كوك!» هذا ما كتبته جريدة «فانيتي فير» عام 1889؛ الجريدة على حق فالرحالة القادمون من وراء البحار يسلمون أنفسهم لشركة كوك ترتب لهم تفاصيل زيارة

القاهرة، ثم تحملهم في سفنها إلى صعيد مصر لمشاهدة آثارها القديمة، وعلى متن السفن الجارية في رعاية الله والشركة، يدوِّن بعض الرحالة يومياتهم في نهاية كل يوم سياحي، وعند عودته إلى بلاده ينقح ما كتب ويزيد عليه أو ينقص منه، ويدفع به إلى المطابع لتنشره في الناس.

تطلع الناظر إلى المبنى الجديد الذي شيد مكان الأوبرا، منبتّا، لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى. لافتة كبيرة كتب عليها «محافظة القاهرة: المبنى التجاري وجراج الأوبرا». مبنى مصمت يتعاقب على طوابقه الثمانية الإسمنت والزجاج الداكن، وراءه مباشرة طوابق الجراج الأربعة: ممرات شبه معتمة تلتف صاعدة من مستوى إلى آخر حيث يصفّ الراغبون سياراتهم مقابل أجر معلوم لكل ساعة انتظار. حين تصحبني بنت من بناتي إلى المسرح القومي تترك سيارتها في الجراج، أهبط معها درجا معتما وضيقا وملتفا يقود إلى ميدان العتبة جهة المسرح القومي. أخرج من اختناق السلم مقبلا على فضاء الشارع، وأنسى، دائما أنسى أن ما أتصوره فضاءً سيداهمني برائحة مركّبة قد يغلب البول عليها أو لا يغلب. نبطئ الخطو لنشق لنفسينا طريقا بين الرائحة والضجيج وازدحام المارة والسيارات والمعروضات التي تحتل جانبا من الرصيف.

أراد العبور إلى شارع البوسطة، استصعب ذلك، السيارات تأتي مندفعة باتجاه الجسر العلوي المعلق فوق شارع الأزهر والنفق الأرضي المحفور تحته. قبل أن يعبر إلى الجانب الغربي من الميدان دار حول تمثال إبراهيم باشا. جددوا المكان، أضافوا أرضية من رخام يحيط بها مساحة من العشب الأخضر المعتنى به، يتوسطها التمثال البرونزي على قاعدة جديدة، هل هي جديدة أم مجلوة تبدو كأنها جديدة؟ خلّف التمثال وراءه وعبر الشارع، عبر مرة أخرى فعاد إلى الجانب الشرقي من الميدان حيث «الأوبرا مول»، مبنى تجاري آخر إسمنتي أصم يشغل

مكان السينما والملهى القديم، ملهى بديعة. انحرف يمينا وتوقف أمام تفرع الشارع، أيهما شارع البوسطة؟ انتبه إلى بناية باذخة ومهملة إلى يساره. طراز فكتوري، «طراز الحورية!» في مواجهتها بناية صغيرة من ثلاث طوابق مطلية بلون أخضر تنتهي بمئذنة صغيرة نبّهه لوجودها صوت مؤذن انطلق منها فجأة عبر مكبر للصوت. رفع عينيه. بدت شرفات المبنى والمئذنة ومكبر الصوت متسقة في عشوائيتها. انحرف يسارا إلى شارع صندوق الدين. إلي يمين الشارع لافتة معدنية صغيرة تحمل الاسم القديم بخط صغير يعلوه بخط أكبر الاسم الجديد: «صندوق التوفير»!

هذا صندوق الدين: مبنى من طابقين وطابق أرضي. مطلي الآن باللون الأبيض: جددوه! لم يتمكن من تأمل المبنى كاملا. تغطي جانبه المواجه لمبنى البوسطة أكشاك عشوائية صغيرة للوازم كهربائية: الأسلاك والوصلات والمصابيح الصغيرة، وكذلك الواجهة الأخرى وإن اختلفت سلعة البائعين: بطاقات ملونة، رسومات رديئة على أوراق بردى، لوحات لآيات قرآنية جاهزة خلف ألواح زجاجية لها أطر ذهبية فجة. البطاقات والنثريات معروضة على العوارض الخشبية للأكشاك، أما اللوحات فمفروشة على جانب من الطريق تشارك الازدحام والتراب والحفر والكوبري العلوي الذي يقسم الشارع ولا يعلو إلا قليلا عن مستواه في تحويل الطريق إلى ممر ضيق وخانق، يمشي فيه بحرص كي لا يصطدم بالمارة أو يتعثر في اللوحات أو في حفرة، أو تخوض قدماه في ماء لا يدري إن كان من بقايا ما رشه أحد أصحاب المحلات لمغالبة التراب، أم تسرب من زاوية قضى فيها أحد المارة حاجته وهو واقف وظهره إلى الشارع. لا إله إلا الله.

قفل عائدا إلى البيت.

الفصل الخامس

ظهر يوم 26 يوليو عام 1952 توجه سليمان حافظ وكيل مجلس الدولة إلى قصر رأس التين يحمل إلى الملك فاروق وثيقة التنازل عن العرش. ستة سطور بخط الرقعة تقول:

«لما كنا نتطلب الخير دائما لأمتنا ونبتغي سعادتها ورقيها

ولما كنا نرغب رغبة أكيدة في تجنيب البلاد المصاعب التي تواجهها في هذه الظروف الدقيقة ونزولا على إرادة الشعب

قررنا النزول عن العرش لولي عهدنا الأمير أحمد فؤاد وأصدرنا أمرنا بهذا إلى حضرة صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه».

قرأ الملك الوثيقة ووقعها مرتين، توقيع أول في نهاية الوثيقة بجوار عبارة: «صدر بقصر رأس التين في 4 ذي القعدة 1371 (26 يوليو 1952)»، وتوقيع ثاني فوق اسمه يسبق عبارة: «أمر ملكي رقم 65 لسنة 1952». وقع الملك توقيعه الثاني فوق كلمة فاروق في عنوان الوثيقة المكتوب بخط أسود ثقيل. (يفسر الرافعي ذلك بأن فاروق لاحظ أن يده اهتزت عند التوقيع فوقع مرة ثانية أعلى الوثيقة. ويبدو لي، على غير ما يقول الرافعي، أن الملك أراد أن يوقع ثانية على عبارة «نحن

فاروق الأول ملك مصر والسودان» ليؤكد هذه الحقيقة، لنفسه على الأقل، بالتوقيع عليها لآخر مرة، فالتوقيع الثاني أشد سوادا من الأول مما يرجح أن الملك كان يضغط بشكل استثنائي على سن القلم.)

ولكن عباس حلمي الثاني في 25 يونيو 1898، في نفس المكان على شاطئ بحر الإسكندرية، أعني قصر رأس التين، لم يكن يتنازل عن العرش بل يوقع مجرد «ديكريتو» بإنشاء بنك. أرفقه «بأمر عال» تقضي مادته الثانية بأن «للبنك الأهلي المصري الامتياز بإصدار أوراق مالية تدفع لحاملها عند تقديمها وذلك حسب الشروط والقيود المدونة في النظمنامة المذكورة ولا يمنح هذا الامتياز لبنك آخر طول مدة بقاء الشركة.» اكتفى عباس حلمي بتوقيع واحد، مهره بخاتمه الخديوي. وكانت الحكومة المصرية قبل أربعة أيام من ذلك التاريخ قد باعت أراضي الدائرة السنية (ما يقرب من نصف مليون فدان) إلى مجموعة من المستثمرين الأجانب برئاسة السير إرنست كاسل.

ورغم أن عباس حلمي الثاني حكم مصر اثنين وعشرين عاما، وحكمها فاروق خمسة عشر عاما إلا أنني لا أنوي الكتابة هنا عن أي منهما، بل أريد أن أحكي عن رجل يظهر في الصور بقبعة عالية وياقة منشاة وربطة عنق صغيرة أشبه بفراشة. الرجل اسمه إرنست كاسل والذي سبق أن أوردت اسمه كمشتري للدائرة السنية. وكان كاسل كناثان روتشيلد (وهذا روتشيلد ثالث يرد في روايتنا) يهوديا ألمانيا، انتقل إلى إنجلترا وهو في السابعة عشرة من عمره واكتسب الجنسية البريطانية وتحول رسميا إلى المسيحية (في تلك التفصيلة الأخيرة، أعني الانتقال من دين لدين ذهب كاسل مذهبا مخالفا لروتشيلد ومشابها لدزرائيلي الذي قرر أبوه تعميده هو اخوته، فانتقل رسميا إلى الدين المسيحي وإن عبر في كل كتاباته عن وعي حاد بأصوله اليهودية).

ارتبط الرجل ذو القبعة العالية بشبكة مصالح مالية وعلاقات عائلية

عبر المصاهرة بالعديد من رجال المال الأوروبيين اليهود، لعل أبرزهم موريس دي هيرش المليونير اليهودي الذي أنشأ المنظمة اليهودية لاستعمار فلسطين قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول بست سنوات.

من مكتبه في لندن وقع كاسل عقدين لتمويل سد في أسوان وآخر في أسيوط يفيد في ري آلاف الأفدنة في منطقة كوم امبو (فدادين تابعة للدائرة السنية التي اشتراها قبل شهور من توقيع عقد إنشاء البنك الأهلي وفدادين أخرى إضافية) ويخدم زراعة قصب السكر في المنطقة.

نعود إلى البنك الأهلي الذي امتلك كاسل ممثلا للجانب البريطاني 50% من رأسماله وملكيته، ومثل الجانب المصري ثلاثة أشخاص: يهوديان وفد جدهما من تريستا في جنوب أوروبا هما الأخوان سوارِس، وكونستتين سلفاجوس وهو يوناني من الإسكندرية يمتلك 1800 فدان في الدلتا وتمتلك عائلته 130 ألف فدان أغلبها يزرع بالقطن. أوكل كاسل إلى كارل مايير الذي عمل سكرتيرا خاصا لألفريد روتشيلد (وهذا روتشيلد رابع) رئاسة اللجنة الإنجليزية المشرفة على البنك.

ويمكن وصف صداقات كاسل بأنها عابرة للبلدان والقارات ليس على طريقة «يا عمال العالم اتحدوا»، بل أشبه بالجسور العلوية المعلقة فوق الشوارع ورؤوس السائرين فيها. وكان كاسل الذي اعتاد قضاء جزء من فصل الشتاء في مصر صديقا شخصيا للخديوي عباس حلمي الثاني (أقرضه كاسل نصف مليون جنيه فما كان من الخديوي إلا أن رد الجميل بأحسن منه فسمح لصديقه باستغلال آلاف الأفدنة من أراضي الصعيد، إضافة لأملاك الدائرة السنية). وكان الرجل أيضا صديقا حميما لولي عهد بريطانيا (البرينس اوف ويلز) يتشاركان الاهتمام بسباق الخيول، (كان كاسل يربي الخيول ويطلقها في حلقات السباق). وظل الرجلان على عهدهما حتى بعد أن أصبح الأمير ملكا على بريطانيا.

لا أظن أني سمعت اسم كاسل يرد على لسان أبي رغم أنه مؤسس البنك الذي يعمل فيه. ولم يكن البنك الأهلي بالنسبة لنا مجرد مكان لعمل رب الأسرة يعيِّنُه الواحد منا حين يجيب على السؤال: «ما شغل والدك؟» بل تتردد في بيتنا كلمة «البنك»، معرّفة وأليفة ولها رنين خاص، تكاد تكون مرادفة لأبي وجزءاً بالتالي من هويتنا، أو كأن عمل أبي في البنك سحب الأسرة كلها إليه لتصبح فرعا من فروعه. نقل إلينا أبي شعوره بقيمة البنك واعتزازه بالعمل فيه.

صباح يوم عيد ميلادي الخامس أبرز أبي عملات ورقية وسألني: ما هذا؟ قلت: فلوس! ابتسم كمن على وشك الكشف عن سر قال: اسمها *أوراق نقدية*، عندما تتعلم القراءة ستعرف ما المكتوب هنا. أشار بسبابته إلى قوس مخطوط فوق صورة لتمثال فرعوني على الجنيه، قال: National Bank of Egypt ثم حرك إصبعه إلى عبارة أصغر في أسفل الورقة، قال: البنك الأهلي المصري، كل ما في مصر من نقود، نحن نُصْدِرُه!

تطلعت في أبي كمعجزة لا تعقل وتستعصي على الفهم، ولكنها مؤكدة وملموسة تثير بضوئها المبهر الدهشة والاضطراب والتصديق وعدم التصديق: كل نقود مصر، كل ما فيها من جنيهات في حوزته، وهو الذي يعطيها للناس! بقيت متخشبا في مكاني رغم أشياء غريبة أشعر بها في صدري، كأنني صعدت السلم ركضا مرات متتالية.

ضحك أبي وأعطاني ورقة نقدية جديدة، قال: «كل سنة وانت طيب، أعطها لأمك تدخرها لك مع ما تحفظه لك من نقود.»

لم يقل لي أبي ذلك اليوم أن أوراق النقد التي يصدرها البنك كانت تطبع في بريطانيا لدى شركة برادبري ويلكنسون وشركاه في مطابعها بمقاطعة ساري، ولم يشر لكاسل ولا للإخوان سوارِس والعائلات اليهودية الأخرى التي تملك البنك، فهذه معلومات قد لا تكون مرت

بخاطره لحظتها، ولو وردت فما كانت بالمعلومات الصالحة لطفل في الخامسة من عمره يريد أبوه أن يمنحه بمناسبة عيد ميلاده هدية مزدوجة: مالا، واعتزازا بأهمية أبيه ومكانته، مكانة تعمقت في الخيال واستقرت بعد أسابيع قليلة حين اصطحبه أبوه إلى البنك.

ولد خرج للتو من بين أيدي الآلهة وأمه، تفوح منه رائحة الصابون الذي حممته به. يمسك بيد أبيه وينزلان الدرج معا، يغادران البيت. يقول الأب للبواب: «سلام عليكم»، فيتبعه صوت الابن كصدى رفيع: «سلام عليكم»، يمشيان دقائق معدودة في طريقهما إلى البنك. الوالد طويل يرتدي بنطلونا طويلا، يقلل قاصدا من اتساع خطوته، والولد في بنطلون قصير، يوسع خطوته ويشد قامته، لا يغيب عنه كلام أمه وهي تفصل خصلات شعره بفرق دقيق بأسنان المشط وتقول: «كن هادئا، مهذبا ولطيفا، ستلتقي بزملاء أبيك، وربما يراك مدير البنك. أريدهم أن يقولوا هذا الولد أحسن أهله تربيته. شكله جميل وممتاز في سلوكه.»

هذا هو البنك، قال الأب. رفع الولد رأسه، تطلع إلى طوابق المبنى، أقواس النوافذ، شكل البوابات. أربع درجات رخامية ثم دلفا إلى داخل البنك. شاهد السقف العالي، الثريات البللورية المضاءة بمئات المصابيح الصغيرة المتجاورة، الرخام، السجاجيد، الأعمدة، الدرج، والخزائن والمقابض النحاسية، ورزمات الأوراق النقدية. لم يعد البنك مكانا مسحورا ومبهما ومثيرا يذهب إليه أبوه ويعود منه كل يوم، بل آلة هائلة ملأته رهبة فجلس ساكنا ومنكمشا بجوار أبيه.

كيف أصف مشاعر ذلك الولد، هل أذكر بدقة ما شاهده وأحسّ به، أم أُسقط عليه بعضا مما في نفسي الآن، أم تتبدل الصورة بين يديّ وقد مرت بما شعرت به لاحقا وأنا مرتبك وغاضب لأن ما تصورته صرحا يخص أبي، ويخص مصر المطبوع اسمها على أوراقه لم يكن

كذلك؟ هل خدعني أبي أم لا أنصفه حين أتصور أنه خدعني، ولم يكن سوى ترس في الآلة، يسعى لكسب رزق عياله، مجرد موظف بياقة بيضاء تعلّم بقدر يسمح له بالعمل في خدمة بنك لا حول له فيه ولا قرار إلا في صغار التفاصيل، ساعي من سعاة البنك على درجة وظيفية تتيح له السكن في شقة في وسط البلد بين جيران أسماؤهم دنيز وفرنشيسكا وآديل؟ وربما لم يعرف أبي سوى القليل أو لم يعرف شيئا عن أصل البنك وفصله ودور مؤسسيه لأن الترس لا يعي تاريخ الآلة وقانونها المحرك؛ وظيفة الترس وظيفته.

والاخوة سوارِس، والاخوة شيكوريل والاخوة قطاوي وغيرهم من العائلات اليهودية المُتَنَفِّذة في مصر: موصيري ورولو وليفي ومزراحي، هل هذا ما أريد أن أحكي عنه؟ أفصِّل فيما كانت تمتلكه من بنوك وشركات: البنك الأهلي، وبنك الرهونات، والبنك العقاري المصري، والبنك التجاري المصري، والبنك الزراعي المصري، وخط سكة حديد حلوان، وخط سكة حديد الدلتا، وشركة قنا-أسوان للسكة الحديد، وشركة المعادي، وشركة الملح والصودا، وشركة مصر الزراعية، وشركة مياه طنطا، وشركة وادي كوم امبو وما تملكه من آلاف الأفدنة المزروعة بقصب السكر ومعامل التكرير التابعة لها، فضلا عن أغلب المتاجر الكبيرة في البلد. ليس هؤلاء أبناء حارات اليهود، المحليين الذين لا يعرفون سوى العربية. هؤلاء جاءوا مع موج البحر، حملهم الموج من شاطئ إلى شاطئ ليسكنوا قصورا، ويترددوا على قصور، ويحضروا الحفلات الراقصة في بيت اللورد، أو ليسكنوا دورا متواضعة فقيرة، لأنهم عمال، ولأنهم مهاجرون، وفي الحالتين يتحدثون الإيطالية والفرنسية واللادينو أو الروسية والألمانية واليِدِش فترفعهم اللغة وأصولهم فوق «المحليين» من أهل البلد (بما فيهم يهود الحارة) وتربطهم بأسيادها الأجانب.

أرجع قليلا إلى الوراء لأن الدقة واجبة والحكاية لا تخصني وحدي.

وصل الرجلان إلى مصر في الفترة نفسها، الرجل القصير ذو الجبهة العريضة والقبعة المثلثة جاء أولا، تتقدمه المدافع ومبادئ الثورة، بعده جاء البلوكباشي ابن إبراهيم أغا على رأس فرقة ألبانية قوامها ثلاثمائة رجل أرسلها حاكم قَوَلة، استجابة لأمر من الحكومة العثمانية، لرد الأول. لم ألتق أيا من الرجلين لأحكم على مدى التشابه بينهما. أعرف أن كلاهما كان ضابطا قصير القامة تتقد في عينيه نظرة ثاقبة، تنظر لأعلى وبعيدا؛ يسهل معرفة ذلك من الصور ومن وقائع التاريخ، ولكني وأنا أنظر في حال الرجلين بعد مائة وخمسين عاما من رحيلهما مهزومين منفيين، أولهما منفي في جزيرة نائية، والثاني منفي في شيخوخة لا ينفذ من عتمتها شيء مما يدور حوله، أرجّح أن ابن إبراهيم أغا المولود في قَوَلة عام 1769 كان ينظر إلى الكورسيكي الذي يماثله سنا ويفوقه إنجازا بعين الرضى والإعجاب، يغبطه، وربما فكر الألباني أن نجما واحدا أشرف على ولادتهما فرفع كل منهما إلى منزلة الحاكم في بلد لا ينطق بلسان أهله، وأيدهما في التوسع في محيط هذا البلد.

الخيوط تفلت من يدي، أردت الحديث عن المهاجرين اليهود فاستدرجتني مقارنة لست مؤهلا لعقدها، أسقطتني في التبسيط المخل، وربما في الخطأ. كل ما أردته هو الإشارة إلى أن ابن إبراهيم أغا الذي جاء من قَوَلَة لمحاربة جنود فرنسا حلم بثورة تجعل من مصر دولة حديثة كفرنسا فعين ضابطا فرنسيا ليبني له جيشه، وأرسل النابغين من شباب البلد إلى فرنسا لينقلوا علومها وينوروا البلد بعقولهم بعد أن تنورت في المدينة المنوّرة، باريس، وفتح الباب «للمتنورين» الأجانب، لم يفتحه كاملا ولا كثيرا، بل ترك لأحفاده أن يتموا المهمة. صار

الباب كبيرا يفوّت، لا جملا كما يقول المثل الشعبي، ولا قافلة من الجمال، بل جيوشا من العسكر والمستثمرين والمديرين والجوارح، معهم جاءت أعداد غفيرة من يهود أوروبا.

عندما قرأت كلام النيوزيلندي عن العلم الذي حمله إلى القدس ورفعه على سورها في ديسمبر 1917 تعجبت، وبدا لي أن مورينو شيكوريل وصاحبه السكندري كانا حالة خاصة تواجدت في مصر بمحض الصدفة. ولكنني الآن أعرف أن شيكوريل لا يزيد شيئا عن الآلاف من المهاجرين اليهود في مصر ذلك الزمان إلا في فطنة جعلته يوصي صديقه الترزي على تلك القماشة ليعطيها إلى جندي قد يحالفه الحظ ويصل القدس. وربما لم تكن الفكرة لشيكوريل بل لصاحبه الترزي وكان كما أسلفنا يعيش في الإسكندرية، وكل الوافدين من يهود الإسكندرية عرفوا بأمر المتطوعين في الفيلق اليهودي الذي تَكَوَّن في المدينة قبل عامين من واقعة العلم المذكورة، وقد شارك العديد منهم في الفيلق. وربما كان الترزي نفسه ممن تطوعوا للعمل فيه فسمع ما قاله قائد الفيلق لجنوده: «إن العالم يتطلع إلى فيلق صهيون، ولا يكفي أن يقوم جنود هذا الفيلق بواجبهم كجنود بريطانيين، على كل جندي أن يبذل كل ما في وسعه ليُشهد العالم أن اليهودي جندي، وانه قادر على الكفاح والانتصار ليحقق حلمه في إنشاء وطن يلوذ به في الأرض الموعودة»، فلما سمع الترزي هذا الكلام جاءته فكرة العلم فنفذها وأعطاه لشيكوريل الذي يتردد على محله الكثير من العابرين. وربما كان شيكوريل والترزي من أعضاء الجمعيات الصهيونية العديدة التي كانت تعمل بنشاط في القاهرة والإسكندرية وبورسعيد وطنطا والمنصورة في تلك الفترة. لا سبيل لتأكيد ذلك، ولا لمعرفة إن كان شيكوريل وصاحبه الترزي كانا ضمن أعضاء الوفد الذي زار المعتمد البريطاني في مقره في القاهرة في أغسطس 1917 معربا عن استعداد

اليهود لتقديم أية خدمات يطلبها منهم. ولا نعلم على وجه اليقين إن كانا شاركا أو سمعا من أصدقاء أو معارف لهما كانوا ضمن الوفد الذي زار أللنبي بعدها بأقل من ثلاث سنوات لشكره وتهنئته على إعلان الحماية على فلسطين. وسوف يخطئ القارئ إن تصور أن هذه الوفود كانت تتحرك في السر أو أن الجمعيات الصهيونية كانت تمارس نشاطا مخالفا للقوانين، فالإسكندرية شهدت احتفالا كبيرا حضره ثلاثة آلاف يهودي تأييدا لوعد بلفور قبل أربعة أيام من صدور هذا الوعد في صيغته النهائية.

لنا أن نتخيل الترزي جالسا ضمن الحشد، مبتهجا ومستبشرا، لا يستقر طويلا على مقعده، يفهم ما يقال بالألمانية أو الروسية فيضج بثرثرة الآخرين ويطالبهم بالإنصات، ولا يفهم ما يقال بالفرنسية والإيطالية فيسأل فيطالبه من يفهمونهما بالسكوت. ولا ندري إن كان الحضور التزموا الصمت احتراما أم لم يفعلوا حين خاطبهم أحمد باشا زيور بالعربية التي لا يعرفونها، وربما لم يتوجه لهم محافظ الإسكندرية المذكور بالعربية بل بالفرنسية التي يعرفها جزء منهم. للمشهد بدائل محتملة، ولا ضير في أن يذهب كل بخياله إلى البديل الذي يفضله. المؤكد أن الحشد اختتم المؤتمر بإرسال برقية إلى وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية تقول: «هذا الحشد الجماهيري من يهود مصر يؤيدون بالإجماع إعادة إنشاء فلسطين كوطن قومي للشعب اليهودي، وهم على ثقة أن حكومة جلالة الملك (يقصدون حكومة ملك إنجلترا التي تقدم الوعد) ستقوم بقصارى جهدها لتسهيل تحقيق ذلك.»

ويمكن أيضا أن نتخيل هذا الترزي نفسه، بعد تسعة أيام من حضوره المؤتمر الأول، يشارك في مؤتمر آخر ضم أكثر من ضعف العدد. كان الوعد قد صدر رسميا في صورة خطاب موجه من وزير

خارجية حكومة جلالة الملك إلى آرثر روتشيلد الذي نميزه عن غيره من الروتشيلدات بصفته صائدا للفراش، ثم نتخيله في الشارع لاحقا، مع المئات من يهود الإسكندرية يشاهدون عرضا لجنود فيلق صهيون يتقدمهم علم كبير نصفه أزرق ونصفه أبيض تتوسطه النجمة السداسية، فيهتف الترزي ويصفق، وتدمع عيناه لرؤية النجمة على قبعات الجنود، وعلى سيارات الإسعاف المشاركة في الموكب. ولما كان رجال الفيلق يصحبهم أعضاء من اللجنة الصهيونية قد قاموا بعرض مماثل في القاهرة فيجوز لنا أن نتصور مورينو شيكوريل مع أبنائه الثلاثة في مشهد مماثل.

الفصل السادس

في كتابه الصادر عن مطبعة المقتطف عام 1904 في القاهرة يصف شاهين مكاريوس حفل ختان جوستاف حفيد يعقوب قطاوي يقول:

«عزم جد المولود الكريم المرحوم يعقوب بك قطاوي على إحياء ليلة راقصة دعا إليها جمهورا عظيما من أعاظم الكبراء والأعيان. ولما كان المرحوم يعقوب بك قطاوي مقربا من عزيز مصر المغفور له إسماعيل باشا طلب إليه أن تكون تلك الحفلة الحافلة تحت رعايته تيمنا باسمه وتشريفا بطلعته فأجابه عزيز مصر إلى ذلك. ولما انتظم عقد الحفلة وظهر بدر جمالها وكمالها قدم سمو الخديوي المعظم في الساعة التاسعة مساءً من تلك الليلة بموكبه الباهر يتبعه حضرات رجال المعية السنية وضباط الحرس الشريف ودخل المنزل بين أنغام الموسيقى وذبح الذبائح حتى جلس سموه في المكان المعد له فمر المدعوون والمدعوات أمام سموه فحياهم وكرمهم ومن ثم بدأت الحفلة ودارت المحاضرة على نغم الألحان المطربة ودام الفرح والسرور حتى مطلع الفجر وخرج المدعوون وهم يثنون على آل المنزل لما لقوه منهم من حسن الاستقبال والكرم. . .»

ويكتب شاهين مكاريوس في هذا الكتاب نفسه الذي يترجم لأثرياء اليهود في مصر أنه عندما جاء اللورد دوفرين إلى القاهرة «مندوبا

عن دولة بريطانيا العظمى لتعديل وإنشاء نظامات وقوانين بلاد مصر بعد حدوث الثورة العرابية (. . .) لم تجد الحكومة المصرية إذ ذاك منزلا يليق بذلك الرجل العظيم غير بيت قطاوي فطلبت من هذه العائلة الكريمة أن تعد منزلها فأقام فيه اللورد مدة مكوثه في مصر. وبعد إتمام مهمته التي جاء لأجلها رحل إلى بلاده بعد أن أهدى صاحب الترجمة رسم الملكة فكتوريا مكبّرا ومكتوبا عليه هذه الكلمات: هدية تذكار لضيافة اللورد دوفرين». ولا أدري على وجه الدقة إن كان اللورد دوفرين غادر بيت قطاوي عائدا إلى بلاده قبل أيام أو أسابيع من وفاة يعقوب قطاوي (فالزيارة والوفاة حدثتا عام 1883)، ولكنني أرجِّح أن المسنات من نساء العائلة القادمة من حلب فكرن، وإن لم يُفصحن، أن قدم اللورد الإنجليزي كانت نحسا لا سعدا على البيت. وكان يعقوب بن يوسف بن إسحق صمبري قطاوي وصل إلى مصر من حلب في فترة ولاية محمد علي وتولى أشغال الضَرْبَخَانَة (أي دار سك النقود)، وأمور المخابز وحلقات الأسماك والجمارك، ثم صار في عصر الخديوي عباس الأول شيخ الصيارفة في مصر، واحتفظ بمركزه في حكم سعيد وإسماعيل. والأرجح أن قطاوي كغيره من أبناء حلب المؤهلين لتبوء المراكز العليا في الدولة، كان يتحدث فضلا عن العربية وهي لغته الأم، اللغة التركية، لغة الدولة والإدارة في الإمبراطورية العثمانية. (يصف شارل ديديه في كتابه «ليالي القاهرة» الصادر في باريس عام 1840 حفل ختان موسى الابن الأصغر ليعقوب قطاوي- وهو والد جوستاف الموصوف الاحتفال بختانه في كتاب مكاريوس- يقول ديدييه إن كافة الحضور كانوا يرتدون الملابس المحلية ويتحدثون العربية أو التركية، لا أحد منهم يعرف الفرنسية، أما النساء فاحتفلن على طريقتهن الشرقية في الأجنحة الخاصة بهن حيث المطربة تحيي الليلة بالضرب على الدف والغناء.)

ونرجح أن يعقوب قطاوي احتفظ بملابسه التقليدية حتى رحيله وهو ما تظهره صورة له في السنوات الأخيرة من عمره: شيخ معمم، لحيته بيضاء قصيرة مشذبة، يرتدي فقطانا من الشاهي المقلّم يجمع طرفيه حزام عريض، وفوق القفطان جبة داكنة اللون سابغة فضفاضة واسعة الكمين تكشف أطرافهما عن كمي القفطان الأطول والأقل اتساعا.

توفي يعقوب قطاوي عام 1883، بعد عام واحد من احتلال جيوش «الحورية» أرض مصر «المحروسة»، وخلّف فضلا عن ثروته أربعة أولاد، وبنات يفقن الأولاد عددا، تزوجن من أبناء أكبر العائلات اليهودية في مصر، وخلفن أحفادا يحملون أسماء منشّة وموصيري وسوارِس ورولو ومزراحي، ينتمون جميعا عبر فروع الأمهات إلى شجرة يعقوب قطاوي.

لست بصدد الترجمة للرجل وأولاده فقد سبقني شاهين مكاريوس إلى ذلك، ولا يدخل في حكايتي تتبع أي من الأبناء والأحفاد صار وزيرا أو عضوا في المجلس التشريعي أوالبرلمان ومجلس الشيوخ أو مديرا للبنك الأهلي أو من مؤسسي بنك مصر، ولا أقصد حصر ما امتلكوه من أراض وشركات وعقارات، ما يشغلني هو النقلة السريعة في ظل الاحتلال، نقلة ظاهرها تغيير الملبس والأسماء ولغة الكلام، وباطنها حكاية طويلة عريضة على القارئ أن يتتبع إن أراد تفاصيلها في كتب التاريخ. نكتفي هنا بنظرة عابرة على الصور، صورة الباشا يوسف يعقوب قطاوي بالطربوش وبدلة التشريفات، أي البنطلون والسترة الموشاة بخيوط الذهب على الصدر وأطراف الكمين، وصورة زوجته، امرأة سمينة مدورة الوجه (تشبه الحورية أو تتشبه بها)، ثوبها مكسم على الصدر وفضفاض سخي ومنتفخ من الردفين حتى الذيل، صور رجال بالقبعات تحيل هيئة كل منهم وجلسته أمام المصور لمشاهير

الكتاب الفرنسيين في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وصور نساء «باريسيات حتى أطراف أظافرهن»، وأولاد وبنات تعرف من الصور الصامتة أنهم يتقنون الحديث بالفرنسية.

سمي موسى قطاوي، وكان أصغر أبناء يعقوب سنا وأكبرهم إنجازا، أولاده جوستاف (وأشرنا إلى حفل ختانه) وهكتور وإدجار وإديت، (وهو نفسه كان يشار إليه أو يشير إلى نفسه أحيانا باسم موييز، وأحيانا باسم موريس). وللدقة لا بد من الإشارة هنا أن التفرنج لم يقتصر على آل قطاوي القادمين من حلب، بل امتد إلى كل أبناء النخبة، أقصد الأثرياء المتنفذين والمتعلمين، بصرف النظر عن انتمائهم الديني إلا في مسألتين، مسألة الأسماء فما كان لاسماعيل صدقي باشا مثلا أن يسمي ابنته فكتوريا، ولا لأحمد زيور باشا أن يطلق على ابنه اسم إدجار، أما المسألة الأخرى فهي الحصول على رعاية دولة من القوى العظمى تضمن لصاحبها الحماية وهو ما كان يسعى له العديد من اليهود الأجانب والمصريين، إن وجدوا لذلك سبيلا. ويبدو أن مترتبات الحصول على هذه الرعاية، والجنسية أحيانا، كانت متعددة، تبدل واقع الإنسان ومستقبله فهي تنتقل لأولاده، ويمكن أيضا أن تعيد تشكيل ماضيه، وإلا كيف نفسر أن بعض الأدبيات تُرجع أصول موسى قطاوي إلى عائلة أوروبية عريقة من هولندا القرون الوسطى؟

وفي القرن العشرين، سارت ذرية قطاوي في الطريق الذي استنّه الجد يعقوب في القرن السابق، ارتبطوا بمصر وحكامها جيلا بعد جيل فكان منهم من يكتب رسائل الملك فؤاد، ومنهم مستشاره المالي، ومنهم وصيفة زوجته الملكة. . .إلخ، ولم يحل ذلك دون قربهم من القوى العظمى وحصولهم على رعايتها وتقديرها. حصل موسى قطاوي، على سبيل المثال، على حماية الإمبراطورية النمساوية المجرية ورفعه الإمبراطور إلى مرتبة نبيل من نبلائها، وسبقه على نفس الطريق،

أقصد طريق النمسا-المجر، زوج أخته الكبرى سِمحا، أما إلينا الأصغر من سِمحا فتزوجت نسيم موصيري التابع لإيطاليا والحاصل على أوسمة من حكومتها. ثم تزوجت ابنتهما فيكي المحامي الكبير أهارون أليكسندر المهاجر من مدينة الكاب في جنوب إفريقيا وهو ينتمي بطبيعة الحال إلى صفوتها البيضاء ذات الأصول الإنجليزية. وكان المحامي يدير أشغاله العابرة للبلدان من مكتبه الكائن في بناية السافوي في ميدان سليمان باشا، يباشر مصالح شركة قناة السويس، ويتولى قضايا الوالدة باشا، ونساء من عائلة روتشيلد. ولم تحل أشغاله دون الانهماك في التعبير عن مساندته للكبار والصغار من معارفه وأصدقائه واستضافتهم في بيته، ومنهم صديقه وايزمن، ومنهم أيضا ضابط الاستخبارات الإنجليزي الشاب أوبري إيبان (سنعرفه باسم آبا إيبان وهو يرفع علم إسرائيل في الأمم المتحدة بعد إعلان الدولة التي سيتولى وزارة خارجيتها لاحقا.) ولا أدري على وجه الدقة إن كان المحامي أهارون أليكسندر حضر قبل وفاته المفاجئة عام 1944 حفل زواج هذا الشاب النابه أم تم الحفل بعد أسابيع من رحيل المحامي فتصعّبت زوجته، وتحاملت على نفسها، وشاركت في الحفل لأن العريس صديق غالي، والعروس بنت الجيران، وبن غوريون جاء خصيصا من فلسطين هو وزوجته للمشاركة. وما دمنا انتقلنا لزوجة المحامي وهي كما أسلفنا حفيدة يعقوب قطاوي فلا بد من الإشارة أنها كانت سيدة نشطة رأست الفرع المصري من التنظيم النسائي التابع للمنظمة الصهيونية العالمية، تقيم حفلات خيرية لصالح التنظيم في جروبي وشبرد.

ولم يكن المحامي أليكسندر هو الممثل الوحيد لبريطانيا بين أصهار آل قطاوي إذ تزوجت حفيدة أخرى بروبرت رولو مدير البنك الأهلي والموزعة تجارته بين القاهرة والإسكندرية ومانشستر وليفربول، والذي منحته حكومة بريطانيا لقب «سير». باختصار كانت العائلة

بأصولها وفروعها عابرة للبلدان والقارات على طريقة سير إرنست كاسل التي سبق وشبهناها بالجسور العلوية المعلقة فوق الشوارع والرؤوس، وعلى طريقة آل روتشيلد الذين لم أجد بعد مكانا في حكايتي للحديث بشيء من التفصيل عنهم.

استدرجت في الحديث عن عائلة قطاوي وكنت أقصد كلاما آخر ليس القطاوية سوى طرف فيه. أردت الحديث عن مثلثات ثلاثة، لا، لا أقصد أهرام الجيزة، بل ثلاثة مثلثات من الأرض لا تتجاوز مساحة أي منها بضعة آلاف من الأمتار، تلتقي رؤوسها في ميدان سليمان باشا. ما الذي تعنيه هذه الأمتار في مدينة واسعة ومترامية كالقاهرة، في بلد كمصر له طول وعرض وعمق وبحرين ونهر وريف وحضر، مليون كيلومتر مربع تتحول بقدرة قادر إلى رسمة على الخريطة، وحكاية في الكتاب، وصندوق نحمله على ظهورنا، ومنمنمة كبؤبؤ العين في العين؟ أي قيمة لهذه المثلثات؟

نفصِّل الكلام:

يقع رأس المثلث الأول في ميدان سليمان باشا (الآن ميدان طلعت حرب)، وضلع من ضلعيه في شارع قصر النيل، والضلع الآخر في شارع سليمان باشا، يشغله مبنى ممتد من أربعة طوابق، إنه فندق كبير، له ملحقاته من مكاتب لشركات إنجليزية وأشخاص ذوي مكانة كالمحامي أهارون أليكسندر. مقدمة المبنى المطلة على الميدان أشبه بالبرج، شكل مخروطي في واجهة الميدان تعلوه قبة تحمل عبارة Savoy Hotel. في الحرب العالمية الأولى استخدم الإنجليز المبنى كمقر لقيادة قواتهم (وكان ذلك مناسبا لقرب ثكنات الجيش الواقعة على شاطئ النيل، لا تقتضي المراسلة من حاملها سوى أن يقطع الميدان وبضع مئات من الأمتار لا تستغرقه سوى عشر دقائق).

بعد نهاية الحرب بسنوات قليلة اشترى السافوي رجل أعمال

سويسري أثبت كفاءة عالية في إنشاء الفنادق وإدارتها منذ وصوله إلى مصر عام 1889، ولكن الرجل على غير المتوقع، هدم الفندق وأعاد تقسيم الأرض وأنشأ عليها مبنىً كبيرا ممتدا بامتداد السافوي القديم يفصل جزءاً صغير منه عن باقي المبنى ممرٌ تحدده أقواس البواكي ويصل شارعي قصر النيل وسليمان. صار المبنى مُجَمَّعا سكنيا وتجاريا تستخدم طوابقه العليا للمكاتب والشقق السكنية والطابق الأرضي لعشرات المتاجر موزعة بين الممر والشارعين. أحدث السيد شارل بهلر، السويسري الناطق بالفرنسية، نقلة دالة في هذا المثلث ليصبح نسخة من شارع ريفولي في باريس استبدلها ببناية السافوي الصارمة ومكاتب شركاتها الإنجليزية، وسيرتها المتكرر ذكرها في الروايات وكتب الرحالة الإنجليز.

بخيال بهلر وضربة معول وهِمّة البنائين انتقلنا من السافوي العتيق إلى مبنى جديد على الطراز المعروف بـ«آر ديكو» (الصيحة الأحدث في المعمار الفرنسي)، ومعه انتقل المثلث من قطعة من إنجلترا إلى قطعة من فرنسا، في القلب منه المِتروبوليتان. (لم يتنكر بهلر لولعه بالفنادق الجديدة بل أشبعه بإنشاء هذا الفندق على بعد خطوات من المجمع السكني الجديد)، فندق باذخ بتماثيل مذهّبة وتعاشيق زجاج ملون تلاعب في النهار ضوء الشمس، ومصابيح الشارع في الليل، وتمنح بهلر زهو الانتصار لفرنسا بالضربة القاضية.

المثلث الثاني يواجه الأول. نعبر إليه الميدان فننتقل من بهلر إلى جروبي، سويسري آخر وصل مصر في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وإن جاء، وهذا واضح من اسمه، على غير شارل بهلر، من المنطقة الإيطالية من سويسرا. أنشأ جياكومو جروبي مطعما ومتجرا لبيع الحلوى له امتداد في حديقة خلفية. تفتقد العبارة للدقة، أو ربما سحب الحاضر بما آل إليه المحل، سماته على الماضي. لم يكن

جروبي في زمانه مجرد مطعم ومقهى باريسي يقدم أشهى الأطعمة والجديد الغريب من الحلوى والمثلجات، بل مشروعا ثقافيا يرسي ذوقا وتقاليد، ويمنح المدينة الجديدة مركزا مضيئا من مراكز الحداثة، تقام فيه الحفلات الراقصة، تستضاف الفرق الموسيقية، تُعرض في حديقته الخلفية أفلام سينمائية، ينتج أنواعا من الشكولاته والعصائر المركزة والمربى والجبن، وأصنافا يتعرف عليها روّاد المحل بمزيج من الدهشة والرهبة والاستمتاع: قشدة مخفوقة أنعم وأخف من ندف الثلج، كستناء مسكرة، كرات مثلجة من الحليب أو الشكولاته أو عصير الفواكه، أنواع من الحلوى المخبوزة، منها المدور الكبير ومنها المقطع بنصف حجم الكف، جديدة في أشكالها، غريبة في أسمائها: كريم شانتي، مارون جلاسيه، جيلاتي، ميل فوي، إكلير، بُول دي شوكولاه. . . إلخ. كان مشروع جروبي مزدوجا يتصل بالذوق/ المذاق والتجارة/ الاقتصاد، وهو في الحالتين مشروع تحديثي يتجاوز فكرة خباز ماهر يعاونه ابنه إلى استثمار كبير يعتمد الزراعة والتقنيات الحديثة فله مزرعة من مئات الفدادين في جزيرة الدهب (تتوسط نيل مصر بين أبي الهول على ضفته الغربية وسريته الغائبة على ضفته الشرقية)، فيها الحقول والمعامل والماشية والفلاحين والعمال، تنتج الفواكه والخضروات والألبان ومختلف أنواع الجبن والزبد ومركّزات العصائر والمربى، يتم تعليبها وتغليفها بملصقات تختلف حجما ولونا وإن اشتركت كلها في العلامة المسجلة: اسم ج. جروبي.

توزع عمل جروبي وولده أكيلِس على المحل الجديد في ميدان سليمان والمحل القديم الممتد بين شارع المناخ وشارع المغربي (عبد الخالق ثروت وعدلي حاليا)، والذي حظي بتردد الضباط البريطانيين عليه طوال سنوات الحرب العالمية الأولى. ثم توزع عملهما أكثر وتضاعف حين أنشأ الوالد والولد محلين أبسط وأصغر يتناول فيهما

الروّاد الشطائر والحلوى والمشروبات وقوفا على الطريقة الأمريكية «آلَمِريكين» (وحقق فرعا الأمريكان سبقا ثقافيا بتقديم نوع من الحلوى المثلجة لا يقدمه سواهما في كل مصر المحروسة اسمه trois petits cochons وترجمته «الخنازير الثلاثة» وليس كل خنزير منها سوى كرة مثلجة من الحليب أو الشكولاتة أو عصير الفاكهة تجاور أختيها في سلطانية صغيرة من البللور). ولم تكن المحلات الأربعة على كثرة روادها وطلاب ما تبيعه من الأطعمة والمشروبات هي وحدها الشغل الشاغل لجروبي وولده، كانا يشرفان على الحركة اليومية النشطة لتوصيل طلبات تتفاوت بين إقامة الولائم في بيوت الوزراء والكبراء، وتلبية رغبات سامية تتطلب سرعة وحرصا وعناية أكبر في الإعداد والتغليف بما يليق بالطالب والمطلوب له، وإن كان الطلب لا يزيد عن مائة كيلو من الشكولاتة أمر بها القصر ليرسلها فاروق ملك مصر إلى لندن هدية للأميرتين إليزابث، وليّة عهد إنجلترا، وأختها مارجريت.

لم يتح للمسيو جروبي فرصة إبراز مواهبه ومهاراته في ولائم بيت موسى قطاوي الواقع في الجهة المقابلة من الميدان. كان يسعده حتما أن يعد الطعام لضيوف جاره، ويزيده اعتزازا أنهم من سفراء ونبلاء الدول الأوروبية العظمى، ويسعده أكثر أن يلتقي بزوجة موسى باشا، ويتحدث معها بالإيطالية فيشرُف بالتعامل مع ابنة إليا روسّي الطبيب العظيم الذي رفع رأس الإيطاليين والمتحدثين بالإيطالية في مصر. ولنا أن نتخيل توزع مشاعر جياكومو، وقد تجاوز الستين، وهو يتأمل ذلك كله فيقرر حينا أسفه لفرص ضائعة، ويقرر في حين آخر أن ذلك أفضل، لأن قاطني العمارات السكنية الجديدة والمتعددة أصبحوا روادا لمطعمه أو طلابا لولائمه. لا ندري تحديدا إن كان جروبي تنهد متأسيا أم تبسّم في ارتياح لفكرة أن المثلث المقابل لمحله الجديد يشهد حالا غير حاله. كان هذا الثلث الممتد بين شارعي صبري أبو علم وقصر

النيل ملكا ليعقوب قطاوي، يشغله قصره والحديقة الكبيرة المحيطة بالقصر، ثم توفي صاحب القصر في سنة 1924، وبعد أقل من ثلاث سنوات باع الورثة القصر بالحدائق المحيطة به. وتابع جروبي من موقعه في مثلثه حركة الهدم والبناء في المثلث المجاور: بناء محلات سمعان صيدناوي على الجانب الآخر من الميدان، وعمارات سكنية وفندق متروبوليتان والبورصة ومبنى شل والبنك الأهلي وغيرها، كلها على أرض المثلث، تجمعها وتفصلها وتتخللها شوارع صغيرة، أربعة منها تقطع المثلث بالعرض، تربط شارع صبري أبو علم بشارع قصر النيل، وثلاثة تقطعه بالطول بممرات مقوسة أو مستقيمة يصل اثنان منها إلى قاعدة المثلث حيث مبنى البنك الأهلي وشارع شريف.

الفصل السابع

لم ألتق أيا من أصحاب المثلثات الثلاثة، توفي موسى قطاوي قبل ولادتي بثلاثة عشر عاما، وعندما ولدت عام 1937 كانت محلات صيدناوي والعمارة التي نسكنها وعمارة لاشياك ومبنى البورصة وغيرها من المباني التي أنشأت محل قصره تبدو مستتبة كأنها كانت دائما في مكانها. وتوفي بهلر في نفس عام ولادتي، أما جروبي فتوفي عام 1947 عن أربعة وثمانين عاما. غاب اسم قطاوي من طفولتي فلم أسمع به، أما بهلر وجروبي فقد بدا اسماهما أليفين وجزءاً من حياتي اليومية، أعرّف بهما عنوان البيت لسائل أو زائر: «أمام ممر بهلر»، «على بعد خطوات من جروبي سليمان»، أذهب إلى متاجر ممر بهلر للشراء أو لمجرد أن أذهب، أو أدخل جروبي لأنعم بالجلوس فيه وأطلب «آيس كريم صودا» أو أشتري دستة «جاتوه» أختار أنواعه من وراء الحاجز الزجاجي فتنقلها البائعة قطعة قطعة إلى علبة كرتونية بيضاء، تغلقها وتربطها بشريط حريري دقيق أزرق اللون، أدخل بها البيت مزهوا كأنني فاتح عكا.

رغم غيابهم الشخصي، كان للثلاثي قطاوي- بهلر- جروبي حضورهم الراسخ والمستتب في الحي مُجَسَّدين مُعَيَّنين فيما خلّفوه من عمائر أو شوارع تحمل أسماءهم. كانوا أقرب لآلهة الأولمب في بعض

المسرحيات الإغريقية القديمة حيث يفرضون مسار الحدث وتعقيداته، دون أن يظهر أي منهم على الخشبة، أما الثلاثي الآخر المرح فكان مُعَيَّناً أراه يوميا إذ كان يشاركني السكن في نفس العمارة. (المرح هنا عائد عليّ كمتفرج فلم تكن أي من النساء الثلاث في حالة مرح وهن يتناقرن كديوك المسابقات، ولا كانت أي منهن تقصد عرضا تمثيليا، وإن توفر لي في أي لقاء يجمعهن كل عناصر العرض).

فرنشيسكا تسكن في الشقة المقابلة لشقتنا، والمرأتان الأخريان، دنيز وآديل، تسكنان الطابق الرابع. هل كن يأتين دائما معا أم أنني لا أذكر سوى تلك الزيارات التي تجمع ثلاثتهن؟ أذكر زيارتهن الصاخبة بعد الحريق: تنهدت فرنشيسكا بعمق وقالت «الله يرحمه روبرتو، هو مسكين، لو هو ما ماتش كان هو ما يعرفش فين يروح. يعني شبرد اتحرق، وكمان سيسيل وكمان الريتز. بديعة مش مهم، لأنه هو محترم مش بيروح بديعة. لكن فين هو يروح؟! أحسن هو مات، مش حيزعل ويقول فين أروح؟!» تطلعت إلى أمي فجأة وسألتها بقلق: «إنت مدام، اشتريتي اللانجيري لأختك ولاّ لسه؟» (وكانت أمي تشتري لخالتي ملابس استعدادا لزفافها) قالت أمي إنها اشترت. قالت فرنشيسكا: «كله، كله؟ قمصان النوم، الأرواب، الليزوزات؟!» اشترينا. «حمدالله، حمد الله، أنا امبارح افتكرت، قلت مسكينة جارتنا، فين هي تشتري لأختها الجهاز، شيكوريل، شملا، داود عدس، بن زايون كله اتحرق. بديعة مش مهم، أحسن بديعة اتحرق!»

فرنشيسكا امرأة قصيرة، بدينة، غالبا ما ترتدي أثوابا بسيطة أقرب لمرايل بنات المدارس أو الممرضات، وإن تميزت عنها بفتحة كبيرة مدورة تكشف عن النحر وأعلى الصدر المكلّفين بالنمش. تتحدث بسرعة وبلا انقطاع بخليط من عربية مكسرة وفرنسية ذات لكنة إيطالية تتخللها عبارات ما شاء الله، وان شاء الله، والحمد لله، وما تيسّر من

أمثال شعبية. تفصِّل الثياب لنساء الأثرياء فتكثر من الحديث عن ما سمعته منهن، ما قالته مدام فلان باشا، وما أكدته ابنة فلان بيه. تشي مشيتها ووجهها وشعرها الأشيب المعقوص بأنها تجاوزت الستين، ولكن حركة يديها وصوتها وإيقاع جملتها توحي أنها أصغر من ذلك بعشر سنوات أو ربما عشرين.

انتقلت فرنشيسكا فجأة إلى الحديث بالفرنسية، قالت إنها كانت تشم رائحة الدخان، وكانت خائفة ولما سمعت دقا على الباب، لم تفتح. عادت إلى الحديث بالعربية: «سألت: مين؟ قالت: أنا، افتحي يا فرنشيسكا. أنا قلت: إنتِ مين؟ ولما قالت أنا آديل، فتحت الباب، لقيت شعرها منكوش، ولونها أخضر، وعينيها حمرا، وفستانها مكرمش كأنه ممضوغ في بق كلب، وأنا افتكرت مسيو موريس مات، ولكن هي قالت: ولاد العرب حايهجموا على بيوتنا ويسرقوا فلوسنا وبعدين يحرقونا، نعمل إيه يا فرنشيسكا، نكلم القنصل الإيطالي؟» حاولت آديل أن تتدخل في الكلام فقاطعتها فرنشيسكا: «إنت قلت يا آديل، ليه تكذبي! أنا مش صدقتها، قلت يمكن بس يحرقوا الإنجليز. الإنجليز مش كويس لأنهم منعوا الأولاد الإيطاليين يغنوا للدوتشي حتى هنا في نادي ريسوتو بتاعهم، مسكين الدوتشي، هو راح وكمان إيطاليا راحت، بس الإنجليز مش كويس!»

ظلت دينيز صامتة حتى انتهت فرنشيسكا من مونولوجها وقالت: «الدوتشي انهزم، كان مجرما وتلقى ما يستحقه من عقاب. انتهينا!»

نظرت إليها فرنشيسكا وبدا أنها ستتمكن من كظم غيظها، لم تستطع، قالت: «دوتشي أو غير دوتشي، الإيطاليانو أحسن ناس، هم لطاف، هم حلوين، هم دمهم خفيف، وهم عندهم كرم وشهامة، يعني هم أولاد بلد. ما تزعليش دنيز بس فين فرنسا وفين إيطاليا؟ إيطاليا كان فيها حضارة وفرنسا لسه متوحشين بيصيدوا في الغابة

وياكلوا بعضهم. . أنت مدرسة ولازم تكوني عارفة تاريخ. مين قال إيطاليا راح؟ إيطاليا ست الدنيا. مصر أم الدنيا، وإيطاليا ست الدنيا!»

قامت دنيز وصحبتها آديل لتنصرفا، وقالت دنيز وهما في طريقهما إلى الباب: «المهزوم دائما يحاول أن يكبِّر نفسه، لأنه مهزوم! بون نوي!» وسمعنا صفقة باب المصعد.

قالت فرنشيسكا: «دنيز رزعت الباب لأنها زعلانة، بس هي شتمت إيطاليا الأول، وكمان هي عاملة زي سنافور المحطة، وأنا باتعب في تفصيل هدومها. مش بيليق عليها اللبس، هي جسمها معصعص، ولا فستان بيطلع حلو عليها، أظبط المقاس، أشتغل فيه كتير، أظبطه كمان مرة، ومفيش فايدة! وآديل ميّة من تحت تبن، عيلتها تقول أنهم إيطاليانو، هم مش إيطاليانو، هم إيطاليانو كده وكده، عشان مصلحة، وكده وكده مسيو موريس جوز اختها كان بيقول انه مع الدوتشي عشان مصلحة، وبعدين راح مع الإنجليز. أنا تعبت!»

فلا تجد أمي ما تقوله سوى أن دنيز طيبة، وآديل غلبانة، ولا داعي للكلام في السياسة وإفساد الجيرة الطيبة، وتذكِّر فرنشيسكا بما قالته لها هي نفسها إن دنيز وقفت معها وكانت تسأل عنها يوميا عندما توفى مسيو روبرتو. فتقول فرنشيسكا: «صحيح، هي طيبة بس مش لازم تشتم الدوتشي، عشان هو مات، وحرام!» ثم تستكثر الانسحاب الكامل فتركز الهجوم على جبهة آديل: «هي خبيثة، هم عيلة غنية، عندهم فلوس كتير، ولكن عمرها ما فصّلت عندي ولا فستان، وتروح تخيط عند ترزي في حارة اليهود. وقدام بيتها في ممر بهلر كل المحلات الشيك، وهي ما تشتريش إلا من تجار السكة الجديدة في الموسكي. شوفي ذوقها في اللبس، معفِّن!»

لم تكن مسطرة الخيّاطة هي المسطرة الوحيدة التي تستخدمها فرنشيسكا، كانت مسلحة بمسطرتي قياس أخريين، أولهما تخص

تقسيمها للبشرية إلى «إيطاليانو» و«غير إيطاليانو»، (عادة ما تبدأ علاقتها بالآخرين بسؤال: «إيه أجمل عمارة في وسط البلد؟»، وعادة ما يفقد الشخص المسئول الاتجاه لأنه لا يعرف لا الغرض من السؤال ولا المتوقع منه على سبيل الإجابة. لا تتركه طويلا في حيرته، تجيب بصوت جهوري: «عمارة لا سيكوراسيوني دي تريستا! بناها أنطونيو لاشياك، هو عبقري، قال إحنا في مصر، مصر فيه إسلام، هو عمل عمارة فيها إسلام، مانييفيك!» ثم بزهو منتصر: «هو إيطالي!» ولو خذلها المسئول وقال إنه لا يعرف العمارة تقول: «دقيقة واحدة»، تتغيب خمس دقائق تعود بعدها بنفس ملابسها وإن استبدلت بخفها المنزلي حذاء وتمسك بيد الرجل أو المرأة وتأخذه إلى العمارة الواقعة على تقاطع شارع الشريفين وشارع قصر النيل المجاورة لبيتنا).

أما مسطرة فرانشيسكا الثانية فطبقية صارمة رغم أني لم أشاهدها ولم يشاهدها أحد من سكان العمارة إلا بتلك الملابس المنزلية البسيطة التي تتشابه في نوع القماش والقصة والتفصيلة. تحترم فرانشيسكا الناس أو تزدريهم حسب ملابسهم، تقول: «تريه شيك»، تنفرج أساريرها ويشرق وجهها، أو يتجهم وتظهر عليه علامات القرف والاشمئزاز وتقول: «ذوق معفِّن!»

وعلى جانبي هذه المسطرة، علامتا قياس ثابتتان: آديل في ناحية، وموسيو ومدام بهلر في الناحية الأخرى، أما البوابون والشغّالون والحرفيون والفلاحون، (أعني عم عبده البواب، وخادمتها نبوية، وأسطى فريد صاحب المشغل الذي تتعامل معه لصنع العراوي، ومبروكة الفلاحة التي تحمل لها حاجتها من البيض والجبن والزبد مرة كل أسبوع) فكانوا خارج القياس.

ويبدو أن السيد والسيدة بهلر خلّفا لفرنشيسكا تركة ثمينة من الذكريات والمشاعر، يغيم وجهها ويضيء لمجرد ورود الاسم في

حديث لها أو لغيرها. اصطفتها الأسرة لتفصيل ملابس الزوجة والابنة، فضلتها على كل بيوت الأزياء، لا في مصر وحدها بل في سويسرا وفرنسا. والأرجح أن فرنشيسكا حولت شعورها بالعرفان والامتنان إلى انتماء إلى آل بهلر يتجاوز محبتهم إلى الشعور بالشراكة فيما حققه المسيو بهلر من أمجاد، العمارة ذات المداخل الستة المواجهة لبيتنا، الممر ببواكيه ومحلاته الأنيقة، الفنادق العديدة التي امتلكها الرجل بما فيها المتروبوليتان الملاصق للعمارة التي نسكن فيها، كلها بدت إرثا عائليا يملأها اعتدادا ويتطلب منها الحفاظ عليه بدوام ذكره والإشادة به والولاء لقيمته. ولا أدري إن كانت فرنشيسكا التقت بالسيد بهلر أم كانت تروي أخباره عن زوجته وابنته؛ سمعت روايتها في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات، وكان المسيو بهلر توفي في سويسرا، وهي مسقط رأسه، في عام 1937، ولم أسمعها تتفوه باسمه إلا تنهدت وتصعّبت وقالت: «الله يرحمه، آدي حال الدنيا!»

ومن مستقره في ثرى سويسرا، بعد أكثر من ثمانية عشر عاما من رحيله، تسبب بهلر في مشادة بين فرنشيسكا ودنيز أنهت كل علاقة بينهما، لم تعد أي منهما تزورنا أو تزور سوانا لو علمت بوجود الأخرى. بدأت المشادة بتعليق ماكر من دنيز، قالت: «فرنشيسكا لا تحب اليهود، ولكنها تحب بهلر وهو يهودي، غريب!» ردت فرنشيسكا بانفعال، نفت نفيا قاطعا كراهيتها لليهود ثم شهدّت أمي، فقالت أمي مراعاة لآديل وتحسبا لتعقد الموقف: «لم أسمع فرنشيسكا تقول شيئا من هذا القبيل!». كررت فرنشيسكا: «أنا عمري ما قلت، ولكن مسيو بهلر ما كانش يهودي! هو كان يهودي يا آديل؟!» قالت آديل إنها لا تعرف. واصلت دنيز بهدوء: «قرأت في مجلة أن ابنه جاستون كان متزوجا من امرأة تدعى ليا برنشتاين، وبعدين تزوج من امراة أخرى اسمها جينا ستيبوفيتش، وهذه أسماء يهودية!» وكعادتها

واصلت دنيز الكلام بصوت هادئ وهي تعرف وتزداد تأكدا أن كلامها يثير فرنشيسكا، ولكنها لم تتوقع أن تلعن جارتها فرنسا والفرنسيين، واليوم الذي وصلت فيه دنيز مصر وسكنت في العمارة التي نسكنها فتعرفت عليها وعلى «وشها النكد». تحولت الملاسنة إلى عراك بالأيدي واستعانت أمي بي للفصل بين المرأتين المشتبكتين.

كانت أمي تهاب دنيز، أو ربما تهاب فكرة المُعلِّمة التي تملك معارف وسلطات وتمسك في يدها قلما أحمر يسجل أحكامها القاطعة، خاصة وأن هذه المعلمة فرنسية تدرِّس طلاب فرقتي الباشو والفيلو، أي الفرقتين النهائيتين في التعليم الثانوي الفرنسي، وهي مرحلة من التعليم لم تصلها أمي إذ لم تتجاوز الصف الرابع المعادل للسنة الثانية إعدادي في نظامنا التعليمي. تعامل أمي دنيز بود واحترام يحفظان المسافة. لا تكون على سجيتها في وجودها، ولكنها تضحك مع فرانشيسكا، أو تبتسم تلك الابتسامة التي تضيء وجهها وتظهر الغمازتين في وجنتيها، تستظرف جارتها الإيطالية، يمتعها الحديث معها، تقول: «والله إنها ست طيّبة!» نعلق على كلام أمي، أنا وشقيقتاي، بكورس يردد ما تقوله فرانشيسكا عن نفسها: «أنا قلبي طيب، أنا جوهرة!» تكرر أمي: «شعنونة، لكن دمها خفيف، وفعلا قلبها طيب!» أما آديل فكانت أمي تتعاطف معها وتشفق عليها، تعيد علينا من حين لآخر قصتها: «تعرّفت آديل على شاب في نادي المكابي، طويل وعريض وجميل مثل القمر»، هذا ما روته لنا أمي، «بطل رياضي في النادي كل البنات معجبة به، آديل كان عندها 16 سنة ووقعت في غرامه، وهو أيضا أحبها، ولما طلب أن يتزوجها، رفضه أهلها، قالوا إنه من طائفة غير طائفتهم، وقالوا إنه من سكان الحارة، بلدي وفقير ومثل «ولاد العرب». أهلها سفارديم، يقولون إن أصولهم أسبانية وهم ربّانيون، يتحدثون الفرنسية ولغة اسمها «لادينو» وأهله قرّاءون مصريون، أو ربما

جاءوا من العراق أو اليمن، لا يعرفون سوى العربية»، تنسى أمي حكاية أديل وتستعرض معارفها عن الفرق بين الربّانيين والقرّائين وتدلل على كلامها باستحضار أسماء عائلات من زاملنها في المدرسة الفرنسية. «ليلى صالح وسونيا مرزوق وجميلة حسني كن من القرائين، وفورتونيه وجويس وجابي واستر من الطائفة الأخرى.» نعيد أمي إلى حكاية آديل لعلها تفصل أكثر في حكاية الحب ولكنها تجمل الحكاية لتنهيها: «تزوجت آديل رغم ممانعة أهلها. سنة ونصف، ثم خطفه الموت. مسكينة رجعت إلى أهلها. لم يقبلوها. زوج أختها، مسيو موريس شهم قال تأتي لتعيش معنا ونربي لها الولد.»

هل كان بهلر بروتستنتيا كالفينيا كغالبية السويسريين أم كان يهوديا؟ لم يشغلني السؤال، ولا بدا له أهمية وإن عنّ لي مؤخرا أن أطلب من حفيدتي أن تبحث على الشبكة عن معلومات عن شارل بهلر فجاءتني بسيرة مختصرة لحياته من صفحتين. لا إشارة لدين بهلر، هو مستثمر أوروبي على أي حال، وصل مصر كالعديد من المستثمرين الأوروبيين في ذيل الاحتلال، أي في الثمانينيات من القرن التاسع عشر. في الصفحة الثانية من السيرة المختصرة لائحة بأسماء ما كان يملكه بهلر من شركات، والفنادق التابعة لها وهي سبعة عشر فندقا (أظنها هي كل فنادق الدرجة الأولى في مصر في العشرينيات والثلاثينيات)، منها سافوي الذي هدمه وأقام مكانه عمارات بهلر المواجهة لبيتنا، وشبرد والجزيرة (القصر الذي بناه إسماعيل لاستضافة الإمبراطورة أوجيني)، وسميراميس والكنتينتال ومينا هاوس والمتروبوليتان في القاهرة، والجراند اوتيل والحمامات في حلوان، وسان استيفانو في الاسكندرية، وفي الأقصر ونتر بالاس والكرنك، والكتاراكت وسافوي في أسوان. أما خارج مصر فكانت له شركة واحدة أنشأت وأدارت فندق الملك داود في القدس.

تملى الناظر أسماء الفنادق.

هزته قشعريرة.

كتب:

ماتت فرنشيسكا وأنا طالب في الجامعة، وعادت دنيز إلى فرنسا، ورحلت آديل وإدي وأسرة أختها في مطلع الستينيات، أما بهلر فلم يبق منه سوى اسم لممر بين عمارتين كبيرتين، لا يعرف إلا المخضرمون أنهما جزء من بناية واحدة أنشأها الرجل في نهاية العشرينيات، وأن الممر الفاصل بينهما والمحلات الواقعة في هذا الممر وعلى جانبي البناية في شارعي قصر النيل وسليمان باشا كانت مشروعه لإقامة نسخة مصغرة أنيقة من الشارع التجاري الأشهر في باريس، شارع ريفولي.

كانت القاهرة الرومية المعروفة بوسط البلد تمشي في اتجاه زمن آخر، تطوي ملابسها وتحمل حقيبتها وتشرع في سفر. هل تخلّ الصورة بالتفاصيل؟ ربما، وإن بقيت صادقة في مجملها: سافرت إلى زمن آخر أو جاءها هذا الزمن بأهله ولغته ورموزه ومطالبه، لا فرق.

لم تكن رومية في ذلك اليوم الذي سارت فيه الجنازة من ميدان التحرير إلى ميدان طلعت حرب إلى ميدان مصطفى كامل (سابقا ميدان الإسماعيلية، وميدان سليمان باشا الفرنساوي، ورون بوان سوارِس). لم تتحرك الجنازة كالشمس من الشرق إلى الغرب، ولا كالتاريخ في تسلسله من السابق للآحق، بل مشت في طريق عكسي كأنها نيل الخيال في أساطير المصريين القديمة، مجرى أرضي يعود بقارب الراحل من غربه إلى شرقه، أو كأن الراحل يغوص عائدا إلى من سبقوه ليلملم من التراب عظامهم، ويجمع موتهم بموته ويقومون معا بشغلهم.

عربة عسكرية تحمل النعش ملفوفا بالعلم المصري، ومن ورائه الصف الأول في الجنازة ومن خلفهم حشد المشيعين. يتكاثر الحشد،

يفيض عن المجرى المستقيم لموكب يتقدمه رئيس الجمهورية والوزراء والقادة، لا مقدمة ولا مؤخرة بل جسد طاف على موج. لا أحد يبكي. لا جنازة ولا مشيعين، بل صوت: «بالروح بالدم نفديك يا رياض»، «بالروح بالدم نفديك يا مصر».

قلت: هذه جنازة أخي التي لم أمش فيها. قلت: ليست جنازة، بل شيء آخر يصعب علي الآن تعيينه.

جنازة عبد المنعم رياض صالحتني على نفسي بعد عامين من الخصام، وأعادتني للشارع بعد ثمانية عشر عاما من الفراق، هل هذا صحيح؟

بحث في ملفاته. استلّ منها جريدتين قديمتين. نشر أمامه الجريدة الأولى العدد 147 من جريدة الشعب يحمل التاريخ بالتقويم الهجري والميلادي والقبطي تباعا:

ربيع الأول سنة 1376- 30 أكتوبر سنة 1956- 20 بابه سنة 1673

إسرائيل تتحرك

وتهاجم الحدود المصرية جنوبي الكونتيلا

جلاء رعايا أمريكا عن الدول العربية وإسرائيل يتم
قبل ساعات من هجوم اليهود

وثانيهما العدد 150 من نفس الجريدة الصادر بعد ثلاثة أيام يفرد الصفحة الأولى كلها للعناوين:

الرئيس يعلن:

سنقاتل.. سنقاتل.. سنقاتل

قطع جميع العلاقات مع فرنسا وبريطانيا

ترحيل السفير البريطاني فورا

إسقاط ١٨ طائرة للعدو

---

١٠ غارات على القاهرة أمس

إعلان حالة الطوارئ

اعتقال ٥٠٠ خبير بريطاني في القناة

تعطيل الملاحة

بريطانيا تغرق السفينة المصرية عكا في قناة السويس

الاستيلاء على شركات البترول الإنجليزية

اجتماع ملوك ورؤساء العرب في بيروت

سوريا قطعت أنابيب البترول في أراضيها

نقل العناوين في دفتره ثم توقف. ما الذي أكتبه الآن؟ هل أحكي عن تأميم القنال وعدوان 1956، أم أرجع إلى بداية حكم الضباط الأحرار أم أقفز لحرب الأيام الستة؟ هل أستكين لسرد وقائع؟ الوقائع في كتب التاريخ مسجلة محفوظة، بالأرقام والتواريخ، ووقائع حياتي لا عجيب فيها ولا غريب، ما جدوى سرد الوقائع؟

تطلعت حوله، أم عبد الله على حق. رأت وصاحت ملتاعة: «حصل إيه، زلزال؟!» غضبت وصرفتها، قلت: «لا تأتي ثانية!» أعرف أن أي زائر، بما في ذلك بناتي، سوف يقف مشدوها ما إن يدخل البيت. «خطط المقريزي» و«الخطط التوفيقية» و«تقويم النيل» بأجزائها المتعددة، كتب عبد الرحمن الرافعي، كتب جمال حمدان، «ملف وثائق فلسطين»، وغيرها من الكتب، أنزلتها من الرفوف العليا في المكتبة وتركتها مكومة على الأرض لتكون في متناول يدي وأنا أكتب. الدفاتر التي سجلت فيها يومياتي منذ عام 67 حتى العام الماضي، أربعة وثلاثون دفترا يحمل غلاف كل منها تاريخ السنة بالتقويمين الهجري والميلادي، جرائد ومجلات، ملفات وصور وقصاصات متناثرة على الأرض بجوار المكتبة وبجوار السرير وفوقه، وفي غرفة الجلوس، وفي الحمام وفي المطبخ، وعلى المكتب وعلى طاولة الطعام، وعلى الطاولة الصغيرة التي تستخدمها أم عبد الله لفرم البصل أو البقدونس.

لست كاتبا، وما أكتبه ليس سوى شذرات لا يحكمها فكرة ولا بنيان. ما الذي لدي؟ سؤال لم أحدد كل عناصره، كأنه حيرة عقلي لا سؤال؟ دفاتر قديمة وكتب مبعثرة على الأرض، أوراق تفتّتت أو تآكلت حفظتها قبل عشرات السنين مع ما لم أعد أذكره من نثريات في حقائب وصناديق أنزلتها لي أم عبد الله من الصندرة بناءً على طلبي، ما الذي سأفعله بذلك كله؟ كيف أدرجه في الحكاية، كيف أحكيها؟ لما لا أحكي حكاية تمشي بي في أمان في طريق عمري محفوفا بتتابع الشهور والسنوات، يناير يقصد ديسمبر، وديسمبر يُسلِم الطريق إلى يناير الذي يليه، طريق محددة بالوقائع والأحداث تتعرج صاعدة في الصبا والشباب أو هابطة مع الكهل وهو يشيخ ويغذ الخطو باتجاه النهاية؟ أي حماقة تصور لي أن بإمكاني أن أجمع كل تلك النتف في دفتر واحد

وأرفعه على رؤوس الأشهاد وأقول هذه حكايتي؟ والأفدح أنني لست كاتبا محترفا، ما الذي سأفعله في هذا الركام؟

هذا الركام هو عمري وحكايتي، ولدي سؤال يجمع شتات العمر. أريد أن أحكي. سأذهب إلى المكتبات وأحصل على مزيد من الكتب، سأتملى ما مر بي، وسأمشي في الشوارع وأمعن النظر، وأكتب.

أنت تكذب. لم تعد قادرا على المشي في الطرقات. لا رحت ولا جئت. لم تصعد سلما إلى أعلى رف في المكتبة، ولا حملت كتابا ضخما ونزلت به السلم، لم تذهب إلى هنا أو هناك، أنت مقعد على كرسي متحرك منذ عشر سنوات، إحدى عشرة سنة على وجه الدقة، ورضوى تتواطأ معك، تقول قطع الطريق من بيته إلى ميدان التحرير، ومن ميدان التحرير إلى ميدان مصطفى كامل. سار على قدميه. أنت لا تمشي، لماذا تخفي الحقيقة؟ لماذا لا تقول إنك مغلوب تحمل راية بيضاء؟ لماذا لا تحكي عن أبي العلاء الذي يرافقك بـ«غير مُجْدٍ» ترن في أذنيك وأنت تحرك إعاقتك بضغطة خفيفة على مقود يكبح عجلات الكرسي، أو يترك لها أن تدرج بين غرفة وغرفة. هل كبّرت البنات حقا، أم كبرن بقانون يستعصي عليك؟

اذهب بعيدا يا أبا العلاء، قلت لا أريدك هنا. لن أكتب هذا الكلام!

سألتك حفيدتك:

«ماذا صنعتم يا جدي، كيف أوصلتمونا إلى ما نحن فيه؟»

نهرتها: «لما لا تسألي والدك؟!» نظرة البنت تربكك. عيناها واسعتان دعجاوان تتطلعان مباشرة كعيون المسيحيين الأوائل في الأيقونات القديمة، هل يلقون بها إلى السباع؟. يلعن «أبوك» يا شهرزاد، هل نأتي بأولاد وأحفاد ليحاسبونا على ذنوبنا؟

ومحمود؟ هل خلّفته ونسيته ليقفز في وجهي كعفريت العلبة، أو كشبح يطالبني بكشوف الحساب؟! سبحان الله، الأشباح تنبعث من الماضي، من القبور. زمنٌ لا معقول، يسَكُن الأشباح المستقبلَ لا الماضي. «حلّي عني يا شهرزاد!» «حِل يا محمود!» أسئلته أصعب، لأنه أكبر منها سنا، لأن ظرفه يتيح له من التجارب والمعارف ما لم يتح لها، أم لأن ذكاءه يمكّنه من النفاذ عبر المسلمات كمنشور ضوء؟ ليست الصورة دقيقة، لا ينفذ منها بل ينفذ فيها، يصعقها فتسقط كومة أمام عيني، كيف أقيمها ثانية الآن؟! «يلعن والديك يا محمود!» أكتب من أجلك، سأعطيك هذه الأوراق قريبا أو ذات يوم. هل تحملها بين يديك بحرص وتوليها ما يليق بإرث خلّفه أجداد طيبون، أم تنظر إليها بسرعة وعبورا، تقرأها بعين الشك، وسخرية تتعيَّن على وجهك ابتسامة مستخِفَّة؟ ربما تغضب على طريقة الأباطرة القدامى فتزيح الأوراق من أمامك بضربة يد وتقول احرقوها!

بكى الناظر، ثم غفا، ثم قام مدافعا عن نفسه. سأقول لشهرزاد... وبدا أن لديه دفاعا قويا يلقيه على مسامع حفيدته. «سأقول لمحمود...» بدا له أنه يقف ثابتا، يترافع عن نفسه بصوت جهوري: نعم ها أنا أقف ثابتا على أرض الحقيقة، أقف يا بنت، أمشي يا بنت، لست مقعدا يا ولد، ليس بعد!

انتفض واقفا وراح يقطع حجرات البيت بخطى حثيثة.

الفصل الثامن

لابد من حسم الأمر، هل أخوض في موضوع الضباط الأحرار، وكيف أخوض فيه؟ المؤكد أن حريق السادس والعشرين من يناير 1952 مكّن الضباط من القيام بثورتهم، يسر لحركتهم أن تتم دون أن يدفع البريطانيون بدباباتهم وجنودهم وسلاحهم المكدّس على طول خط القنال إلى القاهرة لاحتلالها. أن يمسك الضباط بزمام البلد، وإن كانوا وطنيين، خير من أن تصبح بلا زمام، وفي أيدي «الغوغاء»، لم يكن ذلك موقف بريطانيا وحدها بل قوى مختلفة ذات مصلحة في الداخل والخارج. بدا ممكنا التعامل مع الضباط، بدا أن الأمور تسير بشكل معقول طوال ثلاث سنوات، بدت الخارجية البريطانية مغتبطة بحكمة اختيارها لأهون الشرَّين، وبدت أمريكا مطمئنة وقادرة على التواصل مع الضباط الصغار. ثم فاجأهم الكولونيل المنتخب بشراء سلاح تشيكي، ثم بتأميم القنال فبدأت حرب كان مقدرا لها أن تبدأ قبل ثلاث سنوات، واستمرت حتى موت الرجل، إذ واصل عبد الناصر مفاجآته الصادمة، ينقض الخرائط ويخل بالنظام ويهدم ما بنوا وأبرموا منذ عشرات السنين.

لن أضمِّن ذلك كتابي، يمكن للقارئ العودة إلى كتب التاريخ، سأحكي عن الأيام الأربعة التي شاركت فيها وكنت شاهدا على تفاصيلها:

انتحب المذيع وخرجت إلى الشارع مخلفا ورائي صوت شهرزاد صائحا: «إلى أين تذهب يا مجنون؟!»

في الصباح تشاجرنا، علا صوتها وعلا صوتي. قالت: لم تكّف الصغيرة عن البكاء، لم أنم طوال الليل، لا تراعيني ولا تراعي البنات، استيقظتَ من النوم ولم تقل صباح الخير، لم تغسل وجهك، لم تبادلني حرفا، انتحيت جانبا وألصقت أذنك بالراديو الترانزيستور، لم تفتح فمك إلا لكي تصيح فينا. واصلت بيان قائمة المآخذ وواصلت التقليب بين المحطات، لم أقل شيئا. احتدم الشجار حين عادت البنت الأصغر إلى البكاء، صرخت طالبا منها أن تأخذها إلى طبيب أو إلى أمها أو إلى أي داهية. قالت: لا تحب بناتك، قلت: لا أحب أحدا، اتركيني في حالي. بكت. طرقتُ الباب خلفي وتركت البيت، سرت من الروضة إلى كوبري الجامعة، ومن كوبري الجامعة إلى كوبري عباس، ومن كوبري عباس إلى الملك الصالح وعبرت البحر الصغير إلى طريق مصر القديمة والمعادي. سمعت صوت مغنية من أجهزة مذياع في المقاهي تغني: «إلهي ليس لي إلاك عونا». سمعت صوت المقرئ في غير المواعيد المحددة في الإذاعة لتلاوة القرآن. لم أتطلع في وجه أحد، لم أفكر في شهرزاد، لم أفكر في أخي ولا في مصر وصوت أم كلثوم ينبعث من الإذاعة أو من جهاز تسجيل يقول إنها «في خاطري وفي دمي». مشيت في الشوارع من الظهر حتى قبل المغرب بقليل. عدت إلى المنزل قبل موعد الخطاب.

رأيته على شاشة التلفزيون وسمعت خطابه. قال إننا هُزمنا، أسماها نكسة. قال إنه يتحمل المسئولية وإنه يتنحى عن الحكم. وجدت الشارع يموج ببشر مثلي خرجوا من بيوتهم في رد فعل فوري وتلقائي قبل أن يعرفوا لماذا، ربما لكي لا يختنقوا داخل الجدران، أو لكي لا يسقط المبنى على رؤوسهم، أو ليكونوا معا لحظة تزلزلت

الأرض. تحرك الحشد باتجاه شارع الروضة، وكانت شوارعه الخلفية الممتدة بين البحر الكبير والبحر الصغير في الطرف الجنوبي من الجزيرة تحمل إليه بشرا فيصبهم في شارع المنيل حيث يتضاعفون بسكان الشوارع الصغيرة المتفرعة منه على الجانبين. ثم من شارع المنيل إلى القصر العيني. أمشي مع الناس، أعي أشياء أفعلها بلا وعي، حين نصل إلى مجلس الأمة أنتبه أنني كنت أقصد المكان رغم أنني لم أكن أعرف أنني أقصده، عند المجلس توقف الناس فتوقفت.

أحاول أن أستعيد ما حدث وأن أستقرئ مشاعر الآخرين باستقراء مشاعري، ولكن قراءة مشاعري تستوجب أن أتذكر اللحظة بتفاصيلها. أكتبها الآن بعد خمسة وثلاثين عاما، هل يمكن استعادتها بعد خمسة وثلاثين عاما؟ أذكر الظلام. أذكر شارعاً يموج بالبشر ويتحرك بسرعة كنهر في فيضان. أذكر صفارات إنذار متتابعة ونحن نعبر البحر الصغير إلى شارع القصر العيني. أذكر طفلة تبكي، وأذكر وجوها غاضبة، ووجوها تائهة، ووجوها خائفة، ووجوها تقول أشياء أكثر مما أعرفه أو أحيط به. أذكر وجوها صخرية منحوتة كالتماثيل، ووجوها يتشكل التعبير على ملامحها ثم يتبدل كقطعة صلصال في اليدين. يفتقد الوصف الدقة، لم أعد أذكر ملامح تلك الوجوه الكثيرة التي رأيتها وأحاطت بي. أحيانا يبدو لي أن ما أتذكره ملون بأفكاري ومشاعري اللاحقة كأن لم يبق من المشهد سوى صفحة انسكبت عليها أحبار من محبرة تلو محبرة، وأحيانا أستعيد مشهدا انحلت تفاصيله إلى موج له صوت على خلفية من ظلام. ثم أعود أذكر أفعالا محددة، أذكر أن حشدا عسكرَ عند المجلس، وأن حشدا واصلَ طريقه، واصلت معه. سرنا إلى ميدان التحرير ومن التحرير إلى شارع رمسيس فالخليفة المأمون فمنزل عبد الناصر. قضينا الليلة في منشية البكري عند بيته. نهتف حينا، ونصمت حينا، ويتحدث بعضنا مع البعض، ويتحدث

الواحد منا مع نفسه بصمت أو بصوت حتى لاح الفجر ثم طلع النهار فعدنا إلى المجلس وعسكرنا عنده حتى اتخذ عبد الناصر قراره بالرجوع عن التنحي. هللنا وعدنا إلى بيوتنا. كان ذلك عصر اليوم التالي. لم تكن زوجتي والبنات في المنزل. قلت: ذهبت إلى أهلها. استلقيت على فراشي. تمتمت: اليوم خمر وغدا أمر، ولكني تمنيت، وأنا بين الصحو والنعاس، أن أنام كأهل الكهف ثلاثمائة عام.

في يومي التاسع والعاشر من يونية 1967 أعدنا عبد الناصر، قلنا له ارجع، نريدك، نحن بحاجة إليك، وأرجعناه، لكننا في الثامن والعشرين من سبتمبر، رغم كثرتنا الهائلة والأكبر من المرة السابقة، لم نستطع أن نعيده. ساعتها كنت أمشي مضطربا، عاتبا عليه، حزينا على رحيله، يلّح عليّ أخي إلى حد أنني كنت أمدّ يدي قليلا كأنه سينتبه فيمسك بها فنمشي سويا بنفس الخطوة في الزحام. أدرك ما لم أدرك ساعتها من حجم الناس، لأن الأفلام التسجيلية التي التقطت لذلك اليوم تظهر حركة النعش الملفوف بالعلم والمسجى على عربة مدفع، سابحة في فيض الشوارع والميادين والجسور، ضاعت حدودها فتحولت إلى مكان واحد لمشهد واحد اجتمع فيه أهل البلد ليشيعوا ابنهم، وفي الوداع الأخير يغمرون نعشه، ثم يرفعونه، يطفو، يحتضنونه فيغمرونه من جديد، ولكنه يعود يطفو ويطير فوق الرؤوس لأنه راحل لا يملك البقاء.

رحل، وجدّت في غيابه أحداث كثيرة قاسية، وكثيرا ما أتساءل إن كان الموت رحمةً يحجب تلك الأحداث عنه، أم سجنا يتيح له أن يرى ولا يسمح له بالحركة أو حتى بالكلام؛ أتساءل إن كان يراجع نفسه وهو يتأمل حساب المكسب والخسارة، أم يحرمه الموت من نعمة البصر ويحوله إلى رهينٍ لمحبسين؟ وكثيرا ما أفكر إن كان الموت ثبته في منتصف العمر كما كان لحظة رحيله، أم كبره، كما كبر أخي،

فصار شيخا في الرابعة والثمانين من عمره ناحل الجسم وإن احتفظ بقسمات وجهه ونظرة عينيه التي لا يخطئها أي منا، نحن الذين نشأنا وتربينا في فترة ولايته؟

أعترف أنني لم أغفر له. داهمني موته وأنا مشتبك معه، أسائله بقسوة- ماذا تفعل لو داهم الموت والدك في لحظة شجار ارتفع فيها صوتك عليه وأنت ساخط محتقن ومتحفز، ثم تراه فجأة ساكنا بين يديك؟ كان حزنا غريبا لم أجربه لا بعدها ولا قبلها، حزن صاعق مجبول بالغضب والخوف، أو بمشاعر أخرى يصعب عليّ تعيينها. ذلك على أي حال تاريخ مضى، أقصد أن السنوات لملمت تلك المشاعر لأنها عادة ما تفعل ذلك، ولأنها تتيح مسافة وهدوءاً يسمحان بتقييم أكثر عدلا لما حاول الرجل إنجازه في ظرفه الصعب وعمره القصير، والأهم، ربما، أنني وأنا في الخامسة والستين من عمري أملك أن أنتحل له الأعذار على طريقة الآباء، أخفض له جناح الرحمة.

أحيانا أتذكره، وأفكر فيه، وفي أحيان أخرى يغيب عن خاطري كما تغيب عن وعينا اليومي شخصيات وأحداث شغلتنا حين قرأنا عنها في كتب التاريخ، أو عاصرناها وولّت فأصبحت هي أيضا تاريخا، وأحيانا، مشهد تسجيلي في التلفزيون، يقطع حبل مشاغلي وأفكاري، أنصت لصوته، أتمعّن في صورته فأشعر بحنين لا أعرف إن كان حنينا إلى زمانه أو إلى صباي أو إلى شيء ثالث. لم يسبق لي أبدا أن تخيلت أنه جالس بجواري إلا في ذلك اليوم قبل عامين. تصورته جالسا على الأريكة بجواري يتابع معنا، أنا وأخي ما نقلته لنا شاشة التلفزيون. كان أخي جالسا على مقعد منفرد يكاد يكون ملاصقا للشاشة، أتطلع إليها فأراه، لا أرى وجهه بل مؤخرة رأسه وكتفيه وجذعه المائل طفيفا للأمام، مستغرقا تماما في متابعة مشهد سقوط معتقل الخيام، دخول الأهالي ساحة السجن، تدفّقهم في الممرات الضيقة الفاصلة بين

الزنازين. وباب من فولاذ، وكف تمتد عبر طاقة مستطيلة ضيقة في الباب، ويد أخرى تمتد من داخل الزنزانة، تلتقي اليدان فتطمع في المزيد. تدق الأكف على الباب، تقرعه بالأيدي وبالأكتاف وبالأقدام، بقضيب ما أو عصا أو آنية طعام. تدق وتضرب وتدفع وتزيح، حتى يسقط الباب. أبواب أخرى أيضا تسقط. تنفتح الزنازين، تفيض الممرات. يخرج السجن من السجن. وكان الوقت عصرا، وشمس الصيف قوية ساطعة تُغني عن تملي الأهل وجوه أولادهم في ضوء المصابيح أو تحسسها لمسا باليدين.

كنت أجلس على الأريكة أتطلع إلى شاشة التلفزيون وأسترق النظر إلى أخي آملا أن يلتفت إلى فأرى وجهه كاملا. وكان عبد الناصر جالسا بجواري. كان ذلك محض خيال أو تمني، أقصد وجود عبد الناصر جالسا على الأريكة، أما أخي فكان حاضرا أراه كما أرى سقوط السجن أمام عيني.

***

كتب الناظر:

شبح يطوف بالقلعة.

رآه الحراس أولا. رأوه مرتين في ليلتين متعاقبتين. وفي الليلة الثالثة يصيح أحدهم فيه: تكلم، آمرك أن تتكلم، ولكن الشبح يختفي صامتا كما ظهر، ملكا قتيلا، مُدَرَّعاً برداء الحرب «ينذر بانفجار ما، انفجار غريب في الدولة». يسأل الأمير الشبح: «هل تحمل روحا طيبة أم شيطانا ملعونا، هل تأتي برياح الجنة أم بنار جهنم؟» يقول الأمير: «سأسميك أبي» يقول: «ما معنى أن يقوم جسد ميت في كامل فولاذ درعه ليعودني وينظر وجه القمر؟ لماذا تأتي لتزعزع أفكارنا بمطلب لا تطوله أرواحنا، قل لماذا؟ وإلى أين؟ وماذا نفعل؟» يقول: «سأتبعه»،

يحذره رفاقه: «قد يأخذك إلى الفيضان، أو إلى قمة تسحبك إلى هاوية البحر ويتخذ شكلا آخر يسلب عقلك ويحملك إلى الجنون، في هذا المكان يا سيدي ما يثير اليأس فيمن تحدق عيناه في أعماق البحر وينصت إلى هدير أمواجه.» يقول الشبح «أوشكت ساعتي،» يُعلم الأمير أنه محكوم عليه بالعيش في عذاب محبسه طول النهار، وفي الليل يطوف في ضواحي القلعة. يقول الولد: «يا مسكين!» يقاطعه الأب: «لا تشفق علي اسمعني. . . أذاعوا في الناس كذبا، قالوا لدغه ثعبان وهو يقيّل في الحديقة. اعرف أيها الشاب النبيل أن الثعبان الذي لدغ حياة أبيك يرتدي تاج ملكه، صب السم في أذني وأنا نائم، فسرى سريعا في مسالك الجسد، تخثر الدم الصحيح، لم يعد كالحليب حليبا، تجبَّن وطفحت على جلدي الناعم قشرة كريهة غطته كاملا.»

يصيح الولد: «تفككت مفاصل الزمان. آه أيها الشر اللعين الذي ولدت كي أصححه!»

توقف عن الكتابة، هتف: تجاوزت الخامسة والستين، مالي وهاملت؟ لستُ أميرا يعيش في قلعة معلقة في ضباب النرويج، ولم يقتل أحد والدي. كان والدي موظفا بياقة بيضاء في البنك الأهلي، عاش ومات بعيدا عن حقول القتل، يسكن بالقرب من عمارات بهلر وجروبي؛ كان وفديا بالوراثة يحب النحاس باشا ويعلق أبياتا من شعر كيبلنج وراء مكتبه. ويوم جلس السادات على مائدة كامب ديفيد مع مناحم بيجن يتوسطهما الرئيس الأمريكي، قال أبي: «لا تلوموه، هذه سياسة!» قارن المعاهدة الجديدة بمعاهدة 1936، قال: «وقّعها النحاس وألغاها النحاس، ولكن هذه المعاهدة أقوى لأن إسرائيل ليست بريطانيا.» احتد النقاش بيننا، ثم فعلت ما لم أعد أذكره، وقلت كلاما نسيته، ذكرته شهرزاد أمام القاضي تدليلا على عدم أهليتي للاحتفاظ بالبنات.

قالت إن اسمها شهرزاد فوقعت في حبها. قد لا يكون كلامي دقيقا لأنه يصعب أن نعرف لماذا يقع رجل ما في حب امرأة. أعجبني شكلها ورنة صوتها وطريقة كلامها، وعندما قالت: «اسمي شهرزاد» عرفت أنني أريد الزواج منها، ولكن شهرزاد الإذاعة كانت تفتح أبوابا، وزوجتي شهرزاد لم تحتمل ذلك الباب الواحد المفتوح بيني وبين أخي. قلت لها غيِّري اسمك، فقالت إنني مجنون وأخذت بناتي وذهبت.

اطوِ صفحة هاملت وصفحة شهرزاد، لا ترهق القارئ بالتقافز كالجنادب بين الأماكن والأزمنة.

ولكنني أريد أن أحكي عن أخي. أردت أن أحكي عنه طوال ثمانية فصول ولم أستطع. لم يظهر لي أخي كما ظهر الملك القتيل لابنه. لم يقل لي: أعرف أن من قتلني يلبس الآن تاج المُلك، لم يقل أنهم صبوا السم في أذنه، لم يقل أي شيء، ظل صامتا، ولكن هيئته لم تكن غامضة ولا مفزعة، ولا كان حضوره كابوسيّا، مجرد شاب في السادسة والعشرين من عمره يقف بين الأشجار، تلامس أوراقها كتفيه، يلبس قميصا صيفيا قصير الأكمام وبنطلونا قطنيا خفيفا. لم أتمكن بسبب الظلام من التحقق مما تقوله عيناه، كانت الأوراق في ضوء الحديقة الخافت تلقي بظلال على وجهه، هكذا رأيته في المرة الأولى. لم أره بعين الخيال بل بعيني المثبتتين في رأسي. قلت ها هو أمامي يقف في الحديقة، ولكن ساقيّ لم تقدرا على حملي فبقيت على مقعدي أنتظر، لم أفكر فيما أنتظر، ربما لم أكن أنتظر شيئا لأني كنت قانعا برؤيته هكذا في الحديقة، بخير، قانعا أن السنوات الخمس التي انقضت منذ رحيله لم تبقه مثبّتا في الواحد العشرين بل كبّرته كما تكبر الحياة الناس. حكيت لامرأتي. لماذا غضبت؟ قالت: «أين هي الحديقة لتي رأيته فيها؟! بيتنا بلا حديقة، ولا شرفة تطل على أشجار!»

لم تكن قبيحة ولا غبية، فلماذا قالت كلام الأغبياء المصابين بالقبح؟ انسحبتُ من الكلام، تناسيت ما قالت حتى نسيت، أكيد أنني نسيت، لو لم أنس لما عدت إليها في ذلك المساء أتصبب عرقا وأقول لها إنني رأيته جالسا مع عمال بناء عند أسفل عمارة في طور الإنشاء. كانوا متحلّقين حول حطب موقد يتدفأون على ناره، ويضعون فوقه إبريقا من الصاج الأزرق. كانوا صامتين، مكشوفين للبرد القارس، تضيء وجوههم زرقة اللهب المنبعث من الجمر. وقفت على بعد خطوات منهم. قلت: السلام عليكم. ربما ردوا السلام ولم أسمع، وربما لم يسمعوني فلم يردوا السلام. نظرت وتحققت وتعرّفت على أخي. ومرة أخرى لم أحدد معنى النظرة في عينيه فقد كان وهج النار حائلا دون التحقق. ثم رأيته مرة ثالثة في القطار. كنت على رصيف المحطة أقصد نفس القطار، ولكنني تأخرت فانغلق الباب وبدأ القطار يتحرك. رأيته بوضوح لأنه كان يجلس بجوار النافذة. رأيت وجهه كاملا، كان رأسه مائلا قليلا إلي الخلف يسند رأسه إلى أعلى ظهر مقعده، وكانت عيناه مغلقتين، كأنه في غفوة أو استراحة قصيرة. اختفى القطار، وبقيت واقفا على الرصيف.

حكيت لزوجتي، لم تصدقني. ساعتها تذكرت المرتين السابقتين، قلت ما نفع الاستمرار مع زوجة لا تصدقك؟ ولكن هي التي ذهبت، حملت البنات وقالت: مجنون. ولما أردت استرداد البنات، شهّدت أبي عليّ، صدقها وقال مثلها إنني مجنون. ربما صدقها لأن أخي لم يظهر له ولا مرة واحدة فظن أن ابنه ذهب تماما، وأن رؤيته صارت من المستحيل. ولما ذهبنا إلى المحكمة صدّقهم القاضي وكذّبني. هذه حكاية قديمة، أقصد، لم يعد يؤلمني أنهم كذّبوني. حفيدتي تصدقني، وأيضا محمود، وهذا مهم، وأنا أصدّق ما رأيت، وهذا يكفيني. ربما أتمنى لو أستطيع أن أتحدث مع أخي، أشكو له، أطلعه على بعض ما

حدث، أستشيره في أمور، لكن يبدو أن الموت لا يسمح بأن نحكي سويا، أو يسمح ولم يحن الوقت بعد.

في خريف عام 1956 كنت أخرج كل ليلة للمشاركة في أعمال الدفاع المدني، أعلق شارة على أعلى ذراعي الأيمن وأمشي في شوارع الحي أثناء الغارة، أصيح «طفّوا النور»، أساعد من داهمته الغارة في الطريق، أو أبلغ عن أي أمر يدعو إلى الاشتباه وغيرها مما يقوم به المتطوعون من الشباب. أعود إلى البيت في ساعات الفجر الأولى فأجد أخي جالسا في انتظاري. كان في التاسعة من عمره.

كثيرا ما أستعيد صورة أخي وهو طفل صغير. أراني وأنا أحمله رضيعا بين ذراعي، أستعيده وهو في أول المشي والكلام، تتصدر بين التفاصيل الكثيرة وقفتي بجواره أمسك بيده في يميني، أقول له: «لا شيء يخيف. إنه من الخشب. أنظر!» أمد يدي اليسرى إلى فم السبع وأدخل أصابعي فيه، أتطلع إلى أخي، أشجعه على الاقتراب، أشعر بمقاومة جسمه وقدميه المثبتتين في الأرض. كان أبي اصطحبنا معه لزيارة قريبة من قريباته. زوجها من قيادات الوفد أو ربما شخصية بارزة من شخصياته. على حائط حجرة الجلوس صور فوتوغرافية لرجال مطربشين اصطفوا معا من أجل الصورة، بينهم النحاس باشا وقريبنا، وكان أيضا باشا. لم أعد أذكر من البيت إلا المقعد الأخضر الكبير وشرفة المنزل المطلة على ميدان قصر النيل تكشف امتداد شارع عماد الدين باتجاه شارع فؤاد، إلى اليسار بنايتان في مدخل شارع قصر النيل من الميدان، إحداهما نادي ريسوتو، يقابله على بعد خطوتين، في شارع عماد الدين، البنك العقاري المصري، الكريديه فونسيه الذي أسسه الإخوة سوارِس (والأرجح أن ذلك هو السبب في تسمية الميدان برون بوان سوارِس قبل وضع تمثال مصطفى كامل في مركزه وتسميته باسمه).

كان المقعد الذي أثار خوف أخي مخمليا كبيرا مقعدته مربعة وظهره دائري له إطار من الخشب المحفور. يتصدّر على ظهره هلال وثلاث نجوم مطرزة بخيوط الذهب، يعلوها، بنفس الخيوط، قوس من تطريز الكلمات: «أحب الصدق في القول والإخلاص في العمل وأن تقوم المحبة بين الناس مقام القانون. سعد زغلول». أعلى الظهر ورود من خشب، وفي مقدمة كل مسند رأس أسد فاغر فمه.

انتبه أخي للأسدين الخشبيين، أقترب منهما قليلا ثم خطا للوراء. ولما أرادت قريبتنا إجلاسه على المقعد انفجر في البكاء. حملته وأجلسته على ركبتي على مقعد آخر. قلت له: «ليسا سوى أسدين من خشب. لا شيء يخيف.» قمت ووضعت إصبعي في فم الأسد، أخرجت إصبعي. وضعت كفي على رأس كل منهما، ربت عليهما وأنا أبتسم وأتطلع إليه. قلت: «هل تأتي؟» لم يغادر مكانه. ذهبت إليه وحملته برفق ثم أجلسته معي على المقعد الأخضر الكبير. تطلع إلي، قال: «لم أعد خائفا.» ولكنه ظل ممسكا بيدي أشعر بالعرق البارد على صفحة كفه. كان في الثالثة من عمره.

لم ألم أخي أبدا لذهابه، ألوم شهرزاد، في البداية كنت غاضبا، تبدد الغضب، ولكني رغم كل هذه السنوات لا أفهم لماذا قالت إنني مجنون وذهبت إلى القاضي وحرمتني من صحبتها ورعاية البنات.

قالت إنني تغيرت، دللت على كلامها: «كنت تأخذني مع البنات إلى جروبي عدلي ونجلس في الحديقة صباح كل جمعة وتطلب لنا جيلاتي. كنت لطيفا، تعتني بي وبالبنات، كنت تلاعب البنات، وكنت تضحك، وكنت تأخذنا لتناول الغداء في حديقة الميري لاند، وفي الطريق إلى مصر الجديدة تُشغِّل مسجل السيارة وتصاحب أم كلثوم وهي تغني: «وقف الخلق جميعا ينظرون كيف أبني قواعد المجد وحدي. أنا تاج العلاء في مفرق الشرق ودرّاته فرائد عقدي»

وكنت. . .» قاطعتها: «تقفزين من بيت إلى بيت مسقطة ما بينهما من أبيات!» احمرّ وجهها، قالت: «ليس هذا هو الموضوع. لم تعد تغني، لم تعد تضحك، لم تعد تهتم بالبنات، لم تعد أنت!» غادرت البيت لتفادي الشجار، سرت في الشوارع ثم جلست في مقهى، وبقيت فيه حتى جاءني النادل وأعلمني بموعد الإغلاق. عدت إلى البيت وقد قررت أن أصالحها وأعدها أنني سأعتني بها وبالبنات، لأنني أحبها وأحب البنات. عاصفة صغيرة وعابرة، ستمر. ولكنها قالت إنني مجنون وأخذت البنات وذهبت. لماذا تريد شهرزاد أن تغلق الباب بيني وبين أخي؟

الفصل التاسع

قالت إنني تغيّرت. ربما كانت على حق، وإن كانت لائحة المآخذ التي قدمتها غريبة، غير مفهومة. لم يكن صحيحا أنني لا أحبها ولا أحب البنات. كنت غاضبا من غبائها ومضطربا إلى حد الفزع بسبب ما يحمله لي المذياع، قلت: «لا أحب أحدا!» لم أكن أقصد ما أقول. شرحت لها ذلك، كررته أمام والديها وأمام والديّ، اعتذرت. لم تقبل اعتذاري. أخذت البنات وذهبت، فذهبنا إلى المحكمة. صدقها القاضي فاستأنفت. قلت للقاضي: المسألة بسيطة يا سيدي القاضي، أبسط مما تتصور. لي أخ شهيد، يصغرني بتسع سنوات، ربيته، وهو رحمةً بي، يزورني من حين لآخر.

لم يفهم القاضي ولا فهمت شهرزاد، وأبي كذلك لم يفهم.

تركتني شهرزاد، أخذت البنات وانتقلت إلى بيت والديها، فلما حكم لها القاضي بالطلاق وبحضانة البنات، عادت لتقيم في شقة الروضة التي أقمنا فيها بعد زواجنا، وانتقلت إلى بيتنا في شارع قصر النيل. أقمت مع والديّ إلى أن وجدت شقة على بعد شارعين استأجرتها. لم أتعرف على السكان، أقصد لم أصاحب أيا منهم فنتزاور أو نتواصل بالكلام. أنزل إلى وظيفتي في الصباح وبعد الظهر أعود، أحيي البواب ومن ألقاه من العاملين في الشركات الكثيرة القائمة في المبنى أو من أصادفه من السكان، أقول صباح الخير، أو مساء الخير أو

السلام عليكم، أو يبادرون بالتحية فأردّ السلام. وأحيانا أبكِّر في الخروج فلا ألتقي أحدا منهم. يهبط بي المصعد إلى الطابق الأرضي، أتجاوز المناور، ألمح أولادا أو بنات من الساكنين فوق السطوح، ينزلون السلالم في طريقهم إلى مدارسهم، فأفكر في البنات. ما زال البواب يستخدم كلمة «سكوندو» للدلالة على السلالم الجانبية القائمة في المنور، ربما لكي لا يستخدم عبارة «سلم الخدم» المستخدمة سابقا، أو لأنه احتفظ برواسب لغة عرفها أيام كان شابا مساعدا لبواب عمارة معظم سكانها أجانب وأفندية لا يختلفون عن الأجانب سوى في لون البشرة والشعر المموج أو الأجعد، وأحيانا، وليس دائما، في الأسماء.

لم يأتني محمود من «السكوندو» في زيارته الأولى. كان في الثامنة من عمره حين دق بابي. فتحت فوجدت ولدا صغير الحجم، نحيلا، بشرته سمراء وله شعر مفلفل قصير. قال وهو يتطلع مباشرة في وجهي، يعرِّفني بنفسه: «أنا من أولاد الجيران، قضيت ساعتين أحاول حل مسألة الحساب، لم أستطع، هل يمكن أن تساعدني على فهمها يا خال؟» استغربت كلمة «يا خال»، استعذبتها فضحكت، أُخذ، قال: «لماذا تضحك؟!» بالغت في الترحيب به وأنا أدعوه للدخول. شرحت له مسألة الحساب. قلت وأنا أصحبه إلى الباب، «بإمكانك أن تسألني أحيانا لو احتجت السؤال.» ضحك، قال: «لا يا خال، أمي دائما تقول: لو كان حبيبك عسل...» كانت ضحكته تضيء وجهه بشكل لافت، فينتبه الناظر لشدة سواد عينيه ونظرة تجمع بين البراءة والانتباه، ويهجس بمعادلة غريبة يلتقي فيها طفل وديع وحيي، بصبي فيه جرأة واعتداد بنفسه، وربما أيضا عناد. سألته: «في أي طابق تسكن؟» لم يجب مباشرة. ثم كأنه حسم أمره وبصوت أعلى قليلا من المتوقع يجعل مخارج الألفاظ أوضح، قال: «أسكن فوق السطوح!» صمت لثانية، أضاف: «المرة القادمة حين آتي لزيارتك، سأدق باب المطبخ،

لا داعي للنزول سبعة أدوار من السلم الخلفي ثم الصعود مرة أخرى من السلم الآخر، أقرب، أليس كذلك؟!»

لم يظهر محمود في الأسابيع والشهور التالية. صار يأتي في الأعياد، يحمل لي دائما هدية ما. يقول: «أمي صنعت لنا هذه الفطيرة»، «عمتي جاءت من البلد وأحضرت لنا هذا التمر، إنه من نخلة جدي»، «هل تحب الدوم؟ هذا الدوم من بلدنا، ابن عم أبي أهداه لنا». في أول عيد زارني فيه حمل لي ثلاثة عيدان من قصب السكر. قلت له إنني أحب عصير القصب. أخي أيضا يحبه، لم أقل له ذلك يومها، فلم أكن حدثته بعد عن أخي، قلت: «كثيرا ما أمر بمحل العصير في شارع سليمان وأطلب كوبا من عصير القصب»، فاجأني: «أكره عصير القصب»، «لا تحب القصب؟!» قال: «لم أقل لا أحب قصب السكر، أحبه، قلت أكره عصره!»

قبل أن يذهب سألته: هل يمكن أن أعطيك عيدية، أنت في سن بناتي؟ بدا أنه يفكر، ثم قال: لا أفضِّل ذلك. وضع محمود القاعدة. التزمت بها.

لم يعد طفلا، ولا اقتصر لقاؤنا على الأعياد، نلتقي كثيرا فترفع الألفة الحواجز، نتحدث بلا حرج، نتفق و نختلف، حين نختلف نحتد ويعلو صوته وصوتي. أقول له «حل عني يا محمود، حل عن سمائي!» فيغادر وهو يتمتم بالتحية المعتادة: «تصبح على خير يا رجل يا طيب!» يعقبها انغلاق الباب رقعا كأنه سيتسبب في سقوط البناية.

دق الباب، فتحت، قال شخص لا أعرفه: «الهوانم في السيارة يسألن إن كان مناسبا أن يأتين الآن لزيارتك؟» قلت: «أعتقد أنك أخطأت العنوان!» ابتسم، قال: «أعني شقيقتيك، تنتظران في السيارة. أنا السائق.»

جاءتا، استتبتا على مقعدين، واحدة عن يساري والأخرى عن

يميني، سمينتان ملأت كل منهما مقعدها، اعتنتا بتلوين الشفاه ورسم الحواجب والعيون، أولهما غطت شعرها بما يشبه العمامة، وحجبته الثانية بقبعة مقطوعة بحجم الرأس ينسدل منها منديل شفاف لفته حول الرقبة. قالتا أن عينا أصابتني. قالتا إنهما تعرفان رجلا صالحا يعالج تلك الأمور. قلت:

- أية أمور؟!

- إن كان أحدهم عمل لك عملا، يتعرف هذا الرجل على مفعول العمل ويُبطله، وإن كان، بعد الشر، واللهم احفظنا، جان، يطلعه من جسمك. الجان ينفذ في كل شيء. صرنا نعزِّم على الماء، نقرأ عليه آيات من القرآن قبل أن يشرب منه الأولاد.

كنت مذهولا إلى حد الخرس. أتطلع إليهما وأحدق في وجهيهما، أتمعن في ملامحهما كأنني لا أعرفهما، أجتهد في ربطهما ببنتين لطيفتين تذهبان إلى الجامعة، شعر واحدة ملموم كذيل حصان، والثانية تضفره في ضفيرة طويلة. شبيبهتان كتوأم، في القد واللون وسواد العيون، وفي لماحية وقدرة مدهشة على السخرية والضحك وإضحاك الآخرين. قالتا:

- ما إن تعالَج حتى تنصلح كل أحوالك، تستعيد بناتك وتعود لك زوجتك، ترعاك وترتب لك كتبك، وتخلصك من كل تلك الأوراق المتناثرة في بيتك، فيهدأ بالك. ومن يدري قد يفتحها الله عليك وتبدأ مشروعا.

قلت:

- ما رأيكما في مطعم!

ضحكتا:

- لا نمزح، مشروعك يكون بزنس كبير، أضعف الإيمان فندق خمس نجوم ملحق به مول تجاري.

- أسميه شبردا!

مالتا علي، واحدة من اليمين والثانية من اليسار، قالتا همسا كأنهما تخشيان أن يسمع الكلام سوانا:

- ابنة الجيران تزوجت شهرا واحدا ثم عادت إلى بيت أهلها وطلبت الطلاق. أهلها أخذوها إلى ذلك الرجل الطيب الذي حدثناك عنه. ظل يضربها بعصا غليظة، على رأسها وصدرها وظهرها وأطرافها، لم يتوقف إلا عندما سقطت على الأرض وتلوّت وتحدثت بصوت خشن متحشرج وطلع منها العفريت. والحمد لله رجعت بيتها وهي الآن...

تركتهما إلى المطبخ، لأنني لم أطق المزيد، أو لأنني للحظة فكرت أن آتي بيد المكنسة وأنزل بها عليهما فأخرج ما في رأسيهما من عفاريت. أعددت لنفسي قهوة وجلست إلى طاولة المطبخ أرتشفها ببطء، لم أتحرك من مكاني إلا عندما سمعت طرقة الباب.

لا أفهم النساء، لا شقيقتاي ولا شهرزاد ولا بناتي. هل أعرف بناتي؟ كأنني أعرف، وكأنني لا أعرف. أتأمل مدى تعلقي بشهرزاد الصغيرة، أقول ستكبر وتصبح امرأة لا أفهمها، أجلس معها ولا أعرف أي كلام يتعين علينا أن نتبادله، يحدث ذلك أحيانا حين يداهمني الخوف، الخوف من لا شيء ومن كل شيء. الحياة موحشة. الأمهات يمتن مبكرا حتى إن امتد بهن العمر للثمانين. دائما يذهبن قبل الأوان. احتفظت أمي بالغمازتين في وجنتيها وبضحكتها إلى أن رحلت. أحب ضحكتها والغمازتين، أستعيدها. الشوارع تغص بالناس، ولي دفتر كبير ثبت فيه صفحات إضافية، تمر عيناي ببطء على الأسماء وأرقام الهواتف، أقلب الصفحة. ليست موحشة إلى هذا الحد. أرتدي ملابسي وأذهب إلى ابنتي لأرى شهرزاد، أو استرجع صورتها وهي طفلة تتعلم المشي والكلام، أو وهي أكبر قليلا تدهشني استجاباتها.

كانت في الرابعة. رسمتُ لها عصفورا. سألت:

- هل يطير؟

قلت:

- الآن سيطير، وأنا أيضا سينبت لي جناحان وأطير معه.

قالت:

- غلط!

تطلعت إليها:

- ما الغلط؟!

قالت:

- غلط تطير. يعني لو كل الناس طارت وهي جسمها كبير وتقيل، السما تبقى ضلمة مش زرقا، لا نشوف الشمس الصبح، ولا نشوف القمر بالليل، وكمان النجوم تبقى مخنوقة من الزحمة والدوشة! أحسن لك ياجدي تفضل ماشي على رجليك وتسيب السما للعصافير، حتى العصافير بتطير شوية، وتنزل على الأرض شوية، عشان تشوف السما زرقا من بعيد.

حملتها وضحكت، تتطلعت لي، قالت: «بتضحك ليه؟ أنا باتكلم جدا!» وتقصَّدت نظرة صارمة، فضحكت أكثر.

أخذت شهرزاد من جدتها الاسم والعينين الدعجاوين والشعر المموج الأسود الكثيف، ولكنها حادة الذكاء، يمتعني التواصل معها. أحيانا يبدو لي أنها تركض وأنني أحاول اللحاق بها ثم أنتحي جانبا من الطريق وأجلس مقطّع الأنفاس. أنتظر زيارتها الأسبوعية، أعد الأيام. ربما كانت هي أيضا تستمتع بالحديث بيننا فهي لا تتخلف عن المجيء مساء كل خميس، نقضي سهرتنا معا، نشترك في إعداد العشاء، ننساه على النار أو نسرف في تمليحه أو نتفوق في صنعه ونحمله في الأطباق

بزهو منتصر. أحيانا آخذها للمشي في شوارع نصف البلد، أحكي لها عنها وعن المباني، تواريخها وطرز معمارها، وهي تنصت وتسأل فأشعر أنها مهتمة فأفصِّل الكلام. تحكي لي عن المدرسة، والآن وقد التحقت منذ شهور بالجامعة تحكي عن الجامعة. تقول وهي نبتسم:

- أمشي في نفس الشارع الذي مشيت فيه يا جدي، من تمثال نهضة مصر إلى النصب التذكاري ومنه إلى داخل الجامعة.

- صف النخيل فيما وراء السور...

- شاخ النخل، طال جذعه وخف سعفه.

- والساعة؟

- تدق بانتظام!

- والبوابة؟

- لا يُسمح لأحد منا بالمرور من البوابتين الكبيرتين فهما إما مغلقتان أو واحدة مغلقة والثانية نصف مفتوحة لمرور سيارات الأساتذة، لا يسمح لنا بالدخول إلا بإبراز بطاقة الجامعة، ندخل من البوابة الصغرى جهة اليمين، ونخرج من البوابة الصغرى جهة اليسار.

- ومن أين تشترون التذاكر؟

تضحك:

- نجدد الاشتراك سنويا!

أنتظر أن تحكي لي شهرزاد تفصيلا عن الجامعة، لا تعرفها بعد، شهران لا يكفيان. أنتظر أن أضاهي صورتها بالصورة التي نقلها لي محمود. قاتمة، لا أفهمها تماما، ولا أرغب في فهمها.

فاجأني:

- ما رأيك في حذائي؟

استغربت السؤال، نظرت إلى الحذاء، وجدته نظيفا أعتنى

بتلميعه. تطلعت إليه متسائلا، ضحك، قال:

- هذا حذاء لا يرفع الرأس، ولا يطيل الرقبة، ولا يرقّق قلب بنت على ولد مشتاق!

- لا أفهم!

- الحذاء بين الشباب، في الجامعة، يحدد موقعك من السلم، كأنه شقة على النيل، أو سيارة أمريكية فارهة أو بطاقة رجل مهم عليها أرقام الفاكسات، والتليفونات العادية والمحمولة، والبريد الإلكتروني.

- مزاحك ثقيل يا محمود!

- والله لا أمزح، ألخص بشكل دال، هذا كل ما في الأمر. الأولاد الأفقر، الريفيون وأمثالي من أبناء المدينة يرتدون أحذية جلدية بأربطة، قد يعتنون بتلميعها، وقد تبدو للعين غير المدربة حذاء محترما، ولكن ما ترسله من إشارات مهما كان الحذاء نظيفا لا يقارن بإشارات الأديداس والنايك والريبوك حتى ولو كانت مهملة ومتسخة، لأن من يرتديها يرتدي قطعة من أمريكا وأوروبا في قدميه، ويملك أن يهمل ما اشتراه بما يساوي دخل أسرة كأسرتنا في ثلاثة أشهر، فليس في النهاية سوى حذاء، ومنظره المهمل أَمْرَكَة وأَنْتَكَة ومَمْلَكَة، ومعناه انك «كاجويل» ومستعد تأكل كشري في محل صغير في بين السرايات يصيبك بمغص وإسهال، فتوبخك الست الوالدة وتقول لك: هذه نتيجة أكل الزبالة!

- من تشتريك أو تبيعك من أجل حذاء لا تساوي الانشغال بها، لا تليق بك!

- يا رجل يا طيب! لم أتعلق ببنت لم يعجبها حذائي، أحكي لك عن الجامعة والبلد من وراء الجامعة. دار العلوم لصق إعلام، واقتصاد وعلوم سياسية بجوار علوم، وحقوق فرنساوي في حقوق عربي، وتجارة باللغات في تجارة بالعربي، وبنات الناس في البُدي والجينز،

والغلابة تلبس حجاب، والكبت عند الأولاد يفرّع حنظل وزقّوم، والدنيا كأنها. . .

قاطعته:

- يكفي يا محمود، ليست الصورة قاتمة إلى هذا الحد، الفروق كانت دائما هناك، لا جديد في ذلك.

- بلى، هناك جديد، القيمة غائبة تبحث عنها كإبرة في أكوام قش! طلبت مني كتابات بعض أبناء جيلي، لم أفرضها عليك، أنت طلبت وأنا لبّيت طلبك. غضبت، لماذا غضبت؟!

- تقدم واقعا قاتما ومحبطا ومنغلقا على ذاته، لا تتجاوز مشاغل من فيه جدران حجرته.

- أفهم أن تكون ساخطا على هذا الواقع لكن لا أفهم أن تنكره، لا أحب سلوك النعام يا خال!

- لا تقل سلوك النعام، هذه وقاحة!

- لم أقصد الإساءة، ولكني لم أفهم لماذا غضبت!

- لأن الأولاد مرضى، والكتابة مريضة، حيزها خانق، يختزل الدنيا الواسعة، ويطليها بلون داكن كئيب!

- الواقع مريض وهم يسجلونه! في مجتمع منحط تتوارى فيه القيم، يختزل الإنسان مسعاه إلى تلبية غرائزه بأكثر الأشكال عنفا وفجاجة. هذا واقع، لا تريد أن تعترف به، لا تريد أن تراه! تعيش في دنيا غير الدنيا، تشغلك عمارات وسط البلد ومشروع قطعة من أوروبا، هذا مشروع قديم وفشل وانتهينا، أمريكا قطعة من أوروبا تحمل بذرتها وتواصل فكرتها، إسرائيل بنت بطنهما والثلاثة يفتحون علينا النار، أوافقك، لكن ما الذي فعلناه نحن في أنفسنا، ما الذي نفعله؟ آسف لا تطالبني بأن أغني «مصر التي في خاطري وفي دمي»، و«لبيك يا علم

العروبة» وأنا أسكن فوق السطح ولا أملك، وقد تخرجت بامتياز، التفكير، مجرد التفكير، في الانتقال من السطح واستئجار شقة من حجرتين أتزوج فيها. وربما قبلت بالسطح لو كان المشهد الذي أطل عليه يرد الروح، المشهد خانق وضاغط ومربك ومخيف، باختصار مزبلة ومرتع حشرات.

- ومع ذلك كله، لم تبع نفسك ولم تنزلق إلى السرقة والفساد، لماذا؟

ضحك بمرارة:

- هذا عيب خِلقي، ورثته عن الوالد رحمه الله. باختصار، يا رجل يا طيب، وكما تقول أم كلثوم: «عزة نفسي منعاني»، ومع كل ذلك لا أضمن نفسي!

علاِ صوتي، صحت فيه:

- ماذا تقصد بلا أضمن نفسي؟!

- أقول كلاما واضحا: لا أضمن نفسي، لأن أحدا لم يعد يضمن نفسه. تصبح على خير يا رجل يا طيب!

تركني أغلي سخطا، لماذا يسعى إلى تجريدي من كل شيء، ما الذي تريده يا ولد، حرماني من المعنى؟ من الأمل؟ أبو العلاء أرحم بي منك ومن كتابُك المهووسين بأجسادهم على مدى ساعات الليل والنهار، ثم أن أسلوبهم رديء يخطئون في الصرف والنحو، وينقضون على لغتنا الجميلة كالجراد يريدون القضاء عليها!

أراد أن يعد لنفسه عشاء، أخرج بيضتين من الثلاجة، سقطتا منه وسال صفارهما وبياضهما على الأرض. أراد أن يصنع لنفسه قهوة، فارت منه. ترك كل شيء على حاله وأمسك بكسرة خبز وأنتقل إلى حجرة الجلوس ليشاهد نشرة الأخبار.

الفصل العاشر

كتب الناظر:

«خلّف وراءه اسما يرتبط ارتباطا وثيقا بمصر والقاهرة، كأن صاحبه بنى هرما. وربما كان اسمه مألوفا للسائح الإنجليزي العادي أكثر من اسمي خوفو وخفرع.»

هذا ما كتبه القنصل الأمريكي في مصر عن صمويل شبرد صاحب الفندق الأوروبي الأكبر والأشهر في القاهرة في منتصف القرن التاسع عشر. ورغم أن شبرد باع الفندق وعاد إلى موطنه حيث وافاه الأجل وطواه التراب إلا أن الفندق احتفظ باسمه إلى أن هدم واستبدل به فندق آخر أحدث وأكثر بذخا دمره الحريق في يناير 1952، فاستبدل به شبرد ثالث على ضفاف النيل هو القائم حاليا.

لم يذكر القنصل الأمريكي شيئا عن الفندقين اللاحقين إذ صدر كتابه عام 1890 قبل إنشاء أي منهما ولكنه قدم وصفا لصمويل شبرد. كتب: «كان قصيرا، مفتول العضلات، قوي البنية، يبدو إنجليزيا نموذجيا في مظهره وسلوكه، وكان مستقل الرأي، فظا إلى حد الوقاحة أو ما يتجاوزها، لا يحترم أحدا ولا يرهبه مركز، رغم ذلك كان يتسم بالصدق ويخفي قلبا من ذهب. . .» أما كلب شبرد فهو «بولدوج

بريطاني أصيل، لونه أبيض مترب، له سمات سيده، أنف أفطس وفك سفلي بارز، علامتان مميزتان على نقاء السلالة.» كلب عدواني يطارد الكلاب الأصغر ويشتبك معها ويصيبها إصابات بالغة تودي في يعض الأحيان بحياتها. ثم فقد الكلب عدوانيته إذ «تدهور حاله تدريجيا وخمدت همته... وصار يدمن النوم بشكل متزايد وتقل رغبته في العراك.» ينهي القنصل وصفه للكلب قائلا: بقيت ذكرى الكلب حيةً في عبارة «كلب شبرد» التي صارت كنية أي أوروبي تنحط معنوياته ويصيبه الخمول من جراء طقس مصر وإقامته الطويلة فيها.»

لم يتأثر صمويل شبرد كما تأثر كلبه بإقامته الطويلة في مصر، وهو ما تؤكده رسالة بخط يده وجّهها لأحد أصدقائه في إنجلترا. قال:

«أكره القانون وفي كل الحالات أحاول ما أمكن تجنّبه. وفي المؤسسة التي أديرها أضطلع بنفسي بتنفيذه، وويل لمن يقع تحت طائلته، فعادة ما يكون وقعه ثقيلا. أتعامل مع أوغاد وحمقى سيئين، إن لم أستخدم معهم من حين لآخر قانون الهراوة أعتقد أنهم سيستخدمونه ضدي. ولكن عليك أن تعرف أن القانون لا يسمح بذلك، ولهذا فإنني حين أضرب رجلا... أضربه ضربا مبرِّحا. وما دامت القنصلية تفرض الغرامة نفسها إن كان الضرب مبرِّحا أو لم يكن، أحب أن أحصل على مقابل ما أدفعه من مال.

تصور الفريق الذي يتعين علي التعامل معه: رئيس الطهاة فرنسي، المشرف على تقديم الطعام مجري، مساعده يوناني، الثالث بربري [يقصد نوبي]، رئيس الحوذيين إنجليزي، معاونه حبشي، الخدم بَرابْرة [نوبيون]، ويقوم بغسل الصحون وما شابه من أعمال، عرب.»

أقتبس هذه الرسالة وكلام القنصل الأمريكي من كتاب مايكل بِرد عن شبرد. والحق أنني سعيت طويلا للحصول على الكتاب إلى أن اهتديت أخيرا لوجوده في إحدى المكتبات العامة. خيب الكتاب ظني،

إذ امتدت فترة بحثي عنه مما وفر الوقت والحيز لأمنّي نفسي بكتاب ضخم يحكي لي تفصيلا عن مائة عام من حياة الفندق، وإن كانت موزّعة على موقعين، موقعه القديم المطل على الأزبكية عندما كان اسمه نيو بْرِتِش هوتيل وكنيته شبرد نسبة إلى مديره النشط، وموقعه التالي قي شارع إبراهيم باشا، الجمهورية حاليا. وأسرف خيالي في توقعاته وبدا لي أنني سأجد في الكتاب تفاصيل وطرائف كتلك التي استوقفتني في كتاب «توجهات» لرونالد ستورز الذي كان موظفا في الإدارة البريطانية في مصر قي العقدين الأولين من القرن العشرين ثم انتقل إلى فلسطين ليصبح أول حاكم عسكري للقدس بعد احتلال القوات البريطانية لها في ديسمبر 1917. يحكي ستورز عن هاري بُويْل السكرتير الشرقي في القاهرة أيام اللورد كرومر. (السكرتير الشرقي، يقول ستورز، يعمل في الظل، من مهام منصبه الاستخبارات العسكرية وغير العسكرية، عينان وأذنان تنقل ما يدور في مصر للخارجية البريطانية وتشرحه وتفسره). لم يكن مظهر بُويْل يشي بأهميته ولا معارفه الواسعة: معطف قديم، بنطلون مرتخ مترهل، وقبعة مجعدة، وحذاء يبدو مستعارا من القرون الوسطى. كان بُويْل يجلس في شرفة شبرد، يتناول الشاي عندما تقدم منه شخص لا يعرفه، وبادره بالسؤال: سيدي، هل أنت قوّاد الفندق؟ أجاب السكرتير الشرقي دون توقف ولا انفعال: نعم يا سيدي، ولكن الإدارة تسمح لي، وهذا كرم منها، براحة من الخامسة إلى السادسة، لتناول الشاي. إن كنت مضغوطا وفي عجلة من أمرك، عليك أن تسأل ذلك السيد،» وأشار إلى اللورد ليبتون، «فهو يقوم نيابة عني بذلك. ستجده على أتم استعداد لتقديم أية خدمات صغيرة ذات طبيعة تقتضي الكتمان قد تود إسنادها إليه.» دفع بُويْل حساب الشاي وانسحب بهدوء ليستقل سيارة أجرة، وسمع، وهو يغادر الفندق، الجلبة وصوت لكمة وسقوط جسد ثقيل على الأرض الرخامية.

لم أجد في الكتاب وقائع من هذا النوع ولا إشارة ولو عابرة عن الأجيال المتتالية من قوادي الفندق ومؤهلاتهم، وإذا ما كانوا أجانب أم من أهل البلد، ولم أجد أية تفاصيل عن المترددين على الفندق من القادة والجنرالات والكتاب والجواسيس الذين أعرف أنهم أقاموا فيه في فترات مختلفة. كنت أطمع أن أجد شيئا عن إقامة هرتزل في الفندق إبان زيارته لمصر عام 1903، أو عن العسكريين الذين نزلوا فيه للمشاركة في اجتماعات شرشل التي عقدها في القاهرة ما إن انتهت الحرب العالمية الأولى، أو بعض تفاصيل المشهد في الفندق عام 1942 وهو يكتظ بقادة جيوش الحلفاء ورومل على الأبواب والإشاعات تتردد أنه أرسل عبر الإذاعة طلبا لحجز جناح لإقامته فيه. (قرأت في مكان ما أن ضابطا إنجليزيا شابا على سبيل التفكه، سأل أحد موظفي الاستقبال بالفندق: «هل وصل الهر رومل؟» نظر الموظف في دفتره ثم أجاب: «لا يا سيدي لم يصل بعد!» قال الضابط مدّعيا الجدية: «إنه على وشك الوصول!») لم أجد شيئا من هذا القبيل فالكتاب، كما اكتشفت وأنا جالس أتصفحه في قاعة الاطلاع بالمكتبة لم يكن سوى صورة قلمية كتبها بِرد حفيد شبرد عام 1957 وأرادها تحية من نوع ما لجده. للوهلة الأولى شعرت بخيبة أمل ما دام الفندق وليس الرجل هو ما أسعى لمعرفة المزيد عنه. ورغم ذلك وجدت في الفصل الثالث بعض ما يهمني من التفاصيل، منها وصف القنصل الأمريكي لشبرد وكلبه الذي أوردته، ومنها الرسالة التي اقتبستها أعلاه، ورسالة أخرى استوقفتني كتبها شبرد في نوفمبر عام 1849 يقول فيها: «لا بد أن أخبركم أن صاحب السمو عباس باشا منحني مدرسة فسيحة لأبني في موقعها فندقا. . . وكان الباشا توقف في استراحة من الاستراحات التي أديرها في الصحراء، وسر سرورا بالغا من ترتيبات استقباله، وأعجب بسرعة كلبين من كلاب الصيد أملكهما وقد رآهما يقتفيان الغزلان في

الصيد. الكلبان بس وبنت سأهديهما إليه (. . .) عرفانا لما أظهره لي من كرم. إنه يحب تلك الأشياء.»

ويعلق الحفيد: «يبدو أن البقشيش (يكتب الكلمة بالحروف اللاتينية) الذي قدمه شبرد للباشا (يقصد الكلبين) بدا مقبولا إذ إن الباشا سلم شبرد المبنى الضخم الكائن في الأزبكية والذي كان في السابق مقر مدرسة الألسن التي أنشأها محمد علي، ليقيم عليها فندقه الجديد بل أعرب عن استعداده للمشاركة في التكاليف.»

ورغم أن سعيد حاكم مصر منح شبرد أرض مقر مدرسة الألسن وكانت في السابق مقرا لكليبر قائد الحملة الفرنسية ومسرح اغتياله على يد سليمان الحلبي، أي منحه أرضا وتاريخا في آن واحد إلا أن بِرد متأثرا على ما يبدو بالرسوم الشائعة في زمانه لفندق شبرد اللاحق والتي يظهر المصريون فيها دائما في صورة ترجمان يقف بباب الفندق يفرك يديه في انتظار البقشيش، لم يستطع أن يرى في منحة الكلبين سوى بقشيش تكرّم به جده على سعيد باشا!

نترك شبرد وحفيده لنعود إلى الفندق: ازدهر واتسعت أشغاله، وتعاقد شبرد مع مراكب تحمل الزائرين إلى الصعيد لرؤية آثار مصر القديمة. لم يمتد به العمر ليرى الفندق الآخر الأحدث والأكبر والأكثر بذخا وشهرة والذي ارتاده جيلان من الجنود البريطانيين والنخبة الحاكمة الأوروبية والمصرية أيضا، ولا عرف بالتنسيق بين الفندق وشركة كوكس. ولو أردنا على سبيل اللعب وإعمال الخيال أن نقفز مائة عام للأمام فسنشهد لقاء غريبا وطريفا يجمع بين جياكومو جروبي، وشارل بهلر وصمويل شبرد، أرواحِ ثلاثة مستقرة أو هائمة في ملكوت الله تجتمع على همها المشترك بعد الحريق في يناير 1952. بإمكاننا تخيل الإيطالي والسويسري يخبران الإنجليزي بما حل بمنشآتهم وهو يكذّبهما ويؤكد لهما أنهما مخطئان لأن فندقه لا يقع في المكان الذي

يصفانه بل في الأزبكية بعيدا عن موقع الحريق، وأنه لا وجود لشركة سياحية باسم كوكس لها مكاتب في فندقه، وليس لديه أدنى معرفة بذلك السويسري المتحدث بالفرنسية الذي يدّعي أنه مدير الفندق، وأنهما لا بد يتحدثان عن بلد غير مصر!

دونت ملحوظاتي الهزلية والجادة في دفتر مسوداتي، أغلقته استعدادا لمغادرة المكتبة ثم عنّ لي أن أبحث مرة أخرى في الفهارس. لم ينقض وقت طويل بين معرفتي بوجود الكتاب وحصولي عليه وما يترتب على ذلك من شطح الخيال والتوقع. بعد دقائق كان الكتاب بين يدي. عنوانه «فندق شبرد». إذن عين المراد! مرة أخرى خيب الكتاب ظني فالسيدة مؤلفة الكتاب، وهي ليست كاتبة محترفة على ما أظن، أرجح أنها مسنّة، وجدت في مشروع الكتابة أداة لإشباع هوايتها في الثرثرة، تنقل ما تظنه طرائف ونوادر يميزها جميعا غياب المعنى، فضلا عن أخطاء كثيرة في التواريخ، وخلط بين الأماكن، وجهل بالحكاية يحملها إلى تفسيرات عجيبة، ربما كان أعجبها ما يرد في فقرتين من الفصل الثامن. تقول السيدة نينا نلسون وهذا اسمها:

«للأسماء ومعانيها أهمية خاصة لدى المصريين. ضمن إجراءات الحرب قررت بريطانيا أن تصبح مصر محمية "Protectorate". ولم يكن ذلك يعني فعليا أي فارق سوى أن تصبح وزارة الخارجية تابعة مباشرة للمندوب السامي (البريطاني) ولكن المقابل العربي لكلمة "Protectorate" هو «حماية» وترتبط هذه الكلمة للأسف بالمهانة مما تسبب في إثارة المشاعر!

كذلك أصبح اسم الجنرال آللنبي بالعربية «الله-نبي» أي نبي الله- وعندما ظهر توقيعه على البيانات العامة التي تدعو للتطوع في فرق عسكرية كفرقة الهجّانة سارع الفلاحون لتسجيل أسمائهم.»

استدرجتني هذه الفقرة وفقرات مماثلة لتصفح الكتاب كله وقراءة

بعض فصوله، من باب «الفرجة» على أسلوب تفكير لافت ما دام موضوع التفكير هو نحن. ورغم ذلك وجدت في الكتاب على رداءته بعض ما يفيدني، منها مثلا معرفتي أن عبد الناصر افتتح المقر الجديد لفندق شبرد عام 1957. تُضَمِّن المؤلفة صورة له في حفل الافتتاح، وأن حكومة الثورة أصدرت طابع بريد تذكاري يحمل صورة الفندق المطل على شاطئ النيل بهذه المناسبة. كما وجدت وصفا للمشهد داخل الفندق في أول احتفال بليلة عيد ميلاد أعقب نهاية الحرب العالمية الأولى: أسرف الضباط الإنجليز في الشراب فراحوا يقفون على موائد الطعام. يعترض المدير فيقوم بعضهم بلفه في سجادة ووضعه جانبا في زاوية المطعم. وفي القاعة الشرقية يشارك مائتان من الضبّاط المخمورين في مباراة كرة قدم حول شجرة عيد الميلاد وقد استبدلوا بالكرة قبعة رجل شرطة، ثم بدأ بعضهم في تسلق الشجرة وكانت عالية، ولكنها اهتزت ومالت وسقطت بين لا عبي الكرة. أما سلم الفندق فكان ملعبا لمعركة من نوع آخر بين ممثلي مختلف الفرق العسكرية، وشكلت النساء خطوط الإمداد بالإغارة على الغرف وتزويد الرجال في صفوف القتال بالوسائد، وهي السلاح المعتمد في المعركة. عند الفجر، تقول السيدة نينا نلسون، غادر الجميع. وقام العاملون في الفندق بهمة ونشاط بعملهم، في الصباح حين نزل الرواد لتناول الإفطار أو الجلوس في القاعة الشرقية كانت كل آثار الليلة الماضية اختفت. وعلينا أن نعترف أن السيد شبرد المؤسس خلّف تقاليد راسخة، وأحسن تدريب العرب و«البرابْرة» في تعبيره ورؤسائهم من الوافدين بما يجعل ممكنا إزالة آثار الشراب وندف القطن، والشجرة المكسرة في ساعات معدودة من الخامسة فجرا إلى الثامنة صباحا، كأن شيئا لم يكن!

***

لم تفهم شهرزاد لماذا قلت لا أريد هذا الفندق. قلت بإمكانها أن تفهم. اتصلت ببنت من بناتي وطلبت منها أن تمر علي في طريق عودتها من العمل. قلت لها أريد منك أن توصلي رسالة مني إلى أمك. أعطيت الأوراق التي كتبتها عن شبرد لأم عبد لله وطلبت منها أن تنزل إلى المكتبة المجاورة وتصورها لي. أتت ابنتي، أعطيتها المظروف المغلق على الأوراق المصورة بعد أن كتبت عليه اسم أمها مسبوقا بعبارة السيدة الكريمة. قالت متسائلة بابتسامة لا تخلو من مكر: «رسالة غرامية يا أبي؟!» لم ابتسم. أخذت الرسالة وانصرفت.

لم أظلم زوجتي. أحيانا أتشكك في نفسي ثم تأتي الواقعة الجديدة لتعزز قناعتي بأنها غبية، أكثر غباء من أن يحتمل رجل عاقل. اتصلت بي. قبل أن تشير إلى الرسالة، قبل أن تقول إنها قرأتها عرفتُ أن لا فائدة. في الصوت نبرة استخفاف أو سخرية. قالت:

- شكرا أنك أشركتني في جزء من كتابك. فهمت أنك أرسلت لي هذا الجزء لكي نعدل عن فكرتنا بعقد الزفاف في شبرد. اطمئن، غيّرنا رأينا. البنات يحرصن دائما على تلبية رغباتك، العريس أيضا أعترض على شبرد. قال شبرد لا يليق، هناك فنادق أفخم. استقر الرأي على الماريوت.

- الفندق الفرنسي في جاردن سيتي؟

- تتحدث عن الميريديان، وأعني الماريوت في الزمالك. قصر لطف الله.

- قصر الإمبراطورة؟

- أية إمبراطورة؟

لم أجب على سؤالها. سألتني عن صحتي وحيتني وانتهت المكالمة.

***

أنزلته سيارة الأجرة أمام باب الفندق. لم يتوقف لينظر في أقواس المدخل وتفاصيل الحديد المشغول. دلف إلى داخل الفندق وتوجه مباشرة إلى القاعة المعينة للحفل. وقف بجوار شهرزاد ووالد العريس ووالدته لاستقبال الضيوف. قالت له شهرزاد

– استعد!

تطلع إليها متسائلا، قالت:

– الزفة

– لا أفهم!

– هل نسيت؟ عليك أن تشارك في الزفة، تتأبط ذراع ابنتك وتمشي معها في الزفة ثم تسلمها للعريس.

– لا أطيق الزفة ولا العريس، ثم أن ابنتي ليست سلعة، اختارته وانتهينا، ما معنى أن أسلّمها له؟!

– يا إلهي، يا إلهي، دائما ما يأتي جنونك في الوقت الخطأ!

انتحى جانبا من القاعة وجلس. أغفى قليلا على ما يبدو، ثم جفل منتبها على جلبة مفاجئة. كان الموسيقيون بدأوا عزفهم ثم رافقهم مغنٍ له شعر مستعار. بحث عن شهرزاد. همس في أذنها: «سأذهب إلى المقهى، بإمكانك أن تناديني قبل نهاية الحفل بقليل»، قالت: «حاضر يا جدي»، ضحك وقبلها. بدت له كورقة مغمضة تتفتح فتكشف ببطء عن لونها الممزوج بأصفر الشمس، تفصح عن أخضرها البهي في محيط من الأوراق القديمة الداكنة. بلسم شهرزاد، الأدق، نسمة هواء في مكان خانق. الملابس والحلي والأصباغ، والحزام القماشي العريض الذي يلفه العريس على خصره، وباروكة المغني، وآنِيَتَا الزرع على رأسي شقيقتيّ وصخب الموسيقى، كلها تثقل صدري، كأنني حشرت في مخزن مسرح قديم أختنق فيه بالهواء الفاسد

والغبار والملابس القديمة والأدوات الزائدة عن الحاجة.

هرب إلى المقهى.

توقف أمام الصورتين. لوحتان زيتيتان كبيرتان بنفس الحجم. صورة الإمبراطورة، وصورة للإمبراطور، تحكمهما فكرة واحدة، وأسلوب واحد في التشكيل والتلوين. ربما أراد المصور، أو كلّفه القصر، بأن تكوّن اللوحتان وحدة واحدة ليتم تعليقهما معا متجاورتين على نفس الحائط. الإمبراطورة في ثوب أبيض فضفاض، على رأسها تاج من ماس، وإلى يمينها، على طاولة صغيرة بارتفاع اليد، تاج آخر من الذهب المرصع بالجواهر مستقر على وسادة مخملية حمراء. تاج مشابه، أكبر، في الصورة المجاورة، إلى يمين الإمبراطور، على وسادة فوق مائدة. يظهر الإمبراطور في الصورة كاشف الرأس، شعره الأشقر مفروق من الجهة اليسرى. شاربه كث يمتد طرفاه المبرومان بعرض وجه مستطيل. جسده ممشوق، على صدره وشاح تزينه الأوسمة، سرواله مشدود على ساقيه، حذاؤه جلدي يصل إلى ما قبل الركبتين. السيف في يساره، و في يمينه الصولجان.

تجاوزهما إلى عمق المقهى. جلس. فك ربطة العنق. تنفس. قال: لا فائدة. طلب كوبا من القهوة. أحتاج اليقظة لأودّع الضيوف بما يرضي زوجتي، وابنتي والعريس. أحتاجها أكثر بعد عودتي إلى البيت لأنني أريد أن أصف العرس، نعم، الليلة وليس غدا، لا أريد أن أغفل شيئا من مشاعري وأفكاري وما رأته عيناي من تفاصيل وأنا أنظر إلى عرس ابنتي في قصر إسماعيل، حتى نظرة شهرزاد التي رمقتني بها ما إن رأتني، أريد تسجيلها. لم تقل لماذا هذه البدلة؟ ولماذا ربطة العنق هذه؟ لماذا هذا الحذاء؟ لماذا أنت أنت؟ لم تقل، رمقتني فنقلت بالنظرة كل الكلام. أريد أن أكتب عن نظرة شهرزاد، والولد الذي أخذ أصغر البنات. أي ولد؟ رجل تجاوز الأربعين سيصعب علي وصفه لأن

ملامحه تختلط تماما بنفوري منه. لا أراه ولا أريد أن أراه. لا بد أن أحاول. رحم الله أبا الطيب، لم أذهب مثله إلى شعب بوّان، لم أذهب إلا من القاهرة إلى القاهرة، ومن بيتي إلى عرس ابنتي. أخي لم يصحبني إلى الحفل. الشهداء لا يشاركون في أعراس الفنادق. ينفرون من الصخب، ثم إن أحدا لا يرسل لهم ببطاقة دعوة. ماذا أصاب شقيقتي؟! زيَّنتا حجاب الرأس بحلي وزهور من قماش فبدت كل منهما كأنها تحمل آنية زرع على رأسها، تكمل ألوانها بما صبغت به وجهها من مساحيق. لماذا سمنتا إلى هذا الحد؟ لماذا ارتديتا ملابس محبوكة تظهرهما أكثر سُمنة؟ لماذا رقصتا ما دامتا اختارتا الحجاب لستر الجسد، ونسيتا كيف يفرح الناس، كيف تطرب روحهم قبل أن يتمايل الجسد أو يهتز؟ تمتم الناظر: حفظ الموت لأخي جمال طلعته، وأفسدت الحياة شكل شقيقتيّ، غريب!

تطلع إلى سقف القاعة. تأمل تعاشيق الخشب ومنمنماته المطلية بالأحمر والأزرق والمذهَّب، تشبُّهاً بقصور الأندلس.

أخرج من جيبه قلما ودفتر مسوداته الصغير. كتب: قصر الجزيرة. صممه لإسماعيل المعماريان الألمانيان: كارل فيلهالم فالنتين دييبتش وجوليوس فرانز. أنتهيا من بناء القصر عام 1867. سطر جديد، كتب: 1967. لا يتطلب الأمر سوى تغيير رقم واحد. سطر جديد: تقفز مائة عام وتُثَبِّت النظر على القصر الذي تحتفل بعرس ابنتك فيه.

كتب:

في حديقة القصر أقام إسماعيل حفلا راقصا كبيرا دعا له ألفا من الضيوف عام 1876؟ الضيوف، عام 1876 أم بعد ذلك، وفي أية مناسبة؟ المحروسة لا ترد بخاطر إسماعيل، لا يرى نفسه على متنها راحلا عبر البحر إلى منفاه، لا يرى جيوش الحورية في الغيب، ولا القصر مصادرا من قبل سلطتها، تحوله إلى فندق. يشتريه السيد بهلر،

لا يعرف إسماعيل بهلر. لا يفكر فيما لا يعرفه. صندوق الدين، يعرفه. ربما مرت فكرته برأسه. يطردها. ما لنا وماله؟! الحفل قائم في القصر، يتلألأ النور فيه، تصدح الموسيقى، يتدفق الماء من فم السباع الأربعة في نافورة الرخام، ومن فم البطتين في النافورة المذهّبة. آلهة اليونان في داخل القصر وفي البستان، تضيء الحفل في صمت يليق بأرواح آلهة تأبّدت في الرخام. البهجة تشعشع في النفوس. لا مكان للصندوق. إنه هناك فيما وراء النهر. مكاتبه مغلقة. أضواؤه مطفأة. كأنه لا شيء. ابتسم إسماعيل.

بدا له المقهى خانقا. غادر إلى الحديقة. لم يتأمل الأعمدة الدقيقة المزدوجة ولا الأقواس ولا شغل الحديد في الشرفات، لم يتوقف عند التماثيل، لم يتطلع إلى البرجين الناتئين اللذين أضافت بهما الشركة المالكة للفندق عدد الغرف والأسرة. مشى في ممرات الحديقة إلى أن شعر بإرهاق عظيم. عاد إلى المقهى. جلس وأغفى.

انتبه على صوت شهرزاد: «جدي، جدتي تسأل عنك. تريدك أن تكون معها لتوديع الضيوف.» صعد معها الدرج وهو يستند إلى ذراعها. لم ير هذه اللوحات من قبل. لوحتان إلى يساره وراء واجهة زجاجية تحفظ الحلوى التي يقدمونها في ذلك المقهى الصغير في مدخل الفندق. «انتظري يا شهرزاد!» وقفا معا يتأملان اللوحتين، الأولى حول مائدة الطعام، والثانية في بهو من أبهاء القصر، في اللوحتين الخديوي وضيوفه أثناء الاحتفالات بافتتاح القنال. في الجانب الآخر من البهو لوحتان أخريان بنفس الحجم يشكلان خلفية لمقاعد متناثرة يستخدمها رواد الفندق. اللوحة الأقرب إلى المدخل تصور ثلاث منصات مسقوفة كالخيمة، بالقماش. منصة الخديوي وزواره الكبار إلى يمين اللوحة. في الصدارة منصة تحمل شعار الصليب يقف عليها الأساقفة والمُتَنَفِّذون من رجال الدين الأجانب. في جانبها الأيسر

منصة ثالثة لرجال الدين المسلمين، مشايخ معممين في الجبة والقفطان. في أسفل اللوحة حشد من البشر، مدعوون أقل شأنا على ما يبدو أو مجرد نظّارة جاءوا للفرجة، رجال في حلل إفرنجية على رؤوسهم قبعات أو طرابيش، ومعممون يرتدون الجلاليب، ونساء بقبعات يرفعن مظلات تحمي رءوسهن من حرارة الشمس. أمامهم حاجز من رجال الشرطة. الكل يتطلع إلى الأعلى باتجاه المنصات، لا نرى منهم سوى ظهورهم أو جانبا من الوجوه، وحماران وديعان اعتنى المصور بتفصيل ملامحهما.

ثم اللوحة الأخيرة: عربات تجرها خيول راكضة، لكل عربة زوج من الخيول البنية. في المقدمة عربة يجرها بدلا من زوج الخيول زوجان، فيها رجل وامرأة، الإمبراطور والإمبراطورة على الأرجح، وفي المؤخرة الخديوي يركب عربة بمفرده، يجرها حصانان أشهبان. قلت: «رحلة صيد، أو نزهة عند الأهرام؟» قالت شهرزاد: «لا يا جدي، إنهم بالقرب من القنال. أنظر هذه التلّة العالية في خلفية الصورة، ظننتها الأهرام، وتعجبت من تصويرها كأنها كومة من ركام. ليست الأهرام، إنها من مخلّفات الحفر، ربما أراد المصور أن يشير إلى قدر الجهد المبذول في الحفر.»

في القاعة رمقتني شهرزاد بنظرة ترجمتها بأن غيابي طال بما لا يليق. ودعت معها المتبقي من الضيوف، ثم ودعت ابنتي، قلت: «لماذا لم تلبسي تاجا؟» قاطعني العريس، قال: «اقترحت تاجا مرصعا بالأحجار الكريمة، لكنها اختارت هذا الإكليل البسيط فتركتها تفعل ما تشاء!»

الفصل الحادي عشر

زارني في الأسبوع الأخير من سبتمبر عام 1982، لم أتعرف عليه. ذكّرني فتذكرت. قال إنه جاء ليعزيني في أخي. سألني عن أمي وأبي وشقيقتيّ. قال إنه يقيم في باريس وإنها المرة الأولى التي يزور فيها القاهرة منذ رحيله عام 1962، لم أجد ما أقوله. لمس برودة الاستقبال وتحفظي فاختصر الزيارة والكلام وغادر.

قمت لأعد لنفسي قهوة. فارت مني ثلاث مرات. حاولت مرة أخيرة، حرصت على الإمساك بقبضة الغلاّية، لم أحوّل عينيّ عنها، لم يحل ذلك دون تكرار انسكابها. ألقيت بها بِغِلّ، سقطت وتدحرجت وتطاير المتبقي فيها على الموقد وأرضية المطبخ. تركت كل شيء على حاله وأطفأت النور. خبطت الباب ورائي وغادرت البيت. قضيت المساء بطوله أمشي في الشوارع، ألعن إدي، وألعن إسرائيل.

بعد أسبوع أعطاني البواب مظروفا مغلقا. قال إن شخصا تركه لي. فتحت المظروف، وجدت به قصاصات مصورة من ثلاث مقالات منشورة بالفرنسية، وخطاب يقول فيه:

«جئتك من أجل أخيك فأنا أدين له بلحظات هي الأجمل والأكثر سعادة في طفولتي، لم أقصدك لذاتك بل لأنك أخوه، ولم أجد من

أذهب له سواك لأقول إنني حزنت لموته. لم تحسن استقبالي. أشعر أنك انتهكت ذكرياتي، كأني جئت أطلعك على خطاب حميم أو صورة عائلية قديمة طالبا مشاركتك فإذا بك تسقطُ قاصدا نقطة حبر أو تشطب بهمجية على سطر أو جزء من الصورة.

بدا لي وأنا جالس معك أنك تريد أن أفسر لك ماذا أقول الآن، وأين أقف من كل ما يحدث حولنا. كدت أطمئنك، كدت أحكي لك عما أواجهه من ضغوط وتهديدات، ولكنني أحسست أنني لست متهما لأدافع عن نفسي، قد تعرِّفك المقالات التي بين يديك بمواقفي.

إدي صالح.»

مزقت الرسالة، ألقيت نظرة سريعة على المقالات، ينتقد الحكومة الإسرائيلية على غزو لبنان، لا بأس، اكتفيت بقراءة السطور الأولى من كل مقال ثم وضعتها جانبا.

عرفت إدي طفلا في الرابعة أو الخامسة من عمره تصطحبه آديل في زياراتها لنا ليلعب مع أخي. لاحقا، صار يأتي بمفرده، لا يطول الجرس فيدق الباب بقبضته، أعرف أنه إدي، أفتح الباب وأنا أنادي على أخي: «صاحبك وصل». يلعبان معا دون صخب، ثم يشتبكان فجأة على طريقة الصغار: «ضربني!» «أخذ مني اللعبة!» «هو الذي بدأ...» تفض أمي الاشتباك، ويعودان للعب. مشهد يومي وأليف لم أعد أذكر تفاصيله، ولكني أذكر تعليق أمي ذات يوم، بعد ذهابه، أنه يتيم، وأخي يواصل احتجاجه: «أخذ اللعبة ولو جابها مكسورة حاتبتسمي وتقولي معلش! ولو أنا كسرتها تزعقي وتقولي أنت مهمل! يعني إيه يتيم؟!» أذكر الحوار، وأذكر طفلا يلعب مع أخي، ولا أذكر متى كبر هذا الطفل، وكيف كبر، وأين ذهب هو وأمه بعد رحيلهما من القاهرة. مجرد طفل من أطفال الجيران لا أنتبه سوى بشكل عابر لوجوده، ثم رحل ونسيته، ثم دق على الباب.

قلت: ما الذي يريده مني؟ ولماذا جاء الآن على خلفية سفارته الجديدة في مصر، وجثث المذبوحين في أزقة شاتيلا وقد حولت المخيّم إلى قبر عمومي مفتوح لا سقف له سوى الذباب؟ «شطبت بهمجية على سطور في خطاب قديم يخصه!!!» هو الذي قال، أنا لم أقل شيئا.

قلت لأمي: زارني إدي ابن آديل، قال إنه جاء لتعزيتي في أخي.
قالت: ابن حلال، كثر خيره.

انصرفت. قلت لا أريد أن أقول لأمي كلاما أنساه بعد ذلك وتتذكره زوجتي وتعيده أمام القاضي لتؤكد أنني لا أصلح لرعاية البنات.

في مطلع التسعينيات أرسل لي إدي كتابا من تأليفه، يحكي فيه عن طفولته في القاهرة، توزعه بين عوالم لم يجد بينها رابطا، لا ساعتها ولا لسنوات طويلة لاحقة. جواز سفر جعل من إيطاليا اسما معلوما وحاضرا وإن بقي مبهما يستعصي عليه فهم علاقته به، لم تكن الإيطالية من بين اللغات الثلاث التي يتحدث بها، يتحدث اللادينو والفرنسية في البيت، والفرنسية في المدرسة اليسوعية وفي البيت أحيانا، والعربية في الشارع ومع الأطفال الذين يلعب معهم. لم يعرف أي منها لغته الأم لأن أمه كانت تحدثه بالفرنسية أحيانا وبالعربية أحيانا أخرى، وباللادينو في بعض الأحيان. يسمي زوج خالته غير الأجانب وغير اليهود الذين يتعامل معهم: «أولاد عرب» فيفهم من نظرة الازدراء على وجهه وهو ينطق بتلك العبارة أنه وأمه وأهلها ليسوا من أولاد العرب هؤلاء. ولكن جده لأبيه لم يكن يعرف سوى العربية، يرتدي جلبابا ويسكن حارة اليهود، يلتقي بجده في زيارات متباعدة، تعلّم مع الوقت أن الحديث عنها غير مرحَّب به في بيت خالته، وبين أهل أمه عموما، كما تعلم أن الحارة دنيا، وأهل أمه دنيا أخرى يحسن عدم

الخلط بينهما، أو السماح لأي منهما بالمثول في حضور الأخرى. يكتب إدي: «ولكن فكرة السفر بدت كالمظلة أو الخيمة التي سمحت فجأة باجتماع أهل أمي في شارع قصر النيل وجاردن سيتي والزمالك وأهل أبي في الحارة، لا أقصد أنهم صاروا يتزاورون، بل جمعهم شاغل واحد ألحظه هنا وهناك. كنت في التاسعة من عمري عام 1956، أذكر الحديث اليومي عن السفر، اجتماع الكبار حول خريطة ما، أو رسالة وصلت مؤخرا، أو مناقشة إمكانية الحصول على تأشيرات سفر وما قاله قنصل فرنسا وما وعدت به شركة سياحية. يقولون سنسافر إلى مارسيليا ومنها إلى إسرائيل، ثم يقولون سنذهب إلى البرازيل، ثم يكتشفون أن فرعا ما من العائلة يعيش في النمسا فيقولون النمسا، ولا يكاد خيالي يحط على مكان أزينه وأحلم بالإقامة فيه حتى يُغَيِّرونه، كما يغيِّرون في ملامح البيت بأشياء يبيعونها وأشياء أخرى يشترونها وأشياء ثالثة يرفعونها من أماكنها ويلفونها بأوراق الجرائد القديمة استعدادا لوضعها في صناديق كرتونية، حمى عجيبة تدفع بأمي وخالتي وزوجها لشراء حقائب، حقائب كبيرة وحقائب صغيرة، «هذه متينة تتحمل، تلك خفيفة تصلح لحملها باليد، لا أخطأنا، هذه الحقيبة التي اشتريناها بالأمس لا تصلح، لا يهم، يمكن تركها، الحقيبة التي رأيناها اليوم في جاتينيو أفضل، غدا نشتريها». وفي الحارة أيضا، في شقة جدي، وشقق أعمامي تتكاثر الصناديق والحقائب.»

سافر إدي إلى فرنسا، لم يختر ذلك، ولكنه اختار بعد ذلك ببضع سنوات السفر إلى إسرائيل، شجعه على ذلك أعمامه الذين كانوا هاجروا واستقروا فيها، ثم اختار مغادرتها.

لم يحك إدي في كتابه سوى عن حياته في القاهرة، وفي الفصل الأخير يتناول السفر بالسفينة من ميناء الإسكندرية إلى مارسيليا. ثم يختتم كتابه قائلا: «كنت في الخامسة عشر من عمري حين أعلن زوج

خالتي أنه لم يعد مستعدا لرعايتنا. قال: في مصر كنا مستقرين وميسورين، باريس غالية.. دبروا أموركم.» تزوجت أمي من رجل فرنسي، وسافرتُ إلى إسرائيل للحاق بجدي وأعمامي. أقمت فيها ثلاثة وعشرين عاما، من عام 1966 إلى عام 1989. لا يتناول هذا الكتاب تجربتي في إسرائيل، هذا موضوع يحتاج كتابا آخر أو ربما كتبا أخرى، وإن كان لا بد أن أشير هنا إلى أنني أدين بالكثير لتلك التجربة. طرحت علي «الأرض الموعودة» سؤالا ربما كان أخلاقيا في الأساس، وربما كان سياسيا أكثر منه أخلاقيا، وهو سؤال تاريخي في الحالتين، يخص تلك الآلة الجهنمية التي اخترعها أوروبيون كبار وأدارتها أوهامنا ودمنا أيضا. أعرف الآن بعد سنوات من التجربة والبحث والتقصي أن المشروع برمته، مشروع دولة اليهود والحركة الصهيونية التي غذته كان نكبة مركّبة، سرقت من الفلسطينيين أرضهم، واقتلعت اليهود من أوطانهم، وسفكت دماء كثيرة، دم العرب ودم اليهود، مع فارق مهم وخطير: الفارق بين مظلوم يقاوم فيرفد بدمه النهر البهي لبشرية تسعى لتأسيس بشريتها عبر المقاومة، وظالم يفقد تدريجيا إنسانيته عبر القتل المنظم. إسرائيل نكبة على اليهود. هذا يقيني الآن، وإن كان يتعين علي أن أقنع الآخرين بذلك بالبحث الموثق، والحجة الدامغة.»

كتبت لإدي رسالة مطولة ضمنتها رأيي في كتابه. صرنا نتراسل، وصار يرسل لي الجديد من مقالاته وكتبه.

الفصل الثاني عشر

من القائل: By the waters of Leman I sat down and wept (على ضفاف ليمان جلست وبكيت)؟ حاولت أن أتذكر، لم تسعفني الذاكرة. لم يتح لي أن أقرفص أو أتربع مباشرة عند الماء، لم يعد ذلك متاحا في القاهرة. انتحيت جانبا من المقهى المشرف على شاطئ النيل وطلبت فنجال قهوة.

أخرجت دفتر مسوداتي، فتحته لأكتب ثم عدلت. قلت أرى أولا ما الذي أنجزته شهرزاد، ثم أقرأ رسالة إدي. فضضت مظروف شهرزاد فوجدت فيه فضلا عن ما جمعته لي من معلومات، رسالة قصيرة مكتوبة بخط يدها، نبش دجاج، لا علاقة له بقواعد أي من الخطوط العربية المعلومة. (نبهت أمها مرارا وهي بعد في المدرسة الابتدائية. تمسك البنت بالقلم كأن أحدا من مدرسيها لم يعلِّمها، تثني رسغها باتجاه الصدر فتصبح اليد والقلم بين السبابة والإبهام أعلى السطر الذي تكتب عليه. «ألا يعلمونكم الخط في المدرسة يا شهرزاد؟!» «يعلموننا يا جدي، على الخط خمس درجات.» أندهش. تقول: «حصلت على أربع من خمس في امتحان الخط»، فاندهش أكثر.) ولكن الرسالة كانت لطيفة.

«شكرا يا جدي. لم يرهقني البحث عن ما طلبته مني.

عرّفني البحث بما لم يكن يخطر لي ببال. المعلومات التي جمعتها عن نشأة الحركة الصهيونية في مصر كانت مفزعة بالنسبة لي، ولا أعرف كيف أحكُمُ على الأمر، هل كان الناس غافلين إلى هذا الحد أم لديك تفسيرات أخرى؟

عندما آتي لزيارتك يوم الخميس أريد أن أسمع رأيك.

شهرزاد»

اعتنت شهرزاد بكتابة المادة التي جمعتها. طبعتها على الكمبيوتر، نسّقتها وأضافت إليها عناوين فرعية.

تحت عنوان «المُنتحر» كتبت شهرزاد:

ماركو باروخ. بلغاري ولد عام 1872 في اسطانبول.

درس الفلسفة في جامعة باريس ثم جامعة فيينا.

بدأ فوضويا ثم أصبح صهيونيا.

استهل نشاطه الصهيوني في الجزائر.

انتقل إلى فيينا ومنها إلى بلغاريا حيث أسس جريدة ناطقة بالفرنسية عنوانها ها-كارمل.

وصل مصر عام 1896 وأقام في حي درب البرابرة حيث يسكن اليهود الأشكيناز، المهاجرون من شرق ووسط أوروبا.

أسس ثلاث جمعيات صهيونية في القاهرة والإسكندرية وبور سعيد.

غادر مصر إلى كورفو ثم منها إلى إيطاليا.

حضر المؤتمر الصهيوني الثاني والثالث كعضو في الوفد الإيطالي.

انتحر في فلورنسا في الرابع والعشرين من أغسطس عام 1899، وكان في السابعة والعشرين من عمره.

كتبت شهرزاد بالقلم الرصاص في الهامش: كيف نصنفه: مغامر؟ مجنون؟ (كان يخطب في الناس في المقاهي فيقولون عنه «لوكو» أي مجنون)، ما معنى كلمة فوضوي؟ تصورت في أول الأمر أنه يمشي بشعر أشعث وملابس مهملة ثم فهمت من السياق أن للكلمة معنى سياسيا. ما معناها؟)

يسبق نشاط ماركو باروخ إنشاء منظمة هرتزل. لمن كان يعمل؟ لحساب الإنجليز؟ الألمان؟ أم لحساب هرتزل قبل الإعلان الرسمي عن منظمته؟ ولماذا الجزائر؟ ولماذا انتحر؟ كتب تقريرا مفصلا عن أوضاع اليهود في مصر، هل أنقله لك كاملا أم ملخصا؟!

قلبت الصفحة.

تحت عنوان «مراسلات وتقارير»، كتبت البنت:

في 18 إبريل 1897 أرسل رئيس وسكرتير الجمعية الصهيونية في القاهرة رسالة إلى ثيودور هرتزل في فيينا يعلمانه بإنشاء الجمعية (الجمعية التي أنشأها المُنتحر لاحقا ماركو باروخ).

وهذا نص الرسالة المنشور في قسم الملاحق في كتاب لانداو عن اليهود في مصر في القرن التاسع عشر:

«ستسعدون بمعرفة أننا أسسنا بعد صبر ودأب جمعية وطنية صهيونية هي جمعية بار كوخبا التي يتطابق برنامجها مع ما تطرحه جريدتكم: «الكرمل».

نرجو من سيادتكم أن تبقونا على اطلاع بما يحدث في الأوساط الصهيونية في فيينا، كما نطلب منكم إرسال كراستكم «الدولة اليهودية» في ترجمتها الفرنسية، إن أمكن.

تحيا الدولة اليهودية»

أقتبس هنا جزءا من تقرير الجمعية المرسل إلى مكتب المنظمة

الصهيونية في فيينا، في 13 يونيو 1900 :

«تنوي الجمعية، ما إن يتوفر لديها مبلغ كبير من المال، تأسيس ناد صهيوني يُلحق به مقهى عام. وسيضم هذا المقهى قاعة كبيرة للاطلاع على الكتب الصهيونية بكل اللغات. ونحن على ثقة أن المقهى سيكون الحقل الأمثل لنبذر فيه بذور الدعاية لقضيتنا. قررنا أيضا استخدام عوائد هذا المقهى في مساعدة اليهود المحليين في القاهرة. إن الصهيونية عموما معروفة جيدا من قبل المستعمرة الأشكنازية (في مصر) أما الفكرة لدى اليهود المحليين، لا في القاهرة وحدها بل في مصر كلها، فما زالت مبهمة تحوم حولهم، ولن يكون صعبا كسبهم إلى قضيتنا ما إن يتوفر لدينا كم كبير من المطبوعات الصهيونية بالعربية والإيطالية والأسبانية والفرنسية.»

رسالة أخرى من الجمعية في القاهرة إلى مكتب المنظمة في فيينا في 5 أكتوبر من نفس السنة تعلمهم بوصول الكراسات وتشكرهم على سرعة الاستجابة لطلبهم وتفيدهم بأنهم ترجموا كراسة Ende de Judenroth وتم طبع 3000 نسخة منها.

(نقلت العنوان بحرص لأنني لا أفهم اللغة المكتوب بها، ربما كان بالألمانية).

بقية الرسالة :

«وزعنا هذه الكراسات مجانا، وكانت تلك دعاية كبيرة وانضم العديدون إلينا، لذلك نرجو منكم الإرسال الفوري لمزيد من الكراسات بالفرنسية والأسبانية (بالحروف العبرية لا اللاتينية) مع كراسة «مقتطف من لائحة الحزب الصهيوني». نحن بحاجة إلى 300 نسخة من كل كراسة. أرسلوا لنا أيضا كل ما يتوفر لديكم من كراسات باللغتين الفرنسية والأسبانية».

تقرير لاحق في 10 مارس 1901:

«بعد استلامنا ما أرسلتموه لنا من كراسات مكتوبة بمختلف اللغات قمنا من ناحيتنا بطبع 3000 كراسة باللغة العربية ووزعناها من يد ليد بين اليهود المحليين. كذلك ازداد عدد أعضاء جمعيتنا إلى 150 عضوا بينما لم يكونوا في يونيو الماضي سوى ستين...» ثم يشير التقرير إلى أحد الإنجازات الهامة في العام السابق ألا وهو إنشاء مدرسة صهيونية في القاهرة. «مدرسة مجانية يتعلم فيها الصغار العبرية ثم يتعلمون الإنجليزية والفرنسية والعربية حسب برامج وزارة المعارف بما يمكنهم من الحصول على شهادات الحكومة المصرية.»

ثم صفحة أخيرة تحت عنوان «ملحوظات وأسئلة»، كتبت شهرزاد:

يورد لانداو أسماء عشرات الجمعيات والمنظمات الصهيونية التي نشأت في المدن المصرية في الفترة بين 1897 واندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914، أولها «بار كوخبا» التي أسسها المُنتحر ماركو باروخ، وآخرها «أبناء هرتزل» في سنة 1913، وفي نهاية هذا السنة، تحديدا في 2 نوفمبر 1913، عقد اجتماع كبير ضم ممثلي كل الجمعيات الصهيونية في مصر لتوحيد هذه المنظمات وتكوين قيادة مشتركة لها. ويشير لانداو إلى أن الصهاينة في مصر كانوا يأملون أن يجعلوا من مصر مركزا لنشر وتوزيع الكتابات الداعية للصهيونية الموجهة ليهود الشرق من الجزائر إلى الشرق الأقصى.

هل اقتصر عرض هرتزل أثناء زيارته لمصر في 1903 ومحادثاته مع الحكومة المصرية على إقامة كيان صهيوني في سيناء، أم طرح فكرة الحصول على 30 ألف فدان في كوم امبو لإقامة مستعمرة يهودية كبديل محتمل؟ هل جاء هرتزل بفكرة كوم امبو معه من فيينا أم جاء بها شخص أجنبي آخر إنجليزي أو ألماني، أم اقترحها يوسف أصلان

قطاوي مدير شركة وادي كوم امبو (أصبح بعد ذلك ممثل كوم امبو في البرلمان) وفكتور هراري باشا وفكتور موصيري بيه ورفاييل سوارِس وسير روبرت رولو المساهمين في الشركة؟

ثم تحت عنوان: «معلومة أخرى»:

في عام 1909 قدم عباس حلمي الثاني أثناء زيارة له لمعامل تكرير قصب السكر في نجع حمادي وسام المجيدية إلى سوارِس. قال الخديوي: «اسمك يا سيد سوارِس ارتبط ارتباطا وثيقا بكل المشاريع النافعة للبلاد، إنني سعيد بالتعبير علنا عن امتناني وأنا أمنحك وسام المجيدية من الطبقة الأولى.»

طوى الأوراق وأعادها إلى المظروف. أخرج منديله ومسح عينيه ثم أنفه. حين عرضت عليه البنت مساعدته في جمع بعض ما يحتاجه من المادة قبل بالعرض. قال أشجعها فتتعلم. فاجأته شهرزاد. لم يكن الامتنان للجهد الذي بذلته من أجله، ولا اكتشافه المبهر لقدرتها على القراءة المنتبهة وعرض ما قرأته بشكل متماسك، بل شيء آخر، كأن الطفلة أمام عينيه صارت بقدرة قادر...

لم تكتمل الفكرة في رأسه، قال لن أجد تشبيها يقارب ما أشعر به. مسح عينيه مرة أخرى وطلب كوبا ثانيا من القهوة، أحتساه ببطء وهو يتطلع في ماء النيل.

فض المظروف الثاني. رسالة من إدي مرفق بها أوراق مطبوعة. يقول إدي: هذه ترجمة بالإنجليزية لمقابلة نُشرت بالعبرية في جريدة «يديعوت أحرونوت» بتاريخ 31 مايو 2002، وهي مقابلة مع شخص يُدعى كردي في الأربعين من عمره، لا أدري إن كان والده هاجر من العراق أو من سوريا في الخمسينيات، أو قبلها أو بعدها، أقصد لا يشير المقال لذلك. ألخص لك أولا ما ورد في مقدمة الحوار: كردي مفلس. مديون. فقد وظيفته وقبض عليه بتهمة الاختلاس. وزوجته

أيضا فقدت عملها. له أربعة أطفال أحدهم دهمته سيارة وأصابته إصابة بالغة في رأسه. يطلبون كردي كما يطلبون الآخرين 30 يوما كل عام لخدمة الاحتياطي في الجيش، ومهمته كهربائي لسيارات للجيش. عرّضه سلوكه أثناء الخدمة للسجن عدة مرات فهو يرفض القيام بما يكلف به، يلعب الورق ويحتسي الخمر أثناء العمل، وإن عنّ له أن يترك عمله لمتابعة مباراة كرة قدم أو العودة إلى بيته، يغادر سواء وافق الضابط المسئول عنه أو لم يوافق.

اختار كردي لنفسه هذا الاسم وهو يصر عليه، لا يجيب إن نادوه بغيره، فهو على ما يبدو من أصول كردية، وهو لسبب أو آخر، يتشبث بهذه الأصول ويؤكدها. اسمه في شهادة الميلاد والأوراق الرسمية موشيه نسيم، وهنا أيضا يضيف كردي كلمة بيطار إلى اسمه ليصبح موشيه نسيم بيطار تأكيدا لانتمائه وولعه الشديد بفريق بيطار لكرة القدم، وهو فريق تابع لحركة شبيبة حزب الليكود. الاسم الثالث لكردي، اسمه الأحدث الذي رفعه من المغمورين إلى مصاف المعلومين من أصحاب الإنجازات الذين تستضيفهم محطات الإذاعة والتلفزيون، ويكتب الصحفيون عنهم، هو كردي الدب. و«الدب» هو الاسم الذي يطلقه الجنود الإسرائيليون على نوع بعينه هائل الحجم من الجرّافات يُعرف بدال 9، وهي جرّافة يتجاوز وزنها 48 طنا بدون المعدات العسكرية، تصبح بما تحمله من معدات عسكرية حوالي 60 طنا. ورغم أن كردي لم يسبق له قيادة جرّافة من هذا النوع إلا أنه قادها طوال 75 ساعة متصلة بلا نوم وتفوق في المهمة الموكولة إليه. وهذا نص ما قاله كردي في المقابلة:

«المضحك أنني لم أكن أعرف كيف أشغِّل هذا النوع من الجرّافات، فلم يوكل إلي ذلك من قبل، ولكني توسلت إليهم أن يمنحوني فرصة التعلُّم.

قبل أن نذهب إلى شكيم (نابلس) طلبت من الشباب أن يعلّموني. جلسوا معي ساعتين. علّموني كيف أقودها للأمام وكيف أهبط بها إلى الأرض. لم تكن لدي مشكلة. قلت لهم: تمام. تنحّوا جانبا واتركوني أعمل. وهذا أيضا هو ما حدث في جنين. لم أكن قد هدمت بيتا من قبل، ولا حتى جدارا. ركبت الجرّافة مع صديق لي، من اليمن. تركته يعمل لمدة ساعة، ثم قلت له: حسنا. التقطت الفكرة. ولكن العمل الحقيقي بدأ يوم قتلوا 13 جنديا في ذلك الزقاق من أزقة مخيم جنين.

(. . .) عندما وصلنا المخيم كانت جرافات دال 9 في انتظارنا. نُقِلَت من شكيم (نابلس). أخذت الجرّافة الكبيرة أنا واليمني، رفيقي، وأول ما قمت به هو ربط علم فريق بيطار على الجرّافة. كنت أعددته سلفا. أردت للعائلة أن تتعرف علي. قلت للعائلة وللصغار: «سترون جرافتي على التلفزيون. عندما ترون علم بيطار اعرفوا أنه أنا، وهذا بالضبط ما حدث.

أعرف أن ذلك قد يبدو جنونا، ولكن تعليق هذا العلم بالنسبة لي أمر طبيعي تماما كتناول الطعام. أنظر هذه القلادة المعلقة حول رقبتي، أنا لا أخلعها أبدا والصغار أيضا لا يخلعونها. أحمل أعلام بيطار أينما ذهبت. أنظر إلى سيارتي كلها مغطاة بأعلام الفريق. هذا هو أنا. أذهب دائما إلى مباريات البيطار، ألبس جلابية بألوان الفريق وأشتري طبلة من الأكراد في كاستل. وفي مرة عندما حصلنا على البطولة ركبت على ظهر سيارة ومعي الطبلة طوال الطريق إلى القدس. .

أنا مجنون ببيطار وليس هناك طريقة أخرى أشرح بها هذا الأمر فهو أهم شيء في حياتي بعد أسرتي. وهو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقتلني، ولكني الآن ولستة أشهر لم أستطع حضور مباريات بيطار. التوتر يكاد يقتلني، يلازمني الخوف من أزمة قلبية تصيبني. أحيانا

أمشي حول «تيدي» (الملعب الرئيسي في القدس) وفي يدي تذكرة ولا أستطيع الدخول. في إحدى المباريات أغمي علي بعد أن سجلوا هدفا. أعرف وقع ذلك لكن هذا هو الحال. لا شفاء منه. إذا هزم بيطار في مباراة، لا أحد في البيت يجرؤ على الحديث معي.

تفهم الآن لماذا رفعت علم بيطار على الجرّافة في جنين. قال لي أحدهم إن قائدي كان يريد أن أنزل العلم. هذا مستحيل ولو ترك لي الأمر لرفعت علم بيطار على مسجد المخيم. حاولت إقناع الضابط الذي أعمل معه أن يتركني أصعد وأعلق العلم، ولكنه رفض وقال إنني سوف أصاب بطلق ناري. حاولت. خسارة. قال لي الجنود «أحضرت بيطار معك!» فأجبت: «سوف أسوّي ملعبا كبيرا هنا، لا تقلقوا». في الراديو أرادوا أن ينادوني بموشيه الدب أصررت على كردي. قلت لعساكر جولاني أنا كردي ولن أجيب إن ناديتموني بأي اسم آخر. هكذا ولد كردي الدب. هذا هو اسمي، وأنا عنيد.

في الاحتياطي تعودوا على توقيعي «موشيه نسيم بيطار القدس». لفترة طالبوني بالتوقف عن ذلك، ولكنهم في نهاية الأمر سلموا به.

في اللحظة التي قدت فيها الجرّافة إلى داخل المخيم لمع شيء في رأسي، أصابني جنون. وهكذا عملت. لم أكن ألبس حتى قميصا، كنت نصف عار. هل تعرف كيف تحملت 75 ساعة لم أغادر الجرّافة، لم أصب بأية مشاكل ناتجة عن التعب لأنني كنت أشرب ويسكي طوال الوقت، وكان معي في الجرّافة زجاجة ويسكي طوال الوقت. كنت وضعت الزجاجات في حقيبتي مقدما. الآخرون أخذوا معهم ملابس، ولكني كنت أعرف ماذا ينتظرني هناك، ولذلك حملت معي الويسكي وشيئا آكله. ملابس؟! لا حاجة لها، منشفة تكفي. على أي حال، لم يكن بمقدوري مغادرة الجرّافة. تفتح الباب فتأتيك رصاصة. (. . .)

تسألني عن معنى «فتح طريق»؟ تمسح المباني، تمحوها، على جانبي الطريق، لا اختيار آخر. لأن الجرّافة أكبر من أزقتهم. ولكنني لا أبحث عن أعذار أو أي شيء من هذا القبيل. «تحلقها». لا يعنيني في شيء تدمير منازلهم لأن ذلك ينقذ حياة جنودنا. عملت حيث ذبح جنودنا. لم يقولوا حقيقة ما حدث بشكل كامل. لقد أحدثوا ثقوبا في الجدران تمرر فوهات بنادقهم. وكل من نجا من المتفجرات كان يتعرض لإطلاق النار من تلك الثقوب.

لم يكن لدي رحمة لأي شخص منهم. كنت أمحو أي واحد منهم حتى لا يتعرض جنودنا للخطر. هذا ما قلته لهم (. . .) ولهذا لم يعنني إطلاقا تدمير ما دمرته من بيوت، وقد دمرت الكثير منها. وفي النهاية أقمت ملعبا لكرة القدم يشبه ستاد تيدي.

صعب؟ لا، لا بد أنك تمزح. أردت تدمير كل شيء. توسلت للضباط عبر الراديو أن يتركوني أهدم كل شيء من أعلاه إلى أسفله، أن أسوّي كل شيء بالأرض، ليس لأنني كنت راغبا في القتل. فقط البيوت. لم نؤذِ من خرجوا من البيوت التي بدأنا في هدمها وهم يلوحون بأعلام بيضاء. لم ندقّ إلا في من أرادوا القتال.

لم يرفض أحد تنفيذ الأوامر بهدم بيت. لم يحدث. عندما كان يطلب مني هدم بيت كنت أنتهز الفرصة لهدم بيوت أخرى، ليس لأنني أريد ذلك، بل لأنه عادة ما يكون هناك بيوت أخرى تقف حائلا بيننا وهذا البيت، ولم يكن هناك حل آخر. كانت بيوتا تقف في طريقنا (. . .)

لمدة ثلاثة أيام كنت أهدم وأهدم. المنطقة كلها. البيت الذي يطلقون منه النار أسقطه، ولهدمه كان علي أن أهدم بعض البيوت الأخرى. حذرناهم بمكبرات الصوت أن يغادروا المنزل قبل أن أصل

إليه. ولكنني لم أعط أحدا فرصة. لم أنتظر. لم أضرب ضربة واحدة ثم أنتظر. كنت أسقط البيت بكل قوتي ليتهدم في أسرع وقت ممكن. أرغب في الانتقال لما يليه من بيوت، لهدم أكبر عدد ممكن. ربما تمكّن آخرون من السيطرة على أنفسهم، أو هكذا يقولون؟ هل يمزحون؟ إن أي شخص كان هناك ورأى جنودنا في المنازل يعرف أنهم كانوا في مصيدة. كنت أفكر في إنقاذهم. لم يكن يعنيني الفلسطينيين، ليذهبوا إلى الجحيم. ولكنني لم أدمر بلا سبب. كانت كلها أوامر.

كان العديد من الناس داخل البيوت. كانوا يخرجون من البيوت التي نشتغل عليها. لم أر بعيني ناسا يموتون تحت نصل الجرّافة، ولم أر بيتا يسقط على من فيه من الأحياء، وإن حدث لا أهتم، أنا متأكد أن الناس ماتت داخل تلك البيوت، كانت الرؤية صعبة، شبه متعذرة، إذ كان الغبار يملأ المكان. كنا نعمل كثيرا في الليل. وكلما سقط بيت ابتهجت لأنني أعرف أن موتهم لا يعنيهم، ولكن بيوتهم تعنيهم. عندما تهدم بيتا فإنك تدفن أربعين أو خمسين شخصا لعدة أجيال. ما آسف عليه هو أنني لم أدمر المخيم كله.

لم أتوقف للحظة. حتى عندما سمحوا لنا بساعتين من الراحة. أصررت على المواصلة. مهدت معبرا لهدم بيت من أربعة طوابق. ومرة انحرفت بشكل حاد جهة اليمين فسقط جدار كامل، وفجأة سمعتهم يصرخون في الراديو: «حاسب يا كردي، نحن هنا» اتضح أن أولادنا كانوا في الداخل ونسوا أن يقولوا لي. كنت راضيا مغتبطا، استمتعت فعلا بما أقوم به. أذكر أنني كنت أسقط جدار مبنى من أربعة طوابق وأنه سقط على جرافتي. صرخ في زميلي وطلب مني الرجوع للخلف، ولكني تركت الجدار يسقط علينا. كنا نضرب جانبي المبنى ثم نشق طريقا فيه. وإذا تعذر علينا ذلك نطلب إعانتنا بقذيفة دبابة.

لـم أتمكـن من التوقـف. كنـت راغبـا في أن أعـمل وأعمـل. كـان هناك ذلك الضابط من فرقة جولاني يعطينا الأوامر عبر الراديو، جننته بإلحاحي في طلب المزيد من المهام. (. . .)

لدي أصدقاء عرب كثيرون. وأقول: إن لم يفعل الرجل شيئا فلا تمسه. وإذا فعل شيئا اشنقه. هذا رأيي، حتى المرأة الحامل اطلق النار عليها بلا رحمة إن كان وراءها إرهابي. هكذا كنت أفكر وأنا في جنين. لا أطيع أحدا، لا يهمني شيء. أهتم فقط بمساعدة جنودنا. كنت سأستمتع أكثر لو تركوني أهدم المخيم كله. لا رحمة لدي. (. . .) صحيح أننا في الأيام الأخيرة كسّرنا المخيم. نعم، كان الأمر مبررا. قتلوا جنودنا، وكان أمامهم فرصة الاستسلام. لم يبد أي منا تحفظات على ما فعلناه، ليس أنا فقط. من يجرؤ على فتح فمه؟ لو أن أحدا تجرأ على ذلك لكنت دفنته تحت نصل الجرّافة. هذا هو السبب في أنني لم أمانع في رؤية ملعب مائة متر في مائة سويناه بالأرض. بالنسبة لي تركنا لهم ملعبا لكرة القدم فبإمكانهم اللعب فيه. هذه كانت هديتنا للمخيم. هذا أفضل من قتلهم. سيكونون هادئين. لن تعود جنين إلى ما كانت عليه.»

الفصل الثالث عشر

لي ثلاث بنات. لم أطلب حل لغز وأنا على فراش الموت فأثبتت الصغرى فطنتها بحله فكافأتها بعرش المملكة، ولا تنكرت لي البنتان الأكبر وزوجاهما وتركوني أتخبط وأعوي في مهب العاصفة.

لستُ القائل: «هذه العاصفة في عقلي تعطِّل حواسي من كل ما عداها من مشاعر سوى ما ينبض فيها»، «يا ابنتي الغالية، أعترف بشيخوختي. لا جدوى من طول العمر»، «أعطني الصبر يا سماء، أحتاج الصبر»، «. . . ها أنتم ترونني هنا شيخا فقيرا، ممتلئا بحزنه وسنوات عمره، بائسا في الحالتين»، «لا تخدعني فأروِّض النفس على تحمل الأمر، مسني بغضب جليل»، لستُ القائل، ولم أكن ملكا فوق الخشبة تجاوب العناصر بالثورة ثورتي، ولا وجد الغضب الجليل حيِّزا يتجسد في مداه، سقط الجلال عن الغضب، انضغط وتلبّد كعباءتي القديمة التي وضعتها خطأ في الماء المغلي. عباءة صوفية جميلة تصلح للملوك، كيف أصبحت خرقة ملبّدة لا يزيد حجمها عن حجم ولد في الثامنة من عمره. هذا تشبيه قاصر. العباءة خارجي وما ألم بي متصلب داخلي كورم خبيث ينتشر في صمت.

لم أعو عواء الملك في العاصفة. كنت مجرد ناظر ينتهي من عمله ويعود إلى منزله ليتابع العاصفة. يشاهد كرات اللهب والدخان على

شاشة، يسمع دمدمة القذائف لا الريح، وسقوط القنابل الذكية والأقل ذكاء على شط العرب، يلتف بعباءته الصوفية كأنها كفن. لا جمهور معي يشاركني الفرجة وينتهي بالتصفيق عند إحقاق الحق في النهاية. المشهد يدوم خمسة أسابيع، لا ساعة، ومسرح العمليات يختلف، لا خشبة ومن خلفها الكواليس يهرول فيها عمال الإضاءة ومهندسو الصوت والممثلون بين المرايا، والرجفة قبل رفع الستار المخملي.

هل كان لير في الرابعة والخمسين من عمره؟ حين هبت العاصفة كنت في الرابعة والخمسين. أفتقد الدقة، لم تكن عاصفة واحدة؟ كنت في الثلاثين، وكنت في الخامسة والأربعين، وكنت في التاسعة والأربعين، وكنت في الرابعة والخمسين، والآن يتعين علي وأنا في الخامسة والستين أن أواجه العاصفة من جديد.

الفن يُلَخِّص، الفن يُكَثِّف، والمسرحية محكومة بالساعات الثلاث المقررة لها على خشبة المسرح، وبقوانين أرسطو عن وحدة الحدث، وربما وحدة الزمان والمكان أيضا؛ المسرحية سهرة تتعطر لها النساء ويرتدي لها الرجال أربطة العنق، يغادرون أول المساء، يشاهدونها، وبعدها مباشرة أو بعد تناول العشاء في مطعم بسيط أو باذخ ، يعودون إلى بيوتهم فيخلدون إلى أسِرَّتهم مستقرين متوازنين. بدأت المسرحية، انتهت المسرحية.

لا أكتب، على طريقة شيكسبير، مسرحية، أريد أن أحكي حكايتي ولا أدري كيف أحكي عن كل تلك العواصف المتتالية.

هل بدأت بالإشارة لعاصفة الصحراء بسبب الاسم أم لأنها كانت أكثر ما مررت به من العواصف قسوة. هل كانت أكثرها قسوة؟ ألم تكن 1967 أكثر ضراوة وهي تنهش كضبع لا يفرق بين جثة القتيل في صحراء سيناء وجسدي الذي لم تفارقه الحياة بعد؟ لم يقتلني الضبع، ولكني رأيته وهو يدور من حولي حاملا جزءا من لحمي بين فكيه.

وكنت في الثالثة والثلاثين عندما ذهبت مع زملائي إلى بحر البقر. زرت موقع المدرسة المدمرة وانحنيت كما انحنوا على الأنقاض، والتقطت بعض أوراق من كتب الأطفال ودفاترهم، أوراق ممزقة اختلطت فيها الكلمات بدماء جافة تحول أحمرها إلى بني مسودّ. لم أعرف إن كانت الورقة التي حملتها معي إلى بيتي في القاهرة عليها دم طفل من الأطفال الثمانية والأربعين الذين قتلتهم القذيفة أم دم طفل من الأطفال الثلاثين الذين زرتهم في مستشفى الحسينية المركزي. زرت موقعا آخر قرب المدرسة، ورأيت تجويفا هائلا في الأرض خلّفه صاروخ. لم أعد أذكر عمق التجويف ولا محيطه، أذكر أنني حدقت في الهوة وبقيت محدقا حتى نادوني فسارعت إلى الحافلة التي نقلتنا إلى المستشفى. قال أحد الأطباء إن معظم الصغار أصيبوا في رؤوسهم وأجريت لهم عمليات «تربنة». أذكر الرؤوس الملفوفة بالشاش الأبيض، وأذكر عيون الأطفال المتطلعة إلينا. أذكر أنهم كانوا صامتين، صامتين بشكل غريب، يتطلعون في صمت. أذكر طفلا لم يكن مصابا في رأسه بل في ساقيه. قلت له مداعبا: «بكره تقومْ بالسلامة وتبقى زي الغزال، واللا زي القرد؟» تطلع الولد إلي، لم يقل شيئا، لماذا أعدت كلامي، هل تصورت أنه لم يسمع؟! سمع، ولكنه كان فاقدا للصبر، يتألم، قال: «اللي تشوفه!» والتفت إلى أبيه قائلا : «يابا حطلي حاجة تحتيا، يابا خلّي عمي يشيلني كده، يرفعني، وحط لي حاجة تحت ضهري.» هل أقوم بدور عمه أم أنتظر أن يأتي العم فيلبي للولد طلبه؟ وقفت مرتبكا، وبقيت مرتبكا طوال اليوم، في الطريق إلى القاهرة، وفي الليل، وفي الأيام التالية، لم أدرِ أين أذهب بيديّ، وبساقيّ وبجذعي المعلق بينهما. لا أعرف لماذا تبدو الرقبة مسندا غريبا بلا معنى يُرفع الرأس ويبقيها معلقة طوال اليوم بهذا الشكل المرهق. لماذا كنت غاضبا من البنات؟ هل لم أطق البنات لأنني لم أعد أطيق

نفسي؟ هل بدت لي حياتي إثما أم ارتد إلي عجزي عن إيذاء من أذاني وصار رغبة في إيذاء نفسي وبناتي وشهرزاد؟ كنت في الثالثة والثلاثين، ولم أفْدِ أحدا رغم تاج الشوك، وكأس الخل والثقوب الدامية، ولكني واصلت الحياة، عشت، أقصد استيقظت في الصباح وقلت صباح خير يا شهرزاد، وارتديت ملابسي، واصطحبت بناتي إلى المدرسة، اليوم وغدا والغد الذي تلاه، يوما بعد يوم بعد يوم، كل يوم، حتى تلقفتني عاصفة تالية وعاصفة أخرى بعدها. شاهدت التوابيت مصفوفة صفا طويلا لا تحيط به عدسة المصور إلا عن بعد، وآلاف الرجال المحتشدين في الملعب البلدي يقيمون صلاة الجنازة، يتحرك الموكب في قيظ غريب على يوم ربيعي. الأكفان محمولة على أكف الرجال، يقطعون الطريق من الملعب الكبير إلى المقبرة: مستطيلات محفورة في عمق الأرض، متلاصقة، متطابقة، متساندة، وتنتظر. قلت لنفسي: لم تطأ نصال الجرافات جثامينهم لتزيحهم مع التراب في غياهب قبر جماعي، كانوا أكثر حظا لأن أحدا لم يلق بهم مكدسين، جسد على جسد، ويد فوق ساق، وقدم على عينين في أوضاع خانقة تحرمهم الجيرة الطيبة والتواصل الأليف، كل في خصوصية قبره المُعَيَّن، عن يمينه جار، وعن يساره جار إذا جن به الليل يأتنس بالكلام معه. قلت: لن أرى مشهدا أكثر حزنا وجنونا. ولكني كثيرا ما أخطئ التقدير. عشت لأرى جثثا في أدراج ثلاجة، في كل درج جثتان، ومسيرات من أعلام وبشر يحملون جثامين جديدة كل يوم، وسيارات نقل كبيرة كتلك التي يكتظ على ظهرها عمال التراحيل أو الأطفال الذاهبين لجني القطن، أو حتى جنود الأمن بعد تلقيهم الأمر بالتوجه لقمع مظاهرة، تصطف في كل سيارة نقل منها الأكفان، كفن لصق كفن، أبيض لصق أبيض.

أين لير من تلك العواصف؟

هل تبادلني أيها الملك المسرحي حياة بحياة؟ اعطني جحود ابنتيك، وخذ بحر البقر وشاتيلا والعامرية وقانا وجنين.

لا لن أعطيها لك، هذه حكايتي! اذهب بعيدا يا ملك المسرح، لم تعرف من الألم شيئا، والمعلّق على الصليب حكاية من إنتاجنا المحلي.

توقف عن الكتابة، قال: سيهرب القراء من كتابي. جمعت لهم في صفحات معدودة ما أضناني وهو موزع على سنوات عمري، حتى في شيكسبير كان المشهد التراجيدي الثقيل يستدعي مشهدا آخر يخفف من وطأته. أين مضحك الملك؟ أين المهرج؟

لست روائيا، لا أعرف كيف يؤلف الكتّاب المشاهد المضحكة. فليكن، لا أستطيع إضحاك القراء، ألا بديل سوى التَغَوُّل عليهم وتحويل ليلهم إلى كوابيس! ربما أشفق على نفسي وزماني فأسقط بلا وعي في عاطفية المسنين، أم ترى العقل يتراجع فأبدو كطفل يلقي حجرا من شرفة بيته لتسقط على عابر السبيل؟ من أين جاءتني هذه الصورة السخيفة. أرى الأطفال كل يوم على شاشة التلفزيون، لا يلقون الحجارة جزافا، ولا يلقونها على عابر سبيل، يصوبونها قصدا على جنود الاحتلال المتمترسين في خوذهم وستراتهم الواقية من الرصاص ومجنزراتهم العسكرية. تابعتهم شهرزاد، شغلها الصغار منذ انتفاضتهم الأولى. كانت في الخامسة من عمرها، يشغلونها فتحكي لي عنهم كلما رأيتها. تقول لأمها حين تلح عليها لتنام. «مش فاضية يا ماما، باتكلم مع جدي في السياسة!» يختلط علي الأمر فجأة، أتساءل إن كان ما تراه الصغيرة من مشاهد يمسها ويشغلها فعلا أم أنها تتشبه بالكبار ويروق لها أن تفعل ذلك كما تحب أن ترتدي عقد خالتها وتمشي بحرص في حذاء أمها ذي الكعب العالي؟

ظلمت البنت. تسأل كثيرا، تستعلم، تحاول أن تفهم. تضطرب

لما تراه على الشاشة. تجلس على غير عادتها صامتة، تحكم إغلاق صندوق الكلام. الصغار يختلفون عنا، يرون ما لم نكن نراه من صور. يكبرون بسرعة صادمة. وربما ترسل لهم صور الصغار الذين يماثلونهم العمر رسائل شخصية، لا يتاح لنا الاطلاع عليها.

بالمراسلة وقعت شهرزاد في حب الصغير الذي وقف في وجه الدبابة. كان يماثلها العمر وكانت تعي ذلك. حملت لي صورته وقصاصة من جريدة. قالت اقرأ يا جدي، قرأت:

«القدس في التاسع من نوفمبر 2000،

في التاسع والعشرين من أكتوبر الماضي بثت وكالات الأنباء صورة الطفل فارس عودة وهو يقف أمام دبابة إسرائيلية، يتصدى لها بحجر في يده. وبالأمس الثامن من نوفمبر أطلقت دبابة إسرائيلية النار على فارس فأصابته في عنقه، وبقي ساعة ينزف حتى الموت. على مفرق المنطار في غزة استشهد فارس عودة الذي عُرف بين أقرانه بحبه لرقص الدَبْكَة والغناء حتى وهو يواجه الدبابة يغني: «لو كسروا عظامي مش خايف، لو هدموا بيتي مش خايف!»

قالت شهرزاد: لم يتم فارس عامه الخامس عشر، أنا أتممتها منذ أربعة أشهر.

لم تعد شهرزاد للحديث عن فارس عودة إلى أن أتت بتلك المقابلة مع أمه. جلست بجواري، قالت: اسمع يا جدي:

«أم فارس عودة تحكي عن ابنها الشهيد:

«حاولت كثيرا ولكني لم أستطع حمايته من الموت.

كل يوم أجري وراءه وأحضره من عند الدبابات، وبعد أن أحضره يضربه أبوه بشدة فيغلق على نفسه الحجرة بالمفتاح ويغني: «لو كسروا عظامي مش خايف، لو هدموا البيت مش خايف»، يغنيها لأبيه وهو يَدْبُك ويقول: أنت تضربني وأنا كل يوم رايح على المنطار.

لم أستطع حمايته من اليهود. طوال شهرين وأنا أجري وراءه من المنطار إلى نتساريم إلى إيرتس إلى بيت حنون أريد حمايته، لم أستطع.»

حكت شهرزاد:

«في الانتفاضة الأولى كان فارس عمره سبع سنين، أهله كانوا يسكنون في شارع صلاح الدين في غزة، ثم اضطروا لترك المنزل والانتقال إلى منطقة داخلية بعيدا عن تواجد العساكر الإسرائيليين. كان فارس يلقي عليهم الحجارة ويعمل متاريس، وهم كانوا يدخلون البيت ويضربون والده ووالدته واخوته، ويلقون بالإطارات المحترقة داخل البيت.

كان فارس حنونا يا جدي، إذا اشترى شيئا لا يأكل منه إلا بعد اخوته، يسأل أمه دائما عما تريد ويحضره لها. أمه تقول: كان جريئا وشهما وكنت أخاف عليه أكثر من اخوته، يقعد على الشباك، تلتقط أذنه الصوت، يتعرف إذا كان الاشتباك بالرصاص الحي أو المطاطي، أو قنبلة غاز أو صوت. يقفز من الأماكن العالية بلا خوف. يركض ويغني ويحفظ أغاني الانتفاضة. كان ولدا متفوقا في دروسه، منتظما في دراسته، لكن الانتفاضة بدأت بعد شهر من بدء الدراسة. يروح المدرسة، يحضر ثلاث حصص ويهرب في الفسحة. مدير المدرسة قال لأمه: فارس يهرب من المدرسة ويذهب للمنطار. كانت تعرف أنه يفعل ذلك لأنها كانت تذهب للبحث عنه في مناطق المواجهة عند المنطار وعند مستعمرة نتساريم، أحيانا تمسك به وأحيانا يهرب منها، وعندما يراها يعود إلى البيت قبلها ويقول لوالده لم أكن في المنطار، عدت وأمي لم تعد. كان يأخذ ملابس في حقيبة المدرسة ليبدلها قبل عودته من تل المنطار خوفا من أن يرى أهله الدم على ملابسه أو التراب إذ وقع من قنابل الغاز. تغسل له أمه ملابسه فتعرف. صار

يلبس ملابس نظيفة ليثبت لأبيه أنه لم يذهب للمنطار، وبعد استشهاده أحضروا لأهله قميصا وبنطلونا كان يخبئهما في المدرسة.

كان يخبئ أيضا زجاجات العصير الفارغة ويشتري بنزينا من مصروفه ليصنع المولوتوف لإلقائها على الدبابات، ويخبئ المقاليع والنبال التي يصنعها، يصنعها بيديه، يحرقها بالغاز لتهذيبها، ويشتري الجلد اللازم لها من مصروفه ويخبئها في ملابسه. بعد استشهاده وجدوا مقلاعه مخبأ بين شجر الزيتون وراء البيت.

أمه تقول: كان يستفزه منظر الدم في التلفزيون ،وإذا رأى مصابا أو شهيدا يخرج ركضا من البيت فأركض وراءه، مرات أجري وراءه وأنا حافية. أحاول تهدئته، أقول له: يا فارس أنت صغير سيب الأقصى للكبار، فيقول الكبار ما بياخدوا شي، إحنا الصغار بناخده، إحنا هانجيب كل ما أخذه اليهود، تقول له: يا فارس الإسرائيليون هوايتهم الإصابات التي تجعلك مشلولا فيرد أنه لن يصبح عاجزا أو مشلولا.»

توقفت شهرزاد.

قلت لماذا توقفتِ؟ أكملي.

واصلت:

«ترجعه أمه يوميا من المنطار، يضربه أبوه بشدة فيغلق على نفسه الحجرة بالمفتاح ويغني، «لو كسروا عظامي مش خايف لو هدموا بيتي مش خايف» يغنيها وهو يَدْبُك. تشفق عليه أمه من شدة الضرب فتخفي عن أبيه أنه يذهب إلى المنطار. وفي يوم راحت أمه وراءه إلى المنطار وكان الرصاص لا يوصف، ومن خوفها عليه كانت تحتضن كل ولد تشوفه وتقول فارس، تتخيله فارس فتفاجأ به يرد: «أنا مش فارس... فارس عند الدبابات». بدأت تصرخ وتنادي عليه وهي تركض في اتجاه الدبابات فأوقفها شرطي فلسطيني وقال لها: هنا يهود ارجعي، أنت

ستموتين وفارس لن يحدث له شيء لأنه يقذف الحجر وهو يَدْبُك، يرقص أمامهم يمين وشمال فلا يستطيعون إصابته. قالت له أريد فارس، وتسللت من مزارع الزيتون وكانت أول مرة ترى فارس فيها قريبا من الدبابات. كانت المدافع منصوبة تضرب باتجاه الشباب وفارس أمام الدبابة، تنادي عليه وهو لا يسمعها. وفي مرة أطلق الجنود الإسرائيليون النار عليه فاحتضنه الشرطي وأصابته رصاصة في يده وأغرقت الدماء ملابس فارس، وعندما عاد صرخت أمه، ظنت أنه أصيب، ولكنه قال: «كنا بنسعف المصابين ولم يحدث لي شيء»، ولم تعرف أمه حقيقة ما حدث إلا عندما جاء الشرطي للعزاء في فارس بعد استشهاده.

ويوم أذاع التلفزيون صورة فارس وهو يقف أمام الدبابة كان فارس نائما. ابنة عمه ذهبت إلى أمه لتخبرها. كانت الساعة السادسة صباحا. قالت لها: افتحي التلفزيون. وكان هو نائما فأيقظته وبكت وهي تراه على الشاشة أمام الدبابات يقذف الحجارة ولا يخاف. رجاها ألا تخبر أباه، ولكنه بعد تصويره سرق من خاله الشرطي لثاما كانت تسلمه لهم قوات الشرطة الفلسطينية، ليخفي وجهه حتى لا يعرفه أهله إذا تم تصويره. المصور الذي صوره اسمه عماد عيد، أصاب الإسرائيليون سيارته الجيب بصاروخ عند نتساريم، صور فارس عدة مصورين، ولكن صورة عماد عيد كانت أقرب وأوضح، والمصور نفسه أصيب بالرصاص في قدمه، وبعد استشهاد فارس زار أمه ليعزيها، وما زال أثر الإصابة في قدمه. حكى لها قصة فارس مع الدبابات، كما حكى لها زملاؤه، وأيضا أفراد الشرطة الفلسطينية.

كان لفارس ابن خالة أكبر منه بثلاث سنين، اسمه شادي، عمره 17 سنة. كانا يذهبان معا إلى مناطق المواجهات في المنطار. ولما استشهد شادي طلب فارس من خالته إكليل الزهور الذي وضعوه على

جثمان شادي في الجنازة فأعطته له. سألته أمه: لماذا أحضرت الإكليل يا فارس؟ قال: أريد أن أضع صورتي فيه. بكت أمه، وطلبت منه أن يرجع الإكليل إلى خالته، ولكنه خبأ الإكليل فوق سطح المنزل، وبقي الإكليل على السطح حتى أنزله أهله لاستخدامه، كما أراد فارس، في جنازته.

في يوم استشهاده استيقظ فارس في السادسة صباحا وقال: يا أمي حلمت أن شادي ابن خالتي جاءني في المنام. تحمم ومشط شعره وارتدى ملابس جديدة. قالت له: يا فارس ليست هذه ملابس المدرسة، قال إنه ذاهب إلى المدرسة، اتجه إلى الباب ثم توقف وعاد. سألته أمه: بدك شيء يا فارس؟ قال: لا. كان زملاؤه ينادون عليه حتى لا يتأخروا عن المدرسة ويدقون جرس البيت. لكنه ذهب مرة ثانية إلى الباب ثم عاد ينظر إليها. قبل أن يخرج قال: بخاطرك يا أمي، قالت له: مع السلامة يا فارس إوعى تروح على المنطار، فقال: والله رايح على المدرسة(. . .)، خرجت أمه مسرعة للشباك، كررت عليه: يا فارس لا تذهب إلى المنطار، وظلت تراقبه حتى غاب عن عينيها.»

قلت:

- يكفي يا شهرزاد.

قالت:

- لم ينته الحديث يا جدي.

قلت:

- تعبت.

قامت وأحضرت لي كأس ماء. جلست صامتة بجواري، تنتظر.

قلت:

- احكِ يا شهرزاد

«لم يذهب إلى المدرسة. اتجه إلى المنطار لقذف الحجارة على الجنود الإسرائيليين، لم يكونوا موجودين في ذلك الوقت المبكر فذهب إلى المدرسة متأخرا. سأله المدير: أين كنت؟ قال له: كنت أشتري أغراضا لأمي، فسأله: لا يوجد أحد غيرك لشراء الأغراض لأمك؟ فقال له: لا. صدقه المدير وأدخله المدرسة فسأله فارس هل كتبتوني غياب في الحصة الأولى؟ سامحه المدير وقال له أنت حضور في الحصة الأولى، لا تتأخر ثانية. وبالفعل حضر الحصة الثانية والثالثة وبعدها خرجوا للفسحة، وكان زملاؤه يلعبون الكرة. ساعده زميل من زملائه على القفز عن السور.

توجه فارس إلى المنطار في التاسعة صباحا بعد الحصة الثالثة، وقبل استشهاده بساعة ضربه جندي من الشرطة الفلسطينية بجلدة على ظهره لأنه كان يقترب كثيرا من الدبابات، قال له: لا تواجه عن قرب وابعد.

بعد وفاته بأيام زار أمه ثلاثة شبان، حكوا لها، قالوا: كانت المسافة بين فارس والدبابة أقل من خمسة أمتار. قالوا: وهو يقذف بالحجارة على الدبابة انخلع حذاؤه فاستدار ليأخذه فأطلقوا عليه النار من الدبابة فأصابوه في عنقه. وكان على رشاش الدبابة كاتم صوت لذلك لم يعرف زملاؤه أنه أصيب. قال فارس لأحدهم: احضر لي حذائي، فرد عليه: أنا لست مجنونا، الحذاء أمام الدبابة، تعال بسرعة، ابتعد عن الدبابة، فقال لهم: أصبت. لم يصدقوه إذ إن أحدا منهم لم يسمع صوت القذيفة. ولكنهم صدقوا حين سقط على الأرض ورأوا الدم يسيل منه. حاولوا إنقاذه فأطلق الجندي الإسرائيلي النار عليهم فانبطحوا أرضا. زاد إطلاق النار بشكل مكثف وعشوائي باتجاههم، وظل فارس ينزف على الأرض، لم يستطيعوا إسعافه، زحفوا بعيدا، لكنه لم يستطع أن يفعل مثلهم لإصابته، وظل ينزف على الأرض،

وبعد حوالي ساعة توقف الرصاص فسحبوه، كان فاقد الوعي. حمله ولد من أصحابه وجرى به على الأسفلت بحثا عن سيارة تنقله لمستشفى الشفاء، لم تكن هناك سيارات إسعاف لأن الوقت كان مبكرا على المواجهات التي تكون مع خروج الأولاد من المدارس. اتصلوا بأمه من المنطار، قالوا لها إن فارس أصيب. ركضت إلى المستشفى. قالت الطبيبة: سيحتاج عملية تستغرق أربع ساعات، وطلبت من أمه العودة إلى البيت. قالت أمه: سأبقى إلى أن أطمئن عليه. كانت تنتظر حين جاء أحد الشباب الذين أحضروه إلى المستشفى، أخبرها أن فارس استشهد في المنطار.»

سكتت شهرزاد.

بقيت صامتة إلى أن ذهبت. غادرت وتركت لي شعورا غريبا، كأنني رأيتها تغادر لسفر أو انتقال بعيد. هل اختلطت مشاعري تجاه فارس بشهرزاد؟ بدا لي أن الولدين يقصدان حيزا غائما لا تسمح لي عيناي بالتحقق لا من تفاصيله، ولا حتى رؤيته تقريبا وبالإجمال، مجرد شيخ كليل البصر أثقلته الشيخوخة فانتحي جانبا، يعرف أنه على شاطئ، يسمع هدير الماء، يشم رائحة البحر، ولكنه لا يعرف، لا تُمَكِّنُهُ عيناه، لا يدري موقع البحر تحديدا ولا الجاري فيه: سفينة تقترب من شاطئ الوصول، أم سفينة بعيدة في الأعالي مهددة بالدوامات العاتية، أم لا شيء. لم يقل لي وجه حفيدتي شيئا عن ذلك. تطلعت إلى وجهها ثم عدت أختلس النظر عله يُسُر لي. قلت وأنا أدخل إلى فراشي: هذا هو الجنون بعينه، كيف تفصح الصغيرة لجدها عن القادم من أيامها، سترى شهرزاد وجهها عندما ترى وجهها، وساعتها أكون عظاما في تراب!

الفصل الرابع عشر

لا بد أنني كنت غافيا وقمت من فراشي على طريقة السائرين نياما، أعددت لنفسي قهوة، واحتسيتها ثم جلست إلى مكتبي. كتبت أربع صفحات كاملة، لم أطل التفكير ولا توقفت حائرا بين فقرة وفقرة كما يحدث لي أحيانا، كنت أكتب بسرعة كأنني محموم، أختلس النظر من حين لآخر إلى فارس وشهرزاد، كان فارس مستقرا على المقعد الكبير عن يميني، وشهرزاد تجلس على الكرسي الخشبي المجاور حينا وتقوم حينا ثم تعود تجلس. ربما يتشكك القارئ في سلامة عقلي، أنا نفسي أتشكك في حقيقة ما حدث. في الصباح عدت إلى الصفحات الأربع التي كتبتها، تأكدت أنني كنت يقظا وأنني كتبت تلك الصفحات، ولكنني كنت أرى الصغيرين معي في نفس الغرفة. كان فارس متململا فاقدا للصبر يستعجلني، يضطرني للتوقف عن الكتابة لأطلب منه أن ينتظر قليلا، أما شهرزاد فكانت منشغلة بفارس، تتطلع إليه، تطيل النظر كأنها تنتظر أن يلتفت إليها، ثم تقترب منه وتميل عليه ويتبادلان حديثا لا أسمعه. كنت واعيا بوجودهما معي في الغرفة، ثم لم أعد منتبها لذلك إذ استغرقتني الكتابة. أنهيت ما أردت كتابته وعدت إلى فراشي ونمت. عندما استيقظت في الصباح ووجدت الأوراق تساءلت: هل يمكن أن يكتب الإنسان وهو نائم، أو هل حدث من قبل أن اختلط المنام بالصحو، أقصد أن يكون نصفك نائما، يرى في الحلم

مناما، ونصفك الآخر يمسك بالقلم ويكتب صفحة بعد صفحة. هذا ما حدث لي على أي حال، أمر غريب، ولكنه حدث لي. وهذا هو المكتوب في الأوراق الأربع:

ولد مؤسس العائلة عام 1743 في حي مغلق في مدينة فرانكفورت بألمانيا. لنا أن نتصوره حين بلغ العشرين من عمره حليق الرأس يطيل لحيته وسالفيه، يرتدي معطفا أسود وقبعة سوداء، يمشي في الأرض مثقلا بالخوف والفقر والحذر، أو نتخيله على غير ذلك مقبلا متطلعا، يشذب لحيته، ويحلق سالفيه، ويتأنق في ملبسه وحديثه ومسلكه بما يؤهله لحضور دعوة نبيل من النبلاء إلى حفل راقص في قصره، يعشق على طريقة فرتر، ولكنه لا ينتحر مثله، ولا تتعدد غرامياته، بل يتزوج مبكرا وينجب عشرة من البنات والبنين.

لم يكن أمشِل يشبه جوته، لم يكن مثله مولعا بالشعر والمشاعر ولا حقق المجد بكتابتهما، ارتقى سلما آخر واستطاع، وهو ما لم يستطعه ابن مدينته وجيله الذي اختار الشعر، أن يحفظ لأولاده وأحفاده من بعده الدرجات الأعلى في خريطة مترامية بعرض القارة الأوروبية وامتداداتها في الجزر البريطانية وفيما وراء الأطلسي من ناحية، وامتدادها المستجد في شرق المتوسط.

لن نستبق الأحداث، ما زلنا في حارة من حواري فراكفورت الواقعة على نهر الماين، وأمشِل ماير يكبِّر أولاده العشرة ويدير متجره ويتوسع في نشاطه لينتقل تدريجيا من صرّاف وتاجر عاديات قديمة في حارة اليهود إلى مقرَّب من رجال البلاط يورِّد لهم العملات النادرة، يحظى بثقة الأمير الحاكم. (ويبدو أن تلك الثقة كانت كبيرة إلى حد أن الأمير ترك في حوزته جزءاً كبيرا من أمواله، حين اضطر لترك البلاد هربا من جيش نابليون). تقول بعض الروايات إن أمشِل ماير أخفى تلك الثروة في براميل النبيذ فلم يعثر عليها جنود نابليون حين دخلوا

المدينة، وتذهب روايات أخرى إلى أن أمشِل استخدمها فكانت الأساس المتين لتوسعه المالي، أما الموسوعة اليهودية فتشير إلى حكاية براميل النبيذ بصفتها أسطورة، وتكتفي بإشارة حيية لاختلاس مال الأمير، تقول: «كانت الحقيقة أقل رومانسية، وأكثر اتساقا مع السلوك العملي لرجل أعمال.» لست بصدد البحث عن هذه الحقيقة الجزئية، ولا تشغلني حقوق للأمير ضاعت عليه فلم تكن أمواله سوى ما يقبضه على تأجير جيشه لمن يحتاج الحرب من الدول المجاورة. يقبض على كل رأس. ولكن هذه حكاية أخرى لا تخصني الآن.

توسع أمشِل معتمدا على أولاده الذكور وكانوا خمسة، وزعهم على خمسة بلاد. الأكبر ويُدعى أمشِل كأبيه، استقر في فرع برلين، والأصغر جاكوب والذي عرف باسم جيمس ذهب إلى باريس، وسولومون الأصغر من أمشِل إلى فيينا، وكالمان المعروف باسم كارل إلى نابولي، أما واسطة العقد، الولد الأذكى ناثان فأوكل إليه أبوه إدارة المركز في المدينة الصاعدة لتحقيق نجمها الإمبريالي، أقصد لندن. لم يتفرق الاخوة رغم توزعهم على البلاد، ولم يرحل أي منهم منشقا على أبيه كما فعل روبنسون كروزو في الرواية المشهورة، بل كانوا كالأصابع الخمس لليد الواحدة، وإن كان علينا لو قبلنا هذا التشبيه أن نتخيل يدا هائلة قابضة، تحمل على كفها عرشا، تمتد بقرض إلى دولة، أو تهز بحركة واحدة استقرار بلد. اخترع أمشِل الذي ولد بعد جوته بست سنوات واختار طريقا غير طريقه، مصرفا عابرا للبلدان عززه أولاده باختراعاتهم المتنوعة. وكانت العلاقة بين الاخوة يحكمها التكامل والكتمان، يتراسلون بالألمانية وهي لغتهم الأم، يستبدلون بحروفها اللاتينية الحروف العبرية، ويستخدمون تعبيرات درجوا على استخدامها فيما بينهم وهم صبية، لا يفهمها سواهم، مضافا إليها ما يؤلفونه من أسماء يطلقونها على السياسيين وقادة الدول، باختصار

رسائل مشفّرة تتنقل بينهم بسرعة البرق قبل اختراع أجهزة البرق، تستند إلى جهاز متقن قائم على المحطات والمراسلين والحمام الزاجل والقوارب والخيل، وشخص يركض بالرسالة من هنا ليسلمها إلى شخص هناك، يحملها حصان يسبق الريح إلى شاطئ وقارب ينتظر، يقطع القارب المانش في هذا الاتجاه أو ذاك. وهناك دائما من ينتظر في المحطة التالية إلى أن تصل رسالة الأخ إلى أخيه، يفضها ويتصرف. هذا هو تحديدا ما حدث في يونية 1815 وكانت الحرب دائرة بين جيوش نابليون وجيوش الدوق ولينغتون. المعركة تحسم أمورا كثيرة، ربما كان أقلها مصير نابليون. توشك المعركة على الانتهاء، ولكن أحدا لا يعرف من المنتصر. استطاع ناثان عبر اخوته وعيونهم وسرعة مراسليه، أن يعرف قبل سواه بنتيجة المعركة. يحكى أن ناثان تسلم بنفسه الرسالة وعرف بالأخبار، ويحكى أنه أمر مساعديه ببيع أسهمه في سوق الأوراق المالية في لندن. يقال سرى الهمس في السوق: «ناثان يبيع، ناثان يعرف، لا بد أنه يعرف!» باع الكل. بعد قليل، اشترى ناثان. ربما حكى الحكاية كاره للرجل وملته، ربما اشترى ناثان دون أن يبيع أولا ليوهم الآخرين بأن نابليون انتصر. المؤكد، وهذا ما تجمع عليه كتابات عديدة، أنه عرف بالخبر فكان استخباره العنصر الأساس في مضاعفة ثروته. الحكايات كثيرة ولا أرغب في الدخول في المزيد من التفاصيل التي قد لا تهم القارئ، أو تثير فيه السؤال: ما الخطأ في توظيف رجل أعمال لدهائه ومكره ما دامت التجارة كما يقول المثل الدارج شطارة وللشاطر بالعربية معنيان، فصيح ودارج!

لم أذهب إلى الروتشيلدات الخمسة ووالدهم أمشِل ماير روتشيلد رغبة مني في الذهاب إليهم، أو انشغالا بسيرة أثرياء اليهود دون سواهم، ويقيني أن جدي الأكبر المعاصر لجوته وأمشِل روتشيلد والجبرتي لم يكن يعرف أيا منهم، ولم يشغله اختيار هذا للصرافة وذاك

للشعر وذلك للتأريخ، وإن لم يحل ذلك دون أن يدق الخوف بابه في قريته حين علم أن جيوش الفرنسيس دخلت مصر، ولا أن يردد بمزيج من الغضب والأسى مع أهل البلد «لا حول ولا قوة إلا بالله» حين سمع أن الولد الذي وفقه الله في قتل قائد الفرنسيس نُفِّذ فيه حكم الإعدام. جاؤوا إلي ولم أذهب إليهم، روتشيلد قناة السويس حفيد روتشيلد براميل النبيذ، وروتشيلد بلفور حفيد روتشيلد قناة السويس. الروتشيلدان أتيا من فرع واحد هو فرع ناثان الذي استقر في لندن بعد أن اختار والده أن تكون مركزا لمصارف العائلة، هناك الفروع الأخرى والروتشيلدات الآخرون. لا أدري إن كان أي من أولاد أمشِل زار بلادنا، ولكني اعرف أن إدموند أصغر أولاد جيمس، وحفيد أمشِل زار فلسطين للمرة الأولى عام 1895 وأنه منذ تلك الزيارة إلى وفاته عام 1934 قدم دعما هائلا لمشروع إقامة الدولة اليهودية، موّل شراء الأراضي وإقامة عشرات المستوطنات، وتدريب المهاجرين على الزراعة، وترتيب استقرارهم في الأرض الموعودة. كان الرجل «محسنا كبيرا» هكذا تقول الأدبيات الأوروبية، استعمر فلسطين، وأسس معاهد ومراكز للبحوث العلمية في باريس ولندن، وجمع لوحات ثمينة لكبار مصوري القرنين السابع عشر والثامن عشر.

أذكر أنني حين انتهيت من كتابة هذه الأوراق التفت إلى فارس. كان مستغرقا في نوم عميق، رأيت حبات العرق أعلى شفته العليا مكان شارب لم ينبت بعد. وكانت شهرزاد تتطلع إليه وتنتظر. فكرت في إيقاظه لأقرأ عليه ما كتبت ولأعرِّفه بالتفاصيل، ولكني تركته نائما، قلت: لا بد أنه يعرف، قد لا تكون التفاصيل مهمة، قد لا تقول كل شيء، وقد ينقل شيء واحد كل التفاصيل، يُجْمِلُها معينةً كاملةً وواضحة. أوفت الدبابة المعنى، كذلك فارس وهو يقف في مواجهتها.

دخلت إلى فراشي.

الفصل الخامس عشر

وأنا شاب كنت أعتقد أن المسنين ينامون كثيرا، لا يكتفون بالنوم ليلا على أسرَّتهم بل يغفون فجأة وهم يشاهدون التلفزيون، أو جالسين بين أفراد الأسرة أو حتى مع الضيوف. الفكرة غير صحيحة، كلما تقدم العمر بي أنام ساعات أقل. أخلد للنوم بعد انتصاف الليل وأصحو على صوت المؤذن، وهو يرفع آذان الفجر من جامع الرحمة، وعندما تدق أم عبد الله الباب في التاسعة يبدو لي أن النهار انتصف إذ أكون اغتسلت وشربت الشاي واستمعت إلى نشرة أخبار مفصّلة وقرأت الجرائد وجلست للكتابة ساعتين أو أكثر. أحيانا أستيقظ في الليل بعد نوم ساعتين أوْ ثلاث، أفتح دفتري وأسجل فكرة أو أكتب صفحة أو صفحتين ثم أعود إلى سريري. في الصباح أتأمل ما كتبته، كأنني كتبته في منام. يبدو أن هذا ما حدث لي حين كتبت تلك الصفحات الأربع في وجود فارس وشهرزاد. أحيانا أنسحب وأنا جالس على مقعدي أفكر أو أقرأ أو أشاهد التلفزيون، ليس نوما ولا نُعاسا. تغمض عيناي، وتنتظم أنفاسي وأسكن، ربما لأخلو إلى نفسي، أو لتأتيني تلك المشاهد التي تحيِّرني لأنني لا أعرف إن كانت تدخل في باب العلم أو الحلم، فهي دائما ما تأتي مُعَلَّقة بين الحقيقة والمنام. ولكنني أكون يقظا، تام الوعي. أفسر الأمر بأنه سَحْبَة خيال أو إمعان في فكرة تتوالد صورا ومشاهد.

يوم قرأت كلام كردي عن نفسه وما فعله في مخيم جنين عدت إلى البيت مثقلا، جلست ساكنا على مقعدي، أغمضت عيني، رأيت امرأة طويلة ممتلئة ترتدي الأسود، جلباب وغطاء رأس، ترفع طرفه لتغطي فمها كلما أقدمت على الكلام. كانت أشبه بجدة ريفية. كيف عرفت أنها من اليمن؟ لم تقل ذلك، ربما قالت إنها من العراق، هل قالت إنها جدة كردي؟ نسيت. صاحت المرأة: أخرجوه من البيت، هذا الزائر ذو القبعة يقصد شرا، يحمل في أذياله الشر!» قرفصت المرأة، أحاطت صدغيها بكفيها. كررت بصوت خافت: «ملعون من يفرِّط في نور عينيه.» فتحت كفيها، تملتهما كأنها تقرأ المخطوط فيهما، قالت: «يا الله، لماذا تكتب على ذُرِّيتي أن تضيِّع نعمة البصر؟» التفتت إلى ابنها وصاحت: «يا يوسف اخلع القبعة. يا يوسف قل للورد ديفرين أن يغادر البيت. لا تتبعه يا يوسف، سيسحبك إلى بئر بلا قرار، لن يرويك في البئر ماء، ليس ماءً يا يوسف، إنه دم!»

عادت المرأة إلى الجلوس مقرفصة وراحت تنوح. فتحت عيني. استغربت ما رأيت، حاولت أن أفهم من أين أتتني تلك الصورة لكي أفهم معناها، تأملتها طويلا وظل فهمها مستغلقا علي.

ليس كل ما أراه في تلك الغفوات القصيرة المعلقة بين الصحو والمنام مبهما. أحيانا أرى وجوها أليفة، وأسمع كلاما يبدد وحشتي ويظل يلازمني بعدها بيوم أو يومين، وقعه في أذني يملأني سكينة كأنني عدت طفلا في فراشي تميل علي أمي بجذعها لتحكم الغطاء حول جسمي وهي تبتسم ابتسامتها الجميلة، تزيدها جمالا الغمازتان في وجنتيها، ورثهما عنها أخي. هو أيضا يأتيني في تلك الغفوات. ساعتها أعرف أن لقاءاتنا كسَحْبَة الناي، تؤنس الروح، ولكنها تختلف عن رؤيتي الفعلية له. أقصد التقائي الفعلي به الذي كذّبته شهرزاد واتهمتني بسببه أمام القاضي بالجنون. أرى أخي كثيرا في تلك

السَخبَات، نتحدث معا، أحكي له ويحكي لي، أشكو له أحوال الدنيا وحالي، هو لا يشكو.

ذات يوم عاتبته. قلت: «لم أعد أراك لا في الشارع كما رأيتك في المرات الثلاث التي جئتني فيها، ولا في إغفاءاتي القصيرة، ولا حتى في عمق النوم والمنام، لماذا تضن على بزياراتك؟» قال: «مشغول.» استغربت. كدت أسأله إن كان يتعيّن على الشهداء أن يذهبوا هناك أيضا إلى الوظيفة كل يوم. كدت أسأل ولم أفعل، قلت قد يؤلمه سؤالي، قد يجرحه إذ يتصور أنني ألمِّح أنه في محبس الموت بلا شغل ولا مشغلة، وقد يظن أنني صرت كالآخرين أعتقد أن الموت أخذه تماما، وأنه صار حبيسا أبديا فيه. سوف أسكت حرجاً وسوف يسكت حرجاً، ويتسبب السكوت في سوء الفهم. كانت تلك الأفكار تدور في رأسي. قرأها على ما يبدو. قال لي: «لدينا عمل كثير هذه الأيام. في الصباح نهيئ مكانا للقادمين الجدد، فاق عددهم كل توقع. علينا أن نمهد لهم الأرض، نغرس أشجار التين والزيتون والنخل العالي، ونبذر بذور الريحان والخزامى والورد الدمشقي وياسمين العراق. علينا أن نبني بيوتا ونعدها، أقصد نطليها ونمد فيها الكهرباء ومواسير الماء لاستقبال القادمين. نقوم بذلك من شروق الشمس حتى الغروب. بعد الغروب نذهب لزيارة زملاء لنا لم يأتوا بعد. هم لا يعرفون أنهم قادمون، نحن نعرف. نذهب إليهم قبل أن يأتوا لنشد من أزرهم، أقصد نقوِّيهم، ننقل لهم شيئا من خبراتنا، والأهم، أننا نتعرف، نأتنس بهم ويأتنسون بنا حتى إذا حانت الساعة وجاءوا للإقامة معنا يشعرون أنهمَ يأتون أهلا بعد أن غادروا أهلهم الآخرين. لدينا عمل كثير هذه الأيام.»

لم أعتب عليه بعدها، لم أحرجه بقول تعال. حين يثقل الشوق علي أستحضره بالخيال، أتملى صورته، أقول لا بد أنه سيجد فترة

هدوء تسمح له بزيارتي، التقي به في الشارع كما حدث من قبل، أو يأتيني من من باب الخيال في غفوة بين الصحو والمنام.

غالبا ما أخرج من إغفاءاتي القصيرة هادئا، ولكن يحدث أحيانا أن أفتح عيني لأجد أطرافي باردة، يبلل العرق منابت شعري، فأعرف أن ما جاءني لم يكن كابوسا بل علما بتجربة ذات وطأة. أرى نفسي أدفع قطارا، استجمع كل قوتي لدفعه فأدفع. لا يتحرك بطبيعة الحال القطار، وإن اكتمل جهدي لدفعه إلى حدوده القصوى كأنني امرأة في الطلقة الأخيرة من وضعها، ولكن لا وليد يدفع من جانبه، ولا أمل معلقا في جسد صغير من لحم ودم. قطار من حديد لا يتحرك. يحدث ذلك في لمحة كأنني فتحت عيني ثم عدت لإغلاقهما، وفي لمحة كذلك أبصر نفسي أتشقلب في الهواء كأن الأرض تقمّصها مكر وشر فأنكرت جاذبيتها. أتشقلب في حركات عشوائية لا يحكمها سوى الخوف ووعي أرض غائبة. رأيت نفسي أدفع القطار مرتين، أما شقلبتي في الهواء فكثيرا ما تتكرر.

بعدها تذهب الصورة، لا تذهب تماما لأن الاضطراب الشديد الذي تولِّده يجعلني أمضي اليوم كله في ضواحيها كأنني أعيش في مدارها.

حين أكتب أرتاح، كأن الكتابة تبدد الكوابيس وتَحْكُمُ سَحْبَات الخيال، تتطلب الانتباه فأواليها بما تطلبه، أتبعها في حرص كما كنت أتبع أبي في الشارع وأنا طفل صغير، أخشى من غفلة ولو عابرة تضيِّعه وتضيِّع مني الطريق. ينهكني الانتباه الشديد، وعندما أنتهي من الكتابة أسكن، وأنام، ويكون نومي في الغالب عميقا، رغم أنه لا يطول. أكتب أكثر في الصباح الباكر وأيضا في المساء. لا أسمع أصوات العاملين في الشركات المتعددة القائمة في شقق العمارة، ولا صوت باب المصعد وهذا يرقعه بعنف، وذاك يدق عليه لاستعجاله، والبواب

يصيح بصوت يصل إلى سكان الطابق السابع: «اقفل الباب!»، وولد في المنور ينادي ولا يتوقف حتى تسمعه أمه وتطل من السطح فينقل لها مطالبه، والمشادات في الشارع لأن سيارة دخلت عكس اتجاه السير، أو أوقفها سائقها في مجرى الطريق واختفى، أو لأن اثنين يتصارعان على مكان واحد يطمع كل منهما في ركن سيارته فيه، وقد يتعزز الصياح في الشارع بإسناد من السطح يتزامن معه بالصدفة فتدب خناقة بين جارتين أو فريقين من الجارات، تجتمع عليّ الأصوات من السطح والشارع وما بينهما من سلالم عامرة بالحركة، أو تسكن قليلا حين ينطلق من المنور صوت مباغت وغليظ لعامل من العاملين في العمارة يصرخ بالآذان. أقول: رحم الله بلالا، وأمد في عمر مؤذن جامع الرحمة، وتقاسيم صوته.

أضج بالضوضاء وأجد نفسي أستعيد هدوءا تحلت به وسط البلد أيام طفولتي وشبابي فأحذر انزلاقي إلى حنين يزيّن لي عالم الكاماريرات والسفرجية والخدم الذين يتحركون على السلالم والشوارع وداخل البيوت كأشباح لا صوت لها، هل كانوا ينتعلون أحذية مطاطية أم تدربوا على المشي بلا صوت واختزال حضورهم إلى ما يقومون به من وظائف وخدمات؟

في المساء أكتب إن جاءتني الكتابة، وإن لم تأت أجلس للقراءة أو لمشاهدة التلفزيون. محمود يزورني مساءً، أنتظر زيارته، بعد آذان العشاء، أتطلع إلى الساعة، أقول الآن يأتي محمود، ويأتي أو يتركني أنتظر، وعندما أتطلع في الساعة فأجد أنها تجاوزت الثانية عشرة أكف عن الانتظار. حين يزورني محمود نتحدث ويطول بيننا الحديث، يحتد النقاش بيننا، نختلف، أحيانا نتشاجر، ثم يمضي، يودعني بنفس العبارة حتى وإن كانت أساريره منقبضة لا تسمح له بلمحة ابتسام: يتنهد، يقول: «تصبح على خير يا رجل يا طيب!»

اليوم زارني محمود، قال:

- ستضرب أمريكا العراق، ما الذي سنفعله؟

واصل كأنه لم يطرح علي السؤال:

- لن نفعل شيئا! يقولون سنضربكم، سنضربكم، سنضربكم، ثم يضربون، نتلقى الضربة كأننا نتفرج على فيلم، ثم ندخل لننام. قل لي ما هو توصيفك للعقل والجنون؟

- لا أفهم سؤالك!

- الصغار الذين يواجهون الدبابة في فلسطين، يفعلون عملا جنونيا، يختارون لحظة مطلقة من المعنى، والقدرة، حرية مركزة وبعدها الموت، يشترون لحظة واحدة بكل حياتهم، هذا جنون، ولكنه جنون جميل لأن اللحظة أثمن من حياة ممتدة في وحل العجز والمهانة.

- لا يذهب الدم هباءً!

- يا رجل يا طيب، يذهب هباءً حين لا تتحقق نتائج لكل هذه التضحيات. لم تحقق الانتفاضة الأولى شيئا، وستنتهي الانتفاضة الثانية بضرب العراق، وتسوية هزيلة وينغلق الدفتر على دم الشهداء كأنه زهرة أو فراشة مجففة، للذكرى!

صحت في الولد

- كف عن هذا الكلام!

كنت أكثر إرهاقا من أن أدخل في محاجّة أثبت فيها أن دم أخي لم يصبح ماء.

قام إلى المكتبة، أخذ ثلاثة كتب منها، قال:

- سأقرأها بسرعة وأعيدها إليك الأسبوع القادم، تصبح على خير يا رجل يا طيب.

لم أعرف ما هي الكتب التي أخذها محمود من المكتبة. كنت أريده أن يذهب ويتركني في حالي. هل أعيد على الولد ونفسي ألف باء الكلام القديم، أحدثه عن شغل الشهداء في الأرض، بعد أعوام وعقود وحقب. حتى لو أصبح دم أخي ماء، فهو ماء مكنون في باطن الأرض، في يوم ما نبع، ويسقي الشجر. يا إلهي أكتب كلاما ركيكا كموضوع إنشائي لتلميذ بليد!

لا أفهم محمود. هل أفهمه؟ أحيانا أقول لنفسي إن محمود واضح فيما يكره ويحب. منفعل بلا لبس وأستحضر ذلك اليوم الذي دق فيه بابي في أول عيد بعد تعرفنا. كان يحمل أعوادا من قصب السكر، وهو صغير نحيل لا يتجاوز الثامنة من عمره والأعواد ضعفا طوله. يومها قال: «لا أحب عصير القصب. أكره المكنة التي تبتلعه من ناحية وتخرجه جافا وبلا لون ولا شكل من الناحية الأخرى. مرة جاءني كابوس رأيت نفسي فيه مع عود قصب في المكنة، تصور يا خال؟!»

أريد أن أكتب عن البورصة.

فتح دفتر مسوداته. قال: سأكتب عن شارع الشريفين. الطرز المعمارية: الباروك والنيو كلاسيك والروكوكو و الآر نوفو. تجديد الشارع مؤخرا: أعمدة الضوء تحيل إلى فيلم رومانسي قديم، حديدية رفيعة، نخل الزينة، مستطيلات العشب، شجيرات الزهور، وعلى الجانبين المباني، مبنى البورصة والإذاعة في جانب، وتلّة من الصبار يحرسها مجندون صغار السن وفقراء، والمباني السكنية في الجانب الآخر تنتهي بعمارة لاشياك: «إحنا في بلد إسلام، عمل عمارة فيها إسلام!» رحم الله مدام فرانشيسكا. نعود إلى البورصة. حفل الافتتاح. رئيس الوزراء والوزراء والضيوف الأجانب، والزهور الاصطناعية وموائد ومقاعد للضيوف تحت أضواء الليزر. بيت القصيد، درة الشارع واسطة العقد: البورصة. أعمدة إغريقية دورية تنتهي بأفاريز تكمل

الطراز. شاشة إليكترونية تؤكد أننا في زمان آخر. جددوا 60 ألف متر مربع من شارع شريف إلى شارع طلعت حرب، ومن صبري أبو علم إلى قصر النيل. الواجهة الجديدة. مغرمون بالواجهات. واجهة جميلة. وراءها، على بعد أمتار قليلة سوق العِرس، والقمامة وطفح المجاري.

توقف. قال: هذه رؤوس مواضيع، لا تأتي الكتابة. أربكني محمود.

أغلق الدفتر.

الفصل السادس عشر

«كيف أوصلتمونا إلى ما نحن فيه؟»

هل كان السؤال لشهرزاد أم لمحمود؟ أحاول أن أجيب على السؤال، أجد نفسي متعثرا متحيرا أتساءل: ألا سبيل للإجابة سوى هذا التقافز المرهق بين التواريخ وقصاصات الجرائد والكتب؟ هل أنظر بعيدا لأفهم أم أنني أغض الطرف عن لحظة راهنة محاصرة بالخيبة من الجهات الأربع؟ لماذا خاب المسعى إلى هذا الحد، ما الذي حدث ومن المسؤول؟ لم لا أضع الآتين من وراء البحر جانبا، فهذه شغلتهم منذ مئات السنين، لا جديد، أتوا ويأتون الآن وفي المستقبل كأسراب الجراد تقصد خضرة الحقل. تشبيه ركيك هزيل. أي جراد يكني عن آلة شيطانية تنتج خرائط، وتقيم دولاً، وتهدم تواريخ، وتسحب أرواحنا كما تسحب النفط من باطن الأرض عبر خطوط الأنابيب من هنا إلى هناك لأغراض الوقود؟! ليست هذه هي المشكلة ولا الموضوع ولا السؤال. لم تقل لك البنت كيف أوصلونا، بل كيف أوصلتمونا إلى ما نحن فيه، سؤالها عن المتاريس والدفاعات ووظيفة الحراس. ضرب الناظر بيده على المائدة وصاح: أي حراس؟! حارس مُقْعَد، وحارس ضرير، وحارس يؤمّن الثغرة في السور لمرور القادمين إلى القلعة من وراء البحر؟ ولماذا صورة القلعة؟ لا قلعة هناك، ولا متاريس، لا

حرب أصلا بل أرقام مفردة لجمع من البشر، منهكين في حيز ضربته كما الزلزال الشيخوخة فخلفت له اختلال العقل وأوجاع المفاصل، وتحلَّل له رائحة خنازير نربيها في البيت، نستأنس رائحتها وتستأنسنا، عادية معتادة. لماذا الخنازير؟ لا نربي الخنازير في بيوتنا، نقتني الفئران والعِرس، ألمحها في سوق باب اللوق أليفة في ثناياه بين الخضرة والفاكهة وأجولة الغلال. حركة خاطفة للرأس المدور والجسم المستطيل تنتقل بها فجأة من جانب لجانب ثم تختفي. أكاد أسحب يدي الممدودة للشراء ثم لا أسحبها، أشتري. أو أترك السوق غاضبا. في اليوم التالي أو بعد بأيام أعود إليه، وأشتري، ما الجديد؟ أراها في السوق كما أراها ليلا في الشارع تقطعه خطفا من تحت سيارة في جانب منه إلى داخل محل مغلق أو من محل مغلق إلى حيز مظلم بين سيارتين، ثم تجتمع في نهاية المطاف في مناور العمارة فأسمعها وأنا أكتب، ولا أعلم إن كانت تلك الصرخات الحادة القصيرة تعني أنها تلعب أو تتعارك أو تتناسل.

يقول صحفي نشط إن أسواق القاهرة كانت مرتعا للأوبئة والطاعون في مطلع القرن العشرين مما جعل تحسين الأوضاع الصحية في البلد شاغلا له أولوية، وكانت كارثة الكوليرا التي حلت بالبلد حاضرة في الأذهان. وفي فبراير 1911 رصد مصرفان فرنسيان يمثلهما دافيد عاده وروزنبرج والسيدات فينزي ومندلفو وأدولف وجوزيف قطاوي مبلغا كبيرا لإنشاء سوق مركزية كبيرة في باب اللوق: بناء واسع متعدد المنافع يتسع لمحلات الخضرة والفواكه والأسماك واللحوم كما يتسع للمقاهي والمطاعم الأنيقة، وفي طابقه الأرضي ثلاجة هائلة لحفظ الأطعمة وتبريد اللحوم والأسماك. أرادوه نسخة طبق الأصل من أسواق «الهال» في باريس واختاروا له نفس الاسم. سقط الاسم ونسي العاملون فيه ورواده أصله وفصله، وبقي المبنى قائما رثا وبائسا

وشاهدا. . . توقف، شاهدا على ماذا؟ على فشل المشروع أم نجاحه في إقناعنا أن لا خلاص ولا جمال ولا نظافة إلا ببنك فرنسي وأثرياء يهود وقطعة طبق الأصل من أوروبا؟

يستدرجني الغضب إلى مقال مباشر. ليس هكذا تكتب الحكايات. مهمتي صعبة يا شهرزاد، الأنقاض كثيرة، وعلى جدك أن ينقض كثيرا قبل أن يغزل لك كساءً من هذه الحكاية، أو يقيم منها مبنى له منطق ومعمار. جدك ضائع يا بنت، نقض الوزر ظهره وأقعده. ستقول البنت. . . ، لا لن تفصح فهي حييّة تراعيني، ستقول لنفسها: جدي يتعثر، يتوهم في نفسه القدرة على جمع خيوط قرنين من الزمان وفتلها في حبل واحد ويقول شدّوا! شاخ جدي، سحبته الشيخوخة إلى عاطفية المسنين، يثير الإشفاق ويتوسل الرحمة! لا أتوسل الرحمة يا بنت، لا أتوهم، أريد أن أحكي الحكاية، أريد الدقة. أريد العدل. لا أريد شيئا. «غيرُ مجدٍ في ملّتي واعتقادي/ نوحُ باكٍ ولا ترنم شادِ». سأنقشها نقشا على لوحة، أعلقها بباب البيت، أتربّع وراء الباب، أسده بظهري متدثرا من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي بخيوط ما نكثته من كساء. أغلق عيني وأسقط في البئر. لا يا ولد، لا تنظر في البئر، لا تبحث عن حبل غليظ تشد به الرجل الطيب، غيرُ مجدٍ.

هز الناظر رأسه وأشاح بيده وفزّ إلى الحمّام. خلع ملابسه وفتح الرشاش وترك الماء يندفع بقوة على رأسه وكتفيه وجسده. تصبن وتليف مرتين ثم أنهى حمّامه. تنشف ومشط شعره وارتدى قميصا نظيفا مكويا وجلس للكتابة.

كتب:

أبحث عن كتاب يفصّل لي درجات الغضب وأنواعه وأشكاله. أريد أن أعرف هل يحمل الصبي الغاضب غضبا على قدّه، أقصد غضبا لا يزيد مهما كان ظاهرا عن سنوات عمره وتجربته، يتسق مع عوده

الأخضر، هش مثله وجديد، أم يشتعل غضبه أكثر لأنه فتى مضطرم بفتوته وقوة الحياة فيه؟ تكملة السؤال ووجهه الآخر: هل يحمل الكبير الغاضب غضبا كبيرا مثله، ممتلئا بما تراكم عليه وفيه لعشرات السنين، داكن اللون، ثقيل القوام كنفط محجوز في باطن الأرض؟ هل يحكم عض الخيل على اللُجُم قانونا واحدا أم قوانين، أعني هل يعض المهر على لجامه كما يعض الحصان؟ وهل غضب النار على وقودها تتساوى إن قل الحطب أو كثر؟

أريد أن أعرف لأحكي بدقة عن نفسي وعن طفولتي وعن يوم الحريق الذي درج المؤرخون على الإشارة إليه «بالسبت الأسود». أتذكر الآن أنني وأنا أركض من قصر عابدين بعد إطلاق النار علينا، وجدت نفسي في شارع عدلي، أمام باب جروبي، الباب المؤدي إلى الحديقة. لماذا دخلت، لم أعد أذكر. هل كنت مع آخرين، دخلوا فدخلت، أم دخلت الحديقة منفردا لالتقط أنفاسي وأشرب كوبا من الماء. لم تكن النار مشتعلة بعد في المكان. رأيت رجالا يكسرون الطاولات والكراسي. يرفع الواحد منهم الطاولة أو الكرسي ويلقي بها بعنف على الأرض، تتكسر. يحمل قائمة من القوائم الخشبية للكرسي أو القضيب الحديدي للطاولة (طاولات صغيرة مدورة قائمة على عمود واحد من الحديد) ويدور به على زجاج الأبواب والنوافذ، يحطمها. كان صوت تحطم الزجاج يأتي أيضا من الداخل حيث الواجهات الزجاجية لعرض أصناف الحلوى يمين الداخل من شارع عبد الخالق ثروت، وقوالب الجبن وبطارخ الأسماك واللحوم الباردة (الجانبون والمورتديلا واللانشون) في الجانب المقابل. بدت حركة الرجال غريبة وهم ينتقلون من طاولة إلى طاولة ومن كرسي إلى غيره ومن زجاج إلى زجاج ، لم تكن شعثاء، رغم انفلاتها، بل قوية ومتصلة وسريعة تقصد ما تقصد كأنها تعرف مجراها.

وقفت جانبا، ربما كنت مندهشا، لا أفهم تماما معنى ما يدور أمامي، استقبل تفاصيله ولا أعرف كيف أصنفه أو أحدد مشاعري تجاهه. أرجّح الآن أن الغضب المعيَّن في المشهد كان خارج نطاق تجربتي ومعارفي، وأن غضبي الذي دفعني إلى الخروج إلى الشارع ذلك اليوم وفي أيام سابقة مع زملائي في المدرسة كان غضبا يشبعه هتاف أو مظاهرة، وربما، إن تطاول، حجر تقذف به اليد، أو نصف ابتسامة غير مبالية ترتسم على الوجه وهو يتابع نارا مشتعلة في كازينو. ولكن الرجال الذين رأيتهم في جروبي كانوا غاضبين بشكل مختلف، عرفت ذلك لحظتها وإن لم أفهمه.

أمامي الآن نسخة مطبوعة من ملف الصور الذي أعده ستوديو رياض شحاته، المصور الأشهر في مصر ذلك الزمان، أعد الملف لتقديمه للملك مع التقارير الخاصة بمجريات اليوم وآثار الحريق والخسائر الناجمة عنه. في الملف ثلاث صور لحديقة جروبي عدلي، التقطت لاحقا. لا غضب الآن بل ما تبقى من آثاره. في صورة منها طاولات مقلوبة احتفظت بقوائمها الحديدية، وأخرى بدت بدون القوائم مجرد أقراص مدورة كاملة أو منقوصة ملقاة على الأرض، بعضها استقر كما هو والبعض الآخر مقلوبا على ظهره. طاولات مماثلة تظهر في الصورة الثانية، ومقاعد محطمة تماما، مقعد مائل من الخيزران، بقايا مقعد، كرسي مقلوب على ظهره، مقعد أسيوطي بقي مستقرا في مكانه وإن اختفت مقعدته ومسنده وبعض العوارض الخشبية المكونة لمسنده. في الجانب الأيسر من الصورة قفص من الجريد من النوع الشائع استخدامه في نقل الفاكهة والخضروات، (ربما كان محملا بالبرتقال الذي يقدم معصورا إلى الرواد)، في الجانب الأيمن إطار خشبي للائحة ما (ربما لائحة المأكولات والمشروبات والأسعار). الصورة الثالثة للسور الفاصل بين الحديقة والمقهى المغلق، سور

حجري منخفض تتوسطه بضع درجات تؤدي إلى الداخل عبر أبواب لها ألواح زجاجية أطرها من الخشب. ذهب الزجاج وبقي الخشب. وبجانب السور والدرج أكوام من الأثاث المحطم. هل كان الرجال يحطمون ويلقون جانبا ما يحطمونه أم عنّ لأحد العاملين في المقهى التغلب على الفوضى بجمعها ووضعها جانبا متصورا إمكانية إعادة بعض الترتيب إلى المكان ثم اكتشف عقم المحاولة؟ في الصورة أيضا نباتات زينة في أصص فخارية موضوعة على السور الحجري. (استخدمت عدسة مكبرة وأمكنني إحصاء سبع أصص فخارية، زرعها فيها).

توفي جاكومو جروبي قبل خمس سنوات من الحريق، رحمه الله، لم يشهد ما ألم بمحلاته الأربعة، لم يقتصر الخراب على جروبي عدلي، هاجم المتظاهرون جروبي سليمان باشا، حطموا واجهته الزجاجية وألقوا بالأثاث في الميدان وأشعلوا فيه النار، وتكرر المشهد في فرعي آلاميريكين (الفرع الواقع عند تقاطع شارع سليمان وشارع فؤاد، والفرع الآخر الكائن عند تقاطع شارعي عماد الدين وفؤاد).

لم ينتحب جروبي، ولم يصب بالذهول، ولا وجد حلا على طريقة عبد الرحمن الرافعي فقال إن الغوغاء فعلوها، ولعن الغوغاء، ولا اعتبر ما حدث مفهوما في سياق حقيقة جغرافية بسيطة نميل دائما إلى إسقاطها، وهي أن مصر في نهاية المطاف ليست إلا جزءا من إفريقيا، وما دام المرء في قلب الظلام فليتوقع أي شيء. كما أسلفت، رحم الله جروبي، لا بكى ولا اضطر للفهم، كان جثمانه مستقرا في قبره، أما روحه فالأرجح أنها كانت تحلق بعيدا على طريقة الأرواح، لا تشغلها كثيرا حرائق الأرض.

أقلّب في ملف الصور، أتخيل الملك يقلّب فيه، ويلعن ويسب تمتمةً لأن الغوغاء المأجورين أفسدوا عليه فرحة الاحتفال بميلاد ولي

عهده؛ وأتخيل النحاس باشا يتملى الصور فينحدر عرق بارد من عنقه إلى تفريع كتفيه إلى عمود الظهر، تسري القشعريرة في بدنه. هل اعتقد فعلا فيما أذاعه في الناس، وصدق أنها مؤامرة، أم انتبه متأخرا أن إفساح المجال لبعض المظاهرات العنيفة لردع بريطانيا كان خطأ فادحا؟ أتخيله محمر الوجه كظيما، يردد في سره: فشل ذريع في التعامل مع اللجام! يتمتم: ألف باء السياسة: تُرخي اللجام قليلا، تُرخيه بقدر، تُرخيه أكثر من القليل بقليل، شرط أن تكون متحكما في الحصان، وفيما تبتغيه من ركض الحصان. فؤاد حمار، أفلت من يده اللجام فجمح الحصان، سقطنا!

ولم يرد بخاطر النحاس وهو يتأمل الكارثة وصور المباني المحروقة أو يتجول في سيارته في شوارع وسط المدينة ويطلب من السائق التوقف هنا وهناك لكي يتحقق من التفاصيل، لم يرد بخاطره أنه لن يعود لاعتلاء صهوة ذلك الحصان مرة أخرى.

أدع المجاز جانبا، أترك الملك وجروبي والنحاس لأعود لملف الصور بين يدي. عشرات الصور للشوارع والميادين والمباني الخارجة لتوها من حريق كبير. لا داعي للتفاصيل فهي كثيرة يمكن أن تبتلع الحكاية كلها. أتوقف عند صور لمكانين اثنين:

يبدو فندق شبرد في الصورة كأنه تعرض لزلزال قوي أو قصف مباشر من مدفعية ثقيلة أو طائرة. المدخل و«التراس» المتكرر وصفهما في كتب الرحالة والروايات وسير كبار موظفي الإدارة البريطانية في مصر تحولا إلى أنقاض، وسقط السقف وجانب من المبنى بما فيه بعض حجرات الطابقين الأخيرين فبدا الجزء الأعلى من الواجهة كجدار منفرد بلا غطاء أو عمق يستند إليه، كذلك النوافذ والشرفات تحطم زجاجها وسواترها الخشبية وجدران ما وراءها من غرف، وتحولت إلى مستطيلات مضيئة مفتوحة على الفضاء في هيكل بلا سقف. في صور

أخرى تظهر ملحقات الفندق من شركات ومكاتب: شركة كوك للسياحة، شركة بان أمريكان للطيران، شركة عربات النوم للسياحة وغيرها، حطم المتظاهرون أبوابها ومحتوياتها وأشعلوا فيها النار. والأرجح أن النار بقيت مشتعلة لساعات طويلة، وأن أجزاء من المبنى كانت تتساقط تدريجيا وتتحول إلى كومة من الأنقاض، إذ تظهر بعض الصور الملتقطة في اليوم التالي مباشرة مقر شركة بان أمريكان محترقة، مدمرة وإن بقيت مداخلها قائمة في جانب من مبنى الفندق لم يهوِ سوى جزء منه، ثم تغلب الأنقاض على الصورة التي التقطت للمكان نفسه من الزاوية نفسها بعد يومين من الحريق.

قد يبدو غريبا استخدام أفعل التفضيل في المقارنة بين الحرائق الكبيرة التي اشتعلت في ذلك اليوم، ولكن يبدو أن الحريق الأكبر كان في شبرد الذي تكبد الخسارة الأكبر، يليه في ذلك محلات شيكوريل.

صورة واجهة شيكوريل المطلة على شارع فؤاد، تُظهِر المبنى قائما متماسكا رغم آثار الحريق الواضحة في المداخل والطابق الأرضي، وتحطم نوافذ الطوابق العليا، وانثناء حديد قضبانها، ولكن صورة أخرى لجانبه الغربي تكشف عن حقيقة ما حدث للمبنى، سقط السقف وانهار الحائط كاشفا عن أنقاض أربعة طوابق متراكبة، سقوف سقطت على أرضيات، وأرضيات حملت معها السقوف وهوت كاملة أو أجزاء منها تاركة نافذة أو جزءا من جدار أو كتلة من الإسمنت تبرز منها أسياخ حديدية عارية وبلا معنى. لم يعد المبنى سوى مجرد هيكل: واجهة وأنقاض.

توقف عن الكتابة، جمع كل ما لديه من كتب حول الحريق. قضى اليوم في تصفحها وإعادة قراءة أجزاء منها، ثم وضعها جانبا وفتح دفتر مسوداته. حصر أسماء المنشآت التي أحرقت، صنَّفها إلى ثلاث مجموعات أساسية: بنوك ومتاجر ومحلات تخص الإنجليز وبعض

الأوروبيين؛ متاجر أثرياء اليهود؛ دور سينما وبارات (ركز إعلام حزب مصر الفتاة وأحمد حسين زعيم الحزب، كما ركز الإخوان المسلمين على دور البارات والسينمات في صرف الشباب عن القضية الوطنية ودورهم في الكفاح).

تحت «ملحوظات» كتب:

تتردد كلمة غوغاء بكثرة تثير الاندهاش وتشكل قاسما مشتركا بين من تناولوا الموضوع على اختلاف انتماءاتهم: الليبرالي والقومي والشيوعي، صاحب المبدأ وصاحب الحكومة الذي يتبدل بتبدلها، المؤرخ المدقّق وكاتب المقال الصحفي السريع، ولكن الغوغاء أحرقوا نادي التُرف ولم يمسّوا المعبد اليهودي الملاصق له. لم يحرقوا المعبد اليهودي، وأحرقوا محلات شيكوريل وأوريكو وشملا وشالون وبن زيون التي يمتلكها يهود، أحرقوا جروبي سليمان ولم يحرقوا محل سمعان صيدناوي المقابل له في الميدان.

عاد لملف الصور. أمعن النظر في صور بعينها سبق أن استوقفته، تمنى لو كانت أكبر وأوضح ليحسم الشك باليقين: الصورة الأولى تظهر مدخل جروبي عدلي والعمارة الملاصقة. محل حسن حنفي للخياطة، لا يبدو محروقا، لا تظهر الصورة أي أثر لنار عابرة فيه، ولا في اللافتتين المعلقتين بالباب، لافتة الاسم، وتلك التي كتب عليها كلمة ترزي بالإنجليزية. على جانبي محل حسن حنفي يظهر أثر الحريق واضحا في جروبي عن يساره وبوتيك رينابِل عن يمينه. وفي الشارع نفسه مكتبة نهضة مصر مس الحريق ما يحيط بها ولا يبدو أنه مسها. محل بن زايون محروق ومدمر وفوقه «سعد كامل وولده محمد» لم تمسه النار. تمتم: «هناك منطق في هذا الجنون!»

عاد إلى دفتر مسوداته، كتب تحت عنوان «ثلاث ملحوظات»:

ربط المؤرخون بين مذبحة الإسماعيلية ومظاهرات اليوم التالي في يناير 1952، ولكنهم حرصوا على فصل المظاهرات والوطنيين «الطيبين» الذين شاركوا فيها، عن الحريق و«المتآمرين الأشرار» الذين نفذوه. لم يربطوا بين الحريق وحرب فلسطين رغم أن القاهرة كانت قد شهدت مظاهرات حاشدة يوم الجمعة 2 نوفمبر 1945 احتجاجا على السياسة البريطانية في فلسطين، انطلق المتظاهرون من الجامع الأزهر بعد الصلاة إلى ميدان عابدين، حطموا محلات الأوروبيين واليهود في منطقة الموسكي، وفي يومي الثالث والرابع من ديسمبر 1947 قامت مظاهرات كبيرة في مختلف المدن المصرية احتجاجا على قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، حطم المتظاهرون محلات ومؤسسات يهودية وأوروبية، في اليوم التالي أعلنت الحكومة حالة الطوارئ في القاهرة، وألغت المظاهرات المقرر القيام بها يوم 14 ديسمبر.

تكشف مظاهرات نوفمبر 1945 وديسمبر 1947 ويناير 1952 عن تراكم الغضب في الشارع، وربط واضح بين ما يحدث في مصر وفي فلسطين، وتحديد لا لبس فيه لمصادر القهر هنا وهناك.

في يوليو 1948 بعد بضعة أسابيع من إعلان دولة إسرائيل ودخول الجيش المصري إلى فلسطين انفجرت شحنة متفجرات بين شيكوريل وأوريكو وهما متلاصقان يملكهما شيكوريل، ودمرت جانبا من المحلين، وانفجرت قنبلة في محل داود عدس، وبعد شهر حدث انفجاران كبيران في بن زايون وفي جاتينيو. هل كانت هذه الانفجارات جزءاً من رد الفعل الشعبي الغاضب أم كانت استغلالا له لأغراض معاكسة؟

(يُرَجِّح إدي أن هذه الانفجارات كانت من تدبير عناصر الموساد النشطين في مصر آنذاك، وكانوا يعملون تحت غطاء شركات سياحة تسهل لليهود السفر إلى جنوا أو مارسيليا ومنها إلى معسكرات تأهيل

ينتقلون بعدها إلى إسرائيل. يقول إدي إنه لم يجد بعد الوثائق التي تثبت مسئولية الموساد عن انفجارات صيف 1948 في القاهرة، وإن جاء ترجيحه قياسا على واقعتين مثبتتين، ما حدث في بغداد حيث وضع عناصر من الموساد متفجرات في عدد من المعابد لدفع مزيد من يهود العراق إلى ترك بلدهم والهجرة إلى إسرائيل، وما حدث في الإسكندرية والقاهرة في العملية سوزانا حيث وضع عناصر من الموساد متفجرات في المركز الثقافي الأمريكي وفي دار للسينما وهو ما عرف لاحقا بفضيحة لافون).

أغلق الدفتر.

الفصل السابع عشر

قالت أم عبد الله:

- كلما جمعت ملابسك للغسيل أجد هذه الورقة في جيب قميصك، ابتسمت ابتسامة ماكرة، أنت غاوي الشابة اللي في الصورة؟!

- أي شابة؟

رفعت القصاصة في وجهي:

- هذه!

لم أنتبه لصورة المرأة ذات الشعر الأملس والجلسة المثيرة رغم احتفاظي بالورقة لعدة أسابيع، وبختها، قلت:

- أميّة، وبنص عقل! هذه قصاصة من جريدة أحتفظ بها لأن المكتوب فيها يهمني. الصورة في ظهر الصفحة، لا تهمني في شيء! لم أرها أصلا!

استفزتني نظرتها،

- لا تصدقينني، أليس كذلك؟

قالت:

- تريد الحق أم ابن عمه؟!

أخذت منها القصاصة ووضعتها في جيب قميصي.

كثيرا ما أضج بأم عبد الله وأصرفها، فتحمل كل ما يخصها وتغادر وهي تقسم أنني لن أرى وجهها أبدا، أقول: عين المراد. ولكني بعد يومين أو ثلاثة أرسل في طلبها فتأتي ونتصالح. نتصالح كثيرا لأننا نتشاجر كثيرا. تشكو لبناتي: «أرتب البيت، يقول ضيعت الأوراق، وغيرت مكان الكتب. أترك البيت على حاله، يلومني ويقول: أصبح البيت مزبلة، أنت مهملة! أتحدث معه يقول ثرثارة، تقطعين علي التركيز في عملي. أسكت، يشكو من سكوتي!» سألتني بنت من بناتي: «صحيح يا بابا أنك قلت لأم عبد الله إنها مكنسة كهربائية؟!» قلت: «المكنسة الكهربائية أرحم، صوتها مزعج ولكنه رتيب يمكن التعود عليه. أم عبد الله قضت اليوم في البيت دون أن تبادلني كلمة واحدة، كلما فتحت معها بابا للكلام أغلقته، وظلت تهبد في البيت، تنفض سجاجيد من الشرفة، تدفع بمقاعد ثقيلة من أماكنها، تزيل الغبار عن الأثاث وسواتر النوافذ بضربها ضربا، وعندما انتهت من ذلك ودخلت المطبخ وقلت أخيرا انتهينا، أخذت تخبط وترقع في الأطباق والحلل والأكواب. كدت أصرخ فيها أكثر من مرة، ولكني ضبطت أعصابي وتحليت بالصبر ولم أقل سوى تلك العبارة. ما الذي ضايقها؟!»

لا أفطر إلا عندما تأتي أم عبد لله، وعادة ما نجلس في المطبخ سويا لشرب الشاي وتناول الإفطار. عندما أطلب منها أن تحضر لي الشاي إلى الصالة أو المكتب، أو تفعل هي ذلك دون طلب، نكون تشاجرنا في اليوم السابق أو الأسبق، يفطر كل منا وحده، وعادة ما يختصر الكلام بيننا إلى أسئلة مقتضبة أو مطالب تصاغ في شبه جملة، وأحيانا، وبلا سبب واضح، يأتيها خالها الطيب، يصفو مزاجها وتتحرك في البيت، تنجز عملها وهي تغني، والحق أن صوتها جميل، فيه عمق وحزن رائق، تؤدي الأغاني دون أي نشاز. أقول لها إن لها صوتا جميلا، تقول: لو رحت مدارس كان يمكن أكون مغنية، وكان

يمكن أفك الخط وأكتب كما تكتب، أو أرتِّب لك أوراقك وتبطّل تقول يا حمارة لخبطت الورق، وكان يمكن أفهم أنت شاغل نفسك ليه بعمارات مبنية من مائة سنة، تمشّيني طول النهار حتى ينقطع نفسي، لا مؤاخذه أنت قاعد على الكرسي وأنا رجليه من غير عجل، تبص على الشوارع والميادين والعمارات كأنك مفتِّش، لو رحت مدارس كان يمكن فهمت بتفتش على إيه! مش أحسن تكتب عن البطالة والدروس الخصوصية والغلاء، ما دمت كاتب كاتب، قاري في الكتب قاري، اكتب عن ما يشغلنا.» قلت: «لست صحفيا!» تقول: «هو الصحفي أحسن منك، واللا خايف تشتم الحكومة؟!»

صارت القصاصة في جيبي، ونسيت أمرها، ولكننا ونحن نتناول إفطارنا سألتني أم عبد الله. كان الشاي مضبوطا، والبيض لذيذا، والمطبخ دافئا فوجدت نفسي أمد يدي إلى جيبي وأخرج القصاصة وأقرأ لها المكتوب فيها:

«نظام جديد يساعد المشلول على الحركة»، يقول الخبر: «أعاد باحثون في جامعة هوكايدو اليابانية (أوضحت: يعني جامعة في بلاد برّه) الأمل للمصابين بالشلل الجزئي بأن يتحركوا مرة أخرى بمساعدة نظام يستخدم إشارات من القدم السليمة تساعد على التحكم في القدم المشلولة. (. . .)

وبفضل عمل فريق الباحثين فإن رجلين غير قادرين على السير بدون مساعدة لإصابتهما بالشلل النصفي الناجم عن الإصابة بجلطة تمكنا من الجلوس والوقوف والسير.

ويوضح الباحثون أن هذا النظام يستخدم مجسات للعضلات لمتابعة الإشارات في الساق السليمة وإطلاق نبضات كهربائية تزرع قلب الأعصاب في الساق المشلولة ثم تتلقى الساق المصابة الاشارات من الساق السليمة.»

هتفت أم عبد الله: «ألف نهار أبيض، ومتى تتم هذه العملية؟»

طوى الورقة، نهرها وقال: «سأكمل الشاي في المكتب!»

قصد أرفف كتب المؤرخين العرب القدامى. مرّ بعينيه على العناوين ثم مد يده وأخرج كتاب «عقد الجُمان في تاريخ أهل الزمان». راح يقرأ صفحة من هنا وصفحة من هناك. ثم توقف. قرأ الفقرة وقرر أن ينقلها في دفتر مسوداته. فتح الدفتر وكتب:

يحكي بدر الدين محمود العيني المتوفي عام 855 هجري الموافق 1451 ميلادي أن السلطان الأشرف بعد فتحه عكا وانتصاره على الصليبيين، دخل دمشق في صحبة الجيوش المنصورة «وكان يوما مشهودا، ولم يبق أحد من أهل دمشق وما حوت من أهل البلاد إلا وقد خرج في موكب اليوم، وكل واحد في يده شمعة، وكذلك العلماء والقضاة والخطباء والمشايخ، والنصارى واليهود، وأقامت دمشق مزينة بالزينة المفتخرة.»

نقل تعليق محقق الكتاب المدون في الهامش: يذكر ابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة» نفس واقعة الشموع التي أضاءت المدينة وإن ردها إلى لحظة توديع أهل البلد للسلطان بعد انتصاره، عائدا إلى القاهرة. فيقول: «خرج الأشرف من دمشق قاصدا الديار المصرية في ليلة الثلاثاء عاشر شوال، وكان قد رسم الأشرف لأهل الأسواق بدمشق وظاهرها أن كل صاحب حانوت يأخذ بهدوء شمعة ويخرج إلى ظاهر البلد وعند ركوب السلطان يشعلها، فبات أكثر أهل البلد بظاهر دمشق لأجل الوقد والفرجة، فلما كان الثلث الأخير من الليل ركب السلطان، وأشعلت الناس الشموع فكان أول الشمع من باب النصر وآخر الوقيد عند مسجد القدم.»

نعود للعيني، كتب: «وكان الصاحب شمس الدين- عند دخول السلطان دمشق- اقترح على أهلها ببسط الشقق (يقصد الثياب

ومقطوعات الأقمشة) تحت قوائم الخيل من سائر الأصناف، كما اقترح ذلك على المصريين، ولم يقترح أحد غيره قبله، فصار عادة إلى الآن.»

توقف الناظر، قال ما الذي أفعله في هذه الفقرة؟ إن ضمنتها الكتاب أثير حيرة القارئ، وقد يختلط الأمر عليه ويظن بي حنينا إلى الماضي. لا عودة، لا حنين، لا حلم بسلطان جديد، وإن جاء بالنصر العزيز، مجرد صورة مضيئة أثارت خيالي أو ذكّرتني بلحظة بعيدة إلى حد الغياب، يؤنسني استحضارها. ربما ضمنتها دفتر مسوداتي تأكيدا لنفسي أن ما أبكاني في ذلك اليوم لم يكن ما بدا أنه سبب البكاء. إن ضمنت هذا المقطع كتابي لا بد أن أشير إلى مشهد سابق وإلا فلن يفهم القارئ شيئا. سيتعين علي أن أصف نفسي وأنا جالس أمام التلفزيون أشاهد مباراة ركض في دورة للألعاب الأولمبية. عليّ أن أصف الشاب وهو يركض، أصف ساقيه المشدودتين واندفاعة جذعه، لحظة تجاوزت قدماه خط النهاية. يبدو أنه سيحكم سرعته تدريجيا ويبطئ حتى يتوقف ليستقبل التهاني والورود، هذا ما يحدث عادة، ولكن الفتى يستمر كأنه لم يصل بعد، أو كأنه لم يعِ أن قدميه سبقتا وأنه الفائز. بلى، يعي أنه الفائز، يعي ذلك بعمق، ينتزع علم بلاده من يد مشجّع من المشجعين، يرفعه عاليا فيشتد ركضه، يركض كأن المسابقة بدأت للتو، كأن إمساكه بالعلم بين يديه علامة البدء في السباق.

قال: هذا مشهد صعب لن يسهل علي كتابته بما يجعل القارئ يفهم لماذا انفجرت في البكاء فجأة، انتحبت كما لم انتحب في حياتي. قلت لنفسي: تبكي لأن ساقيك معطلتان، لا تملك المشي بهما فما بالك بالركض، ركض العدّائين في المسابقات! ولكني كنت أعرف أن السبب غير ذلك لأنني أتابع المباريات والعدّائين ولا يبكيني انتصار هذا الفتى أو ذاك. وعندما توقف البكاء ألح علي أخي، اشتقت

له شوقا غريبا، جامحا ويجتاح. قلت لا بد أن تصله رسالتي فيأتي. جلست أنتظره ساعات طويلة، ولما أردت أن أدخل فراشي انتبهت إلى أن جسدي كان متخشبا، كأن جلستي المنكمشة المتقلصة صارت قالبا تصمّغت فيه الأنسجة والعضلات، تؤلم في انقباضها وتؤلم أكثر مع أي محاولة للحركة، لا أجد وضعا مريحا، أستغرب السرير والحاشية ووضع الوسادة، أتساءل كيف كنت أنام من قبل، وعلى هذا السرير؟ كيف كنت أدبر لنفسي مكانا فيه متسع لرأسي وذراعي وساقي؟ ما الذي استجد على جسمي وأطرافي حتى يتعذّر علي هكذا أن أرقد بها وأريحها وأرتاح؟

***

كتب الناظر:

أعترف أنني لا أحيط بالآلة فهي هائلة، معقّدة، تليق بمعجزات العصر الإلكتروني وتفي بمتطلبات الجحيم. أتساءل ما الذي يملكه مُقعد في الخامسة والستين أمام آلة بحجم الأرض؟

مزق الورقة. ألقى بها في سلة المهملات. قال: سأكتب عن الرجلين البدينين اللذين يديران المشهد، البدين ذو الرأس الصغير، الأقدم والأكثر تفوقا في الخبرات والمذابح، والبدين رقم 2 الأقل رسوخا في إنجازه، يتصبب عرقا، دائما يتصبب عرقا. أعرف أنه من مواليد العراق، وأعرف أن اسمه الأصلي ليس بنيامين بل فؤاد، هكذا يناديه أهله وأصحابه ومعارفه، فأتصور وأنا أتملى وجهه على شاشة التلفزيون أنه قطع الطريق ركضا من اسم إلى اسم، مُخَلِّفا وراءه آلافا من القتلى.

رجلان بدينان، وعلى الجدار خلفهما صورتان، صورة لأصلع قصير، والثانية لملتح مستطيل الوجه لا يظهر كتابه في يمينه. كيف يربضان على صدر خريطة؟ هذا تعبير هزيل وناقص، وربما يكون

غامضا إن لم ينتبه القارئ إلى أن البدينين هما شارون ووزير في حكومته، والمعلقين على الجدار هما بن جوريون وهرتزل، ثم لماذا أخصّ شارون والثلاثة الآخرين، لما لا أكتب عن بوش الأب وبوش الابن والآخرين، والحرب التي جرت والحرب التي ستجري بعد أسابيع أو شهور؟ الأدباء لا يفعلون ذلك، لا يتركون للغضب أن يستدرجهم إلى كتابة مباشرة لا تنفع بشيء اللهم إلا التخفف من الغضب.

صاح الناظر: لست أديبا، لم أدع أنني أكتب أدبا رفيعا أو غليظا أو هامسا أو حماسيا، ليذهب الأدب إلى الجحيم، جحيمي أو جحيم آخر يختلف. أريد أن أكتب عن رجال ثقال الوزن يجثمون على صدري. خطأ، ليسوا مجرد حفنة من الرجال، الآلة كلها تجثم، بحديدها ونظامها وكلامها وتروسها ونصالها، تستبق القتل بقتل نظيف بلا دم أو أنقاض. أي قتل نظيف؟! بأم عيني رأيت في التلفزيون قبل أيام صور الأطفال في مستشفى البصرة: الشعر المتساقط، البطون المنتفخة، آثار اليورانيوم المُنضَّب في أبدان صغار ولدوا بعد الحرب بسنوات. وبعيني رأيت الجثث المتفحمة والأشلاء في جنين. لا دانتي ولا أبو العلاء ولا بيكاسو يقدرون على تصوير هذا الجحيم. مجزرة بيكاسو مجزرة منمنمة، بحجم القرية الصغيرة التي قصفتها الطائرات، صورها ابن مالقة المارق على لوحة بعرض جدار، أحتاج جدرانا كثيرة، جمهرة من المصورين، هذا جحيم...

أغلق دفتره فجأة. عاد إلى القراءة في «عقد الجمان» إلى أن شعر برأسه يميل وجفنيه يثقلان. لا يذكر متى ولا كيف نام. رأى نفسه كأنه في مسرح، يتفرج على مسرحية، لم يكن يجلس في صفوف المشاهدين بل ينتحي جانبا من الخشبة يراقب المشهد كأنه خارجه رغم أنه فيه. كان ولدا صغيرا لم يتجاوز التاسعة من عمره، يرتدي بنطلونا قصيرا، طفلا في المرحلة الابتدائية.

بدا المشهد إعادة للحكاية القديمة حيث تتنازع المرأتان طفلا ويقرر سليمان الحكيم شق الطفل نصفين، ولكن خلافا للأسطورة، كانت النساء المتنازعات على الصغير كثيرات يحطن به كالطيور الجارحة. يرتدين أثوابا سوداء مزيّنة بحليّ كثيرة وثمينة، يعلو رأس كل منهن غطاء غريب يمزج بين القبعة وتاج الهدهد وعرف الديك، ترتفع أصواتهن، يكاد وقعها يتطابق مع نعيق رف مجتمع من الغربان، كن يحطن بالطفل المتنازع عليه فلا يراه، يحكمن الحلقة حوله، ثم تنفرد امرأة منهن على خلفية الأصوات الناعقة، تخطو إلى مقدمة المسرح وتشرع في إلقاء خطبة تضمِّنُها دعواها عن حقوقها في الطفل، خطاب غواية ومكر، إنشائي ومُفَصَّل، تصاحبه بتحريك الرأس والإشاحة باليدين والتلوي بمجمل الجذع والأطراف والدَّب على خشبة المسرح بالقدمين. وما إن تنتهي المرأة من خطابها حتى تعود إلى الحلقة لتحل امرأة أخرى محلها، تقدم دعواها على خلفية النعيق. استمع الحاكم إليهن جميعا قبل أن يقرر أن يوزع الطفل عليهن. بعدها بدأت عملية تقطيع الطفل وانفلتت النساء على الخشبة في فوضى عارمة لأن الماسك بالساطور كان يقطِّع ويقذف فتركض النساء يمنة ويسرة، تحاول كل منهن التقاط ما يمكن التقاطه قبل الأخريات.

كان يتابع ما يدور ويبكي بكاء غريبا بلا دموع لأن الفزع على ما يبدو جَّمد الدمع في عينيه كما جمَّد الدم في عروقه وماء الحياة في جسمه.

يرحم الله عباده. دق الباب. دخلت شهرزاد، كإله إغريقي ينزل بقدرة قادر على خشبة المسرح لينهي هول المشهد. قالت: «ما بك يا جدي؟ أغسل وجهك وصفف شعرك.» أخذتني من يدي إلى الحمام ووقفت بجواري وأنا أغسل وجهي، أمسكت بالمشط، صففت لي شعري. جلست بالقرب مني. قلت احكِ يا شهرزاد. قالت:

- الأرنبة ولدت!

قلت:

- وسنتي انخلعت ورميتها في الشمس!

قلنا في صوت واحد:

- وقلت يا شمس يا شمّوسة خدي سنة الجاموسة وهاتي سنة العروسة!

نتشارك في اللعبة منذ سنين ونحن نستعيد معا كلماتها وهي طفلة. سألتها:

- لو رسمت جهنم يا شهرزاد، ماذا ترسمين، أقصد كيف ترسمينها؟

قطّبت جبينها، قالت:

- أسألك أنا، إن رسمنا الجنة كيف نرسمها؟

قلت الصغيرة تشاغلني كأنني الصغير، تبدَّلت الأدوار! لماذا أثقل عليها؟ قلت:

- عندي لك رسمة رسمتِها وأنت في السابعة. قلت لك: هذه جنينة؟ قلت: لا، هذه هي الجنة.

- لاأذكرها يا جدي!

- أحتفظ بها.

وصفت لها مكان الرسمة فجاءت بها، قالت:

- رسمة عبيطة يا جدي لماذا تحتفظ بها؟

- لأنني كلما أنظر إليها أتذكر ما قلتِه لي.

- ماذا قلت؟

- سألتك عن هذا الطابور، (أشرت إلى طابور من أجساد صغيرة بدا لي ساعتها أنه طابور من السجناء) قلتِ: ناس تنتظر دورها، لأنه لا

يُعقل يا جدي أن تدخل الناس الجنة بهمجية، كأنها تتزاحم على ركوب الأتوبيس، عددهم كبير جدا، عليهم أن ينتظروا دورهم. قلت لك وأنا أضحك: قد يملّون الانتظار عندما يطول فيغادرون. رمقتِني بنظرة صارمة، قلتِ: من يمل ويمشي، هو حر، هو الخسران! واصلت دعابتي: ولو تعاركوا على من يدخل أولا؟ تطلعتِ في باستنكار وقلتِ: جدي أنت لا تفهم، من ينتظر دخول الجنة يفكر بطريقة مختلفة، يكون مشغولا بالاستعداد، يمكن يغني، يمكن يرسم، يمكن يتخيل شكلها ويحكي لجاره أو يمكن يكون خايف وقلقان.

تنصت شهرزاد باهتمام لحكايتها القديمة كأنها ليست حكايتها، تكرر:

- غريب، لا أذكر أي شيء من هذا الكلام، كأن شخصا آخر قاله!

غادرت شهرزاد. قلت: هل يعقل أن تكون شهرزاد وهي طفلة في السابعة أكثر حكمة مني؟ لماذا أرسم جحيما أعيشه، ما الجدوى؟ الجنة قائمة في الخيال، وفي الواقع أيضا. شهرزاد جنة صغيرة أنعم الله بها علي، تأتيني كل أسبوع، ومحمود أيضا يزورني ، وكذلك الكتابة تأتي، تأتي من تلقاء نفسها فلا يتعين علي سوى أن أقول مرحبا وأفسح لها المكان.

ولكنها تستعصي، لا تأتي، تغيب. أتشكك في علاقتي بها، أتساءل إن كان وهما ما تصورته ألفة تجمعنا وتتيح لنا المشي سويا مؤتنسين ببعضنا البعض في طريق طويل، أو تجتاحني الظنون وأقول لا تحبك، لا ترغب فيك بل هي كغول الحكاية تستدرجك إلى سكك الندامة فإذا ما توغلت معها في الطريق تنكرت لك وتركتك في الوعر، هذا ما فعلته معي زوجتي شهرزاد.

الفصل الثامن عشر

بدت لي الفكرة هوجاء مجنونة ولكنني سارعت إلى التعبير عنها. قلت لشهرزاد:

- هل تعتقدين أن ذلك ممكن؟

- ما الذي يمنع يا جدي، لا شيء يمنع!

أنزلنا التاكسي عند باب حديقة الحيوان. في الجانب المقابل من الطريق، المحاذي لسور حديقة الأورمان، اصطفت السيارات الكبيرة: بعضها أزرق قديم وبعضها الآخر زيتوني داكن تنم لمعة طلائه، واختلاف تصميمه عن استيراده حديثا. لم أر الجنود. لم أعرف إن كانوا داخل السيارات أم يقفون على الرصيف تحجبهم السيارات المصطفة، سيارتان متجاورتان وراء سيارتين متجاورتين، تشكل حاجزا مزدوجا يمتد بطول الشارع. قطعنا نصف الطريق قبل أن تطرأ لي فكرة إحصاء عدد السيارات.

سألت شهرزاد، ضحكت:

- لم أحصها، وإن أحصيت يا جدي، يبقى العدد ناقصا، هناك سيارات أخرى عند الجانب الغربي من السور، وسيارات أمام مديرية الأمن، في الشارع الخلفي!

قبل أن نعبر الشارع إلى النصب التذكاري، استوقفنا ضابط، قالت له شهرزاد: جدي له أوراق تقاعد في إدارة الجامعة. سمح لنا بالمرور. لم يكن عدد الواقفين حول النصب كبيرا. لا أدري كيف ومتى احتشد الخلق، ربما لم انتبه لوقوف مجموعات متناثرة ضمت الصفوف في دقائق فصارت حشدا. انتشرت الأعلام واللافتات وعلا الهتاف. ثم علا أكثر. في لمحة، ظهر الجنود، شكلوا حائطا يفصل ساحة النصب التذكاري لشهداء الجامعة عن الطريق المؤدية إلى الجسر. دفعت بي البنت بعيدا عن العسكر. رأيت طلاب الجامعة يتقدمون من عمق الحرم باتجاه البوابة المغلقة، يهتفون من وراء السور، يجاوب هتافاتهم حشد أصغر ملتف حول النصب في الجانب الآخر من السور. رأيت أولادا يعتلون المنصة ويتسلقون نصب الجرانيت ويرفعون عليه الأعلام. رأيت ولدا محمولا على الأكتاف، ذراعه مرفوعة، وفي يده قلم، يحرك يده بعناية وبطء يشكل حروفا كبيرة، يضيف إلى نصب الشهداء جملته، ورأيت بنتا تتسلق بوابة الجامعة حتى حدها الأعلى وتهتف فيجاوبها الشباب. كانت نحيفة خفيفة الحركة، محجبة وتلبس بنطلون. استقرت أعلى البوابة وراحت تهتف. ثم لحق بها بنت أخرى وثلاثة شباب. التفت إلى شهرزاد، قلت: «لا تتقيدي بي.» نظرت إلي مستفهمة. قلت: «بإمكانك أن تصعدي إلى المنصة أو تلتحقي بزملائك ما إن يتمكنوا من فتح بوابات الجامعة والخروج.» ربتت على كتفي.

لا أدري ما الذي حدث. ربما سمعت الفرقعات أولا، ربما أحرقتني عيناي وهاجمني الدخان الكثيف ثم انتبهت للصوت، ربما تنبّهت أول ما تنبّهت للحركة المفاجئة، تخلخل الحشد، قفز أولاد من أعلى المنّصة راكضين، البنت تندفع بي في اتجاه السور. وقفنا في جانب، على بعد خطوات من حائط آخر من الجنود، الجنود أيضا

يفركون عيونهم، حمراء من أثر القنابل المسيلة للدموع. ربما أخطأت في المجيء. لماذا أحمِّل شهرزاد عبء الاهتمام بي؟! علا الصوت أكثر وعاد الناس تدريجيا ليتحلّقوا حول منصة النصب التذكاري، فجأة ارتفع التهليل واختلط التكبير بالهتاف، للحظة لم أفهم ما الذي يحدث. رأيت الأجسام المتدافعة تشغل الحيز كاملا بين السور وما بعد النصب. كان الطلاب قد نجحوا في فتح البوابات، كتلة راكضة تندفع إلى الشارع تقصد عبوره.. سيارات الإطفاء توجه خراطيمها يمينا ويسارا، تُخلخل الحشد بالماء. لا أدري كيف استطعت الحركة دون أن أنزلق أو أصطدم بأحد، عدستا النظارة مبللتان تماما، تكاد قوة الماء وشدة اندفاعه تفقداني توازني. تمكنت من الوصول إلى جانب من سور الجامعة. الماء يتقاطر من شعري المبلل على عدستَيْ نظارتي المبتلتين فيزيدهما تغبيشا. جففت وجهي وضحكت، لا أدري لماذا ضحكت، ضحكت بصوت عال. تطلعت لي امرأة خمسينية تتحدث في هاتفها المحمول. أنهت المكالمة وقالت لي بشكل أليف وهي تبتسم: «الأولاد عبروا الشارع باتجاه كوبري الجامعة، والجنود يضربونهم بالقنابل المسيلة للدموع وبالماء لمنعهم من الوصول إلى السفارة الإسرائيلية، وأولاد المدرسة السعيدية يواجهون معركة مماثلة هناك!» أشارت بيمينها إلى الطريق المؤدية لميدان الجيزة. سألتني إن كنت جئت إلى المظاهرة وحدي. شعرت بالدماء تصعد إلى رأسي. قلت: «نعم جئت وحدي!» انتبهت لحدة نبرة صوتي فواصلت الكلام قاصدا أن أبدو أهدأ. «جئت وحدي، لمحت حفيدتي بين الطلاب، لا ألمحها الآن، يبدو أنها...»، قاطعتني: «دقيقتان ثم أعود». رأيتها تهرول في اتجاه طفل يحمل حقيبته على ظهره، ربما كان في التاسعة من عمره، رأيتها تحدثه ثم تمسك بيده، ثم اختفت في الزحام. لم تظهر بعد دقيقتين. نظرت في الساعة. أين ذهبت شهرزاد؟ لم تظهر المرأة. لا

بد أن الصغير حفيدها. هذه السيدة حمقاء، لماذا أتت بحفيدها؟ رأيتها تقترب في اتجاهي، أين ذهب الولد؟ اقتربت، لاحظت احتقان وجهها، قالت: «اشتبكت مع الجنود. رأيتُ الصغير، هل رأيته؟ لمحت وجهه. كان يبكي. ذهبت إليه وسألته. قال إنه في طريق عودته من المدرسة وإن بيته في هذا الاتجاه، أشارت بيدها جهة اليمين، كان الولد خائفا لا يعرف كيف يعود إلى البيت. أخذته وقلت لأحد الجنود اسمح لي بالمرور لكي أوصله لنقطة آمنة. قال لي: ابعدي يا ماما، قلت: هذا ولد صغير ووجد نفسه محاصرا في هذا المكان. كرر العسكري العبارة وقال: ابعدي وإلا ضربتك. وبّخته، قلت له إنه يقول كلاما لا يفهمه، وما دام قال ماما فهذا يعني أنه انتبه أنني في سن والدته أو أكبر، ولا يصح أن يهدد سيدة في عمر والدته بالضرب! الأولاد الواقفون بجواره، أقصد جنود الأمن المركزي اعتذروا لي، وهو نفسه بدا محرجا، ثم قال: والله يا ستّي أنا عبد المأمور، ولو سمحت لأحد بالمرور سأعاقب. قلت له: أين الضابط المسئول عنك؟ ذهبت إلى الضابط وطلبت منه أن يسمح لي بمصاحبة الولد. رفض، أمسك بيد الولد وقال: سأتصرف. رأيته يمرر الولد من بين صف العسكر، ورأيت الولد يركض، في اتجاه المدرسة السعيدية، سيواجه المشكلة نفسها هناك، أقصد سيجد صفا من العساكر يمنعه من مواصلة طريقه».
ضاقت عيناها فجأة وانقبضت ملامحها كأنها انتبهت إلى مذاق مر في فمها.

عرفتها بنفسي. سألتها

– حضرتك صحفية؟

قالت:

– لا، أستاذة في الجامعة. المظاهرة انتقلت الآن إلى مكان آخر، هناك بالقرب من السفارة. سيارتي داخل الحرم، يمكننا الخروج من

البوابة الخلفية، إن أردت يمكن أن أوصلك إلى أقرب سيارة أجرة.

كدت أقول لها إنني سأبقى لانتظار حفيدتي لأنها لا بد ستعود للبحث عني. لم أقل، هي التي قالت:

- لن تتمكن حفيدتك من الوصول إليك لأن الطريق مغلق.

دخلنا إلى حرم الجامعة. تطلعتُ إلى الساعة، قالت

- لك حكاية مع الساعة، أليس كذلك؟ لنا جميعا حكاية معها، أقصد كل واحد منا، وإن اقتصرت على لحظة يستعيدها. يجلس في المحاضرة ويرى البرج عبر النافذة المفتوحة ويسمع رنين الساعة، أو يثرثر مع الآخرين على خلفية دقاتها، أو يجد نفسه لسبب أو لآخر في حرم ساكن بعد الغروب، فيسمع صوت كروان وبعدها رنين الساعة. تخرجت من جامعة القاهرة؟

- نعم.

- في أي سنة؟

- سنة 1958

- أنا تخرجت عام 1972، عشت مظاهرات ذلك العام واعتصام الطلبة في قاعة الاحتفالات الكبرى.

ضحكت:

- ومن يومها تشاركين في المظاهرات؟

- على طريقة أضعف الإيمان!

ركبنا السيارة. قادتها السيدة إلى مساحات خلفية بها امتداد للمباني لم يكن قائما على زماني. سألتها. قالت هذه كلية الاقتصاد، وتلك كلية الإعلام، والمبنى الذي هناك في آخر الحرم معهد الدراسات الإفريقية.

خرجنا من البوابة. كان الشارع مزدحما. شعبة الشارع المتجهة جهة النيل مكتظة بالسيارات. الشعبة الأخرى المتجهة إلى الناحية المعاكسة مغلقة . قالت:

- يظهر أنهم يغلقون مدخل الشارع من ناحية الدقي وكلية الفنون التطبيقية.

ثم رأينا أولاد مدارس يركضون غربا، وكان الدخان يلاحقهم. سألنا بعض الأولاد ففهمنا أنهم من مدارس الدقي. كان واضحا من أحجامهم أنهم من طلاب المدارس الإعدادية أو الابتدائية. لم يتجاوز البعض منهم الثانية عشرة من عمره. البعض يركض هاربا من الغاز المسيل للدموع والبعض الآخر يلتقط الحجارة وبسرعة يستدير، يقذف بها قاصدا الجنود، ثم يعود للركض. سارت السيدة في اتجاه شارع النيل، وأوقفت لي سيارة أجرة. شكرتها وحملتني السيارة إلى البيت.

***

في يوم الجمعة التالي قلت: سأذهب وليكن ما يكون.

لم يتمكن سائق سيارة الأجرة أن يوصلني إلى مقصدي. كان الجسر العلوي مغلقا فاضطر إلى سلوك طريق يمر تحت الجسر في اتجاه الميدان ثم انحرف في طريق جانبية أوصلتني إلى أقرب نقطة أمكنه الوصول إليها. كان جنود الأمن المركزي يغلقون مدخل الشارع وعلى جانبي التقاطع ثلاث عربات نقل من حاملات الجنود.

الجنود يتركون النساء اللاتي يقصدن الشارع ويمنعون الشباب، لم يعترضوا طريقي.

لم أمش في شارع الأزهر منذ سنوات، حين تحملني السيارة من وسط البلد في اتجاه طريق صلاح سالم تسلك طريق الجسر العلوي، ومؤخرا تقطع الطريق عبر النفق الجديد. كان الشارع كما عرفته دائما

صاخبا ومزدحما، وإن أضفى عليه الجسر العلوي وقوائمه الغليظة مظلة إسمنتية سميكة نقلته من شارع واسع مشمس ومفتوح إلى ما يشبه الممرات التي لا تخلو من عتمة. ممران في واقع الأمر، إذ شكلت القوائم الغليظة للجسر وحواجز إسمنتية جاهزة فاصلا يقسم مجراه إلى حارتين متعاكستين لمسار السيارات الذاهبة شرقا والآتية منه.

أعداد كبيرة من قوات الأمن. كل 250 متر تقريبا تقف ثلاث سيارات زيتونية كبيرة من حاملات الجنود تحمل الرقم نفسه على صندوقها الحديدي، رقم 9، في ميدان طلعت حرب والشوارع المؤدية إليه كانت السيارات تحمل رقم 7، لا أعرف مدلول هذه الأرقام. أدرج بمقعدي على الرصيف، في لصقه، في مجرى الشارع، اصطفت سيارات الأمن المركزي، ووقف الجنود في وضع انتباه يرتدون خوذا حديدية ويمسكون بدروع وهراوات، خوذ حديثة مزودة بغطاء زجاجي يحمي العينين، وخوذ أقدم بلا غطاء. الهراوات أيضا نوعان، غليظة قصيرة سوداء أو رفيعة طويلة لها لون الخيزران. الضباط واضحون: أجسادهم أكثر امتلاءً، وجوههم أقل نحولاً وسمرة، أكتافهم أعرض تزينها النجوم والصقور الذهبية، لا يرتدون خوذا على رءوسهم، لا يمسكون هراوات، تتدلى من أحزمتهم المسدسات، في أغمادها الجلدية. لم ينهمكوا بعد في إدارة المعركة، يجلس كل ثلاثة أو أربعة منهم على مقاعد خشبية استعاروها على الأرجح من المتاجر المجاورة، يدخنون ويتحدثون باسترخاء. لاحظت شبّاناً جالسين في المقاهي أو واقفين معا بجوار المحلات، طلاب ينتظرون خروج المظاهرة للانضمام إليها، أو مخبرون في سن الطلاب أو أكبر، أفقر هنداما، ينتظرون المظاهرة نفسها لافتعال مشاجرة، إرهاب متظاهر أو القبض عليه، رفع شعارات مملاة أو غير ذلك من التعليمات. شعرت بجفاف في حلقي، توقفت عند أحد المحلات واشتريت زجاجة ماء. واصلت

طريقي إلى الجامع. مطوق تماما. رتب عسكرية متفاوتة، صقور معدنية صغيرة مفردة، أو يعززها نجمة أو نجمتان، وضباط أكبر على الأرجح في ملابس مدنية أنيقة تخفي عيونهم نظارات شمس أنيقة، في أيديهم تليفونات محمولة.

دلفت من بوابة المسجد، تجاوزت الباحة الخارجية إلى الداخل. انتحيت جانباً بمقعدي ورحت أستمع إلى خطبة الجمعة. وعندما ارتفع صوت الشيخ بالدعاء ارتفعت آمين عالية ترددت في أرجاء المسجد والشوارع المجاورة. قدرت أننا لا نقل عن عشرة آلاف يؤدون الصلاة معا. أمَّنا الشيخ. الركعة الأولى فالثانية، فالتحيات. سلمنا يمينا ويسارا: السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله. «الله أكبرّ» ارتفع الهتاف، اندفع المصلون باتجاه الباحة الخارجية للمسجد. النساء أيضا خرجن إلى الباحة. أعلام فلسطين والعراق كبيرة وصغيرة، ورقية مطبوعة بحجم صفحة كراس مدرسي، ومتوسطة ملونة على ورق مقوى، وعلى لافتات كبيرة من قماش. الشباب ينشرون ما هربوه إلى داخل المسجد من لا فتات وبيانات. تعلو الهتافات، «بالروح بالدم نفديك يا فلسطين»، «بالروح بالدم نفديك يا عراق»، «لا إله إلا الله إسرائيل عدو الله» «لا إله إلا الله، أمريكا عدو الله»، «واحد اثنين الجيش المصري فين؟! واحد اثنين الجيش العربي فين؟!»، يسبق الهتاف إلى الشوارع، تتبعه الأجساد، تتكتل، تحتشد، تتمدد وتستطيل ساعية إلى الخروج من باب أضيق بكثير من حجمها. تردها الهراوات والكتلة المدرعة. مرة أخرى تحاول، تتقلص، تحتشد، تدفع فترتد. تحاول من جديد.

شخص لا أعرفه يدفع بمقعدي. أنظر إليه مستفهما، يحدق في: «هنا بهدلة يا حاج، يلاّ بالسلامة!» يجرني بسرعة في اتجاه باب جانبي. أدير رأسي: «لم أطلب منك المساعدة». لم أفهم إلا عند

الباب وأنا أرى رجال يشبهونه يحثون بعض النساء وكبار السن على المغادرة: «يلاّ يا ست»، «الخروج من هنا يا حاجة»، «تعالي من هنا يا أمي، يلاّ بدل الضرب والبهدلة!» «إيه يا بني واقف هنا ليه؟ تفضل من غير مطرود!» عندما انتبهت أن الرجل من مخبري المباحث كنت خارج المسجد وشخصان مفتولا العضلات يشبهانه يرفعان الكرسي ويجتازان بي الدرجات المعدودة التي تفصل البوابة عن مجرى الشارع. أي مجرى؟ كان المجرى مسدودا بقوات الأمن يحدد طريق الخروج بالحارة التي تمتد يسار الخارج من المسجد. درت بالمقعد قاصدا الطريق المؤدية إلى الميدان ومسجد الحسين، ولكن أحدهم أدار المقعد عكس ما أردت قائلا: «يلاّ يا حاج، بالسلامة!» دفع الكرسي دفعة قوية فوجدت نفسي أدرج في الحارة الضيقة، في عكس الاتجاه الذي قصدته.

الفصل التاسع عشر

«أحيانا لا تأتي، تغيب، فأتشكك في علاقتي بها، أتساءل إن كان وهما ما تصورته ألفة تجمعنا وتتيح لنا المشي سويا مؤتنسين ببعضنا البعض في طريق طويل، أو تجتاحني الظنون، أقول: لا تحبك، لا ترغب فيك، بل هي كغول الحكاية تستدرجك إلى سكك الندامة فإذا ما توغلت معها في الطريق تنكرت لك، وتركتك في الوعر.» كتبت هذا الكلام في فصل سابق، كانت الكتابة تأتي ثم تمتنع، فتملؤني الظنون. بدا لي أنني أمر بفترة من تلك الفترات المقلقة. أجلس إلى أوراقي ثم أقوم، يوما يومين ثلاثة، لا أجد طريقا إلى قلبي، أقصد تلك الأفكار والمشاعر التي أرغب في الإفصاح عنها، ثم أجلس إلى أوراقي وأكتب بيسر غريب، وسرعة. ساعتها أعرف أن قصور اليد لم يكن عجزا بل انتظارا لما يؤلِّفه العقل في تلافيفه الغامضة، قلت لنفسي: تحلَّ بالصبر فهو حرفة الصيادين. انتظرت. انقضى شهر ثم شهران ثم أربعة، أعدت فيها قراءة ما كتبت، أستدرج الكتابة استدراجا، ثم أيقنت أنها لا تريد أن تأتي، أو أنني غير قادر على الذهاب إليها. قلت: امتد الشلل من ساقي إلى يدي وعقلي، صرت لا أعرف مقصدي. حين بدأت الحكاية بالولد المصاب بمرض في عينيه بدت لي الطريق واضحة. أردت الكتابة عن المربع الذي ولدت وعشت

فيه، ولكن المربع المحدد بزمانه ومكانه ومعارفي انحلت حدوده فوجدت نفسي ضائعا وسط حشد من التفاصيل التي لا قبل لي ولا لكتاب مأمول أن يحيط بها.

نادرا ما أغادر شقتي، وحين أغادرها لا أخرج عن حدود تلك الشوارع المحيطة بالمبنى الذي أقطن فيه. لماذا أشعر أنني أعيش في العراء؟ لا، لا بد من تشبيه آخر يعرِّف العلاقة بيني وبين العالم من حولي، هذا تشبيه غير دقيق لأنه ناقص، وربما كان غامضا. لعل الصندوق يختصر العلاقة بشكل أدق؛ يحمل لي الصور والأحداث من كل أركان الأرض فأعايشها كأنني فيها ومنها، وأظل رغم ذلك ملتفا في عباءتي يسكنني شعوران لا أعرف أيهما يغلب، استكانتي للمشاهدة عن بعد، في مأمن من أهوال تدور تفاصيلها أمام عيني، أم تفكُّري في اجتياح شرس لوجودي، يفزعني ويستفز فيَّ الرغبة في مواجهته رغم وعيي بأني لم أعد أملك إزاءه شيئا، أتحير لأنني لا أعرف إن كانت عباءتي الصوفية التي أتدثر بها وأنا جالس أمام الصندوق درعا أم كفنا. هذا أيضا تشبيه سخيف وناقص فلا الدرع ولا الكفن يفيان بالمقام، ففي الدرع أو الكفن يحتفظ الإنسان بطوله وعرضه وملامحه، وأنا أمام الصندوق لا أتعرف على نفسي، لا أرى سوى آلة هائلة أكبر من جرّافة كردي ذات الأطنان الستين تسحقني، أصير منمنما ومجزوءاً كحجر في أطلال بيت أو ذراع مقطوع ملقى بين الأنقاض.

عندما شرعت في الكتابة بدا لي أن حريق القاهرة في السادس والعشرين من يناير عام 1952 هو مقصدي. قلت: أتأمل مسار النار فيه، من أين أتت وما الذي التهمته وكيف ولماذا، لكني في الحادي عشر من سبتمبر عام 2001- وكنت بدأت الكتابة قبلها ببضعة شهور- شاهدت الطائرات تصدم البرجين وتشعلهما بمن فيهما وفيها. لم أصدق، وعندما صدقت تعذّر علي تمثّل الأمر. وفي محاولتي للتمثل

قلت لنفسي الحريق هو الحريق صغر أم كبر، أقصد اضطرام اللهب وضراوة النار في بنايات ومحلات في قلب القاهرة الرومية صباح يوم سبت، واضطرامها وضراوتها في برجين ومُجَمَّع حربي في قارة أخرى صباح يوم ثلاثاء بعدها بتسعة وأربعين عاما، قلت: لا علاقة بين الحريقين، هل من علاقة؟! لم أعد لتأمل ذلك، انشغلت بما يخص حكايتي من تفاصيل، وبما يتعين علي البحث فيه والتنقيب عنه، وكتبت. ولكني الآن غير قادر على الكتابة. أحيانا أشعر أنني ملاحق بما ينقله لي هذا الصندوق من صور وأخبار كأنها كلاب سلوقية تتعقبني، أركض موتورا طالبا النجاة بعمري. وأحيانا أشعر أنني ضرير محبوس في سجن انفرادي، أو أشعر أن ما أتابعه، (قصف الطائرات في مشارق الأرض، والأقفاص الحديدية في مغاربها مودعٌ فيها أسرى الحرب حفاة يرتدون زيا برتقاليا مقيدين بأغلال من حديد، والماء فيما بينهما تحتله البوارج وحاملات الطائرات، ومشاهد أخرى أيضا وأحاديث مطولة عن حروب وشيكة تدعمها صور حاملات الطائرات وأرقام الجنود) تجتاحني كأنها دبابات تهدر في بيتي وتوجه مدافعها إلي، أو طائرات تغير ليلا وتصيب أهدافها مستعينة بقنابل ضوئية تحول ظلام الليل إلى أضواء تنذر بنار جهنم. حدث ذلك طوال عامين، بدأت الكتابة وواصلتها على خلفية مشاهد الصندوق وفزعي. حتى عندما حدثت مذبحة جنين واجتيحت نابلس ودمرت مبانيها الأثرية، واصلت الكتابة. ما الذي جد؟ ولماذا أجلس هكذا، أتطلع في الصفحة البيضاء وأظل أنتظر فلا تأتي الكتابة. ما الذي يعوِّق الكلام؟

حين يثقل علي الخوف والجنازات أبحث عن قشة أتشبث بها، ثم أبحث عن قشة ثانية وثالثة، ويبدو لي أنني سأقدر على تكوين طوف من القش ينقلني إلى بر أمان. أحيانا، قشة الغريق أجدها عند الرافعي. هل قلت إنني أكرهه؟ لم أقل ذلك. قلت: قتلني. تجنيت عليه، أرجع

إليه كتلميذ يستذكر واجبه المدرسي، أقرأ ما يحكيه لي. خذ مثلا تلك الفقرة التي كتبها عن المقاومة في السويس في نهاية عام 1951. يقول الرافعي:

«في 5 ديسمبر شيعت مدينة السويس الشهداء الذين سقطوا في معركة اليوم السابق- 4 ديسمبر- وكانت نعوش خمسة عشر شهيدا تخرج من المستشفى واحدا في اثر الآخر، وهي مغطاة بالعلم المصري، وفي طليعة هذه النعوش نعش صغير يضم جثمان حسن عبد الله الطالب بمدرسة النهضة الابتدائية، وهو شاب لم يتجاوز العاشرة من عمره، وقد سقط وهو في طريقه إلى مدرسته، واشتركت جميع طبقات الشعب في تشييع أولئك الشهداء. فكان مشهدا رهيبا، أعاد إلى الأذهان تشييع جنازات الشهداء في ثورة 1919.»

أجتهد في استخلاص قانون الحكاية، ثم يداهمني الخوف، أعوي ككلب في العاصفة، كيف أكتب، هل يجوز أن تكون الكتابة عواءً؟

توقف، قال: أنا أخرج عن الموضوع. سأغلق هذا الصندوق اللعين. لأترك كل هذا الهول جانبا وأعود إلى مشروعي.

كتب الناظر:

قبل شهور من حفل افتتاح قناة السويس شارك إسماعيل في المعرض الدولي الذي أقيم في باريس، نزل في قصر أقيم داخل الجناح المصري، فكان هو نفسه بقصره وحاشيته وزواره جزءا من العرض والمعروضات. وعلى طرافة هذا الأمر أو دلالته إلا أنني لن أتوقف عنده بل أنتقل إلى معرض آخر أقيم في المدينة نفسها عام 1889، لم يشارك فيه إسماعيل بطبيعة الحال، إذ كان قد أصبح حاكما مخلوعا رهين مَعْزِلَين، منفاه وشيخوخته، وكانت جيوش الحورية قد اجتاحت مصر واحتلتها وأحكمت السيطرة على مقدراتها.

في معرض 1889 اشتمل الجناح المصري على معبد فرعوني داخله متحف للآثار، وقصر إسلامي الطراز، وقافلة من التجار والحواة، ومعروضات تتفاوت من الأسلحة والأقمشة والأواني الفخارية إلى العطور والسموم والنباتات الطبية. وكان الإنجاز الأبرز والأكثر شعبية في المعرض هو الحارة التي ضمها المعرض والتي جاءت في قول أحد الكتاب صورة «طبق الأصل» لحي شعبي من أحياء القاهرة. وبلغت رغبة المنظمين في تحقيق ذلك وإتقانه حد أن وسّخوا قاصدين جدران بيوت الحارة التي شيدوها، وألبسوا الفرنسيين القائمين بالبيع في المعرض طواقي وعمائم وطرابيش ليصيروا فلاحين وبدوا وأفندية، واستقدموا من مصر خمسين حمارا يرافقهم عدد مساو من المكاريين، (يشير الكاتب إلى ما حققته الحمير من نجاح باهر في المعرض إذ تزاحم عليها الرواد مما تسبب في فوضى وضوضاء اضطرت المنظمين إلى تحديد مواقيت الركوب بتعيين ساعات لها كل يوم). كانت الحارة حقيقية جدا، كاملة الأركان: البيوت، المعممون والمطربشون، والحمير والمكاريون، وبطبيعة الحال، المسجد. لم يقل لنا الكاتب إن كان المنظمون استقدموا مؤذنا يكمل المشهد بالآذان خمس مرات في مواقيت الصلاة، أم قرروا أن ذلك يضيف إلى الجلبة، ولكنه يشير إلى استغراب وفد من الأساتذة المصريين (لم يذكر لنا إن كانوا معممين أو مطربشين أو يرتدون قبعات لزوم السفر) كانوا في طريقهم لحضور مؤتمر للمستشرقين في السويد، توقفوا في باريس خصيصا لزيارة المعرض وزاروا الجناح المصري وأعربوا عن عظيم استغرابهم لأنهم، عندما دخلوا المسجد، اكتشفوا أنه لم يكن سوى واجهة لمسجد، وأن بداخله مقهى يقدم المشروبات والأراجيل لرواده، وترقص فيه الفتيات رقصاً شرقياً ويقوم فيه الفتيان بدور الدراويش. (ولا يفيدنا الكاتب هنا إن كانت الراقصات والدراويش استقدموا من مصر مع الحمير

والمكاريين وباقي المعروضات، أم رُتِّب الأمر باستقدام سيدة عارفة بفنون المهنة درّبت الفرنسيات، ودرويش واحد علم الراقصين الفرنسيين). نعود إلى دهشة أعضاء الوفد المصري المسافر إلى السويد وهي دهشة أفادتنا لأنها دفعت أحدهم إلى تسجيل تفصيلة لم يكن ليلتفت إليها الرواد الفرنسيون، إذ نرجِّح أنهم لم ينتبهوا لغرابة الأمر، ربما ظنوا أن المساجد واجهات لملاهي.

ليست هذه التفصيلة وحدها هي ما استوقفني في الكلام عن معرض عام 1889. أفرد منظمو المعرض مبنى قائما بذاته لعرض كرة أرضية قطرها 12 مترا و75 سم ومحيطها 40 مترا تُظهر مواقع البلدان والمدن وتضاريسها الجغرافية. ولم تكن هذه الكرة على ما يبدو مجرد تذكير بما أُنجز من استكشاف الأرض والإحاطة بتخومها، وإضاءة المظلم من هوامشها وإدراجه في خريطة الوجود المستأنس، بل تأسيسا لمستقبل مشترك لكوكب متوحد يدور في أمان الله وحماية الأب الإمبريالي العطوف.

توقف الناظر عن الكتابة. قال: أبٌ غريب، مغرمٌ بالقص واللصق. لماذا لم يعرضوا مع الكرة مقصاته الكثيرة؟

واصل الكتابة:

يقول الكاتب والذي أخذت عنه هذه المعلومات عن المعرضين، إن القاهرة كباقي المدن الكولونيالية تحولت إلى قسمين، أحدهما معرض أوروبي حديث منظم نظيف يأسر العين، وثانيهما قديم متهالك عاجز عن النهوض من سباته أو موته، ولكل من القسمين وظائفه وفوائده. قلت: مفارقة غريبة، نُقلت الحارة إلى فرنسا للفُرجة، أما المعرض، الواجهة المضيئة التي تغيِّب الحارة فانتقلت إلى مصر. في عام 1869 شارك إسماعيل في المعرضين، معرض باريس والمعرض الآخر الذي لم يحمل لافتة تشير إلى هذا المعنى وإن توفرت فيه

أركانه، أقصد احتفالات إسماعيل بافتتاح قناة السويس في مدينتي القاهرة والإسماعيلية. في باريس نزل إسماعيل في القصر الباذخ المقام ضمن جناح العرض المصري، وفي المقابل شاركت أوجيني في معرض القاهرة حيث أقام لها إسماعيل قصرا واجهته أندلسية، وجعل الأجنحة المخصصة لإقامتها صورة طبق الأصل من أجنحتها في قصر التويلري في فرنسا. (ويُحكى أنه عند وداعها قدم لها هدية مبولة لغرفة النوم مصنوعة من الذهب الخالص تتصدرها ياقوتة حمراء، وعلى المبولة نقشت عبارة باللغة الفرنسية تقول: «عيني ستظل معجبة بك إلى الأبد». ولا نعلم على وجه الدقة إن كان الخديوي قدم هذه المبولة إلى الإمبراطورة، أم أنها نكتة من اختلاق بعض الحرافيش، أو شائعة مصدرها حريم إسماعيل، أشاعتها من باب الكيد زوجاته ومحظيّاته وجواريهن).

توقف مرة أخرى عن الكتابة وراح يتأمل تكرار تلك الواجهات المفضية لغير مَخْبَرِهَا، كأنها لعبة مرايا، تكبُر أو تصغُر أو تملأ بما تقرره أو تفرُغ حسبما تريد. واجهة مسجد، واجهة قصر أندلسي، واجهة مدينة أوروبية، واجهة نهضة. واجهة. . . قطعت فكرته فكرة أخرى برقت في رأسه. أدهشته. كاد أن يبتسم لاكتشافه المفاجئ، ولكنه قطب جبينه، تجهّم. كيف لم أنتبه طوال تلك السنين، كيف لم تأتني الفكرة من قبل؟ الأصل ومقطوعتان منه، مقطوعةٌ فيما وراء بحر الظُلُمات، كبيرة وتكبر، ومقطوعةٌ منمنمة صغيرة عبر بحر الروم. الباقي واجهات، أشبه بمبولة أوجيني المصنوعة من الذهب الخالص المزين بحجر كريم.

أعود لإسماعيل وقاهرته الرومية. بوابتها الكبيرة: شارع إبراهيم باشا حيث الأوبرا وشبرد والجراند أوتيل، ومن وراء البوابة حتى شاطئ النيل تمتد شبكة الشوارع في خطوط طول وعرض مستقيمة عند

تقاطعها في الزوايا خلافا لمسار الحواري والأزقة في الجانب الآخر، أقصد في المدينة العربية. على المداخل مبنى البوسطة الخديوية، والمطافئ ومسرح «الكوميديا» تقليدا لمسرح «الكوميدي فرانسيز»، ثم البوابة الفعلية، الأوبرا، تفتتح المكان تماما كما افتتحته يوم الاحتفال الكبير. ابتسم الناظر. فكرة طريفة. مدينة بوابتها الجديدة صوت. أوركسترا تصدح فجأة بقرع الطبول وتداخل أصوات البيانو بالكمان والشيللو والكونترباس، والسكسافون والكلارنيت والفلوت. بداية سمفونية. ابتسم، قال: لو عاصرت إسماعيل ونقلت له فكرتي لانشرح صدره وكافأني على الفكرة. أقول له «يا خديوي مصر العظيم، أتيت بجديد لم يسبقك أحد إليه. هل سمعت بمدينة يدخل كل مُريدٍ لها عبر الصوت، صوت الموسيقى السمفونية الهادر؟! يتدخل حاسد في الحوار قاصدا الإساءة ومنع خلعة الوالي عليّ، يقول: هذه فكرة سخيفة يا مولاي. البوابة تمنحك وجهها. باب الأوبرا يفتح على الغرب لا الشرق. كيف يقول إنها بوابة، وأية بوابة هذه التي تستقبلك بظهرها؟! قال الناظر: هذا مزاح ولعب، المقام جاد والمقال أيضا. عاد إلى الكتابة:

في يناير 1952 بدأ الحريق بشارع إبراهيم باشا، بعدها جاء الضباط الأحرار، أطلقوا عليه شارع الجمهورية. أرادوا على ما يبدو رفع الحاجز بين المدينتين، ولكنهم على طريقة الضباط أصدروا أمرا، وأيضا على طريقة الضباط الذين لم يتح لهم بعد إنهاء تعليمهم الثانوي سوى عامين أو ثلاثة من دراسة لا تخرج مقرراتها عن حدود العلوم العسكرية، لم يشغلهم كثيرا التفكير في المعاني والدلالات. ذهبوا إلى أوروبا المدمّرة بفعل الحرب، تطلعوا إلى مبانيها الجديدة الأشبه بعلب الكبريت المتطابقة، بنوا مدينة نصر، ووزعوا معمارها على ما تيسّر من المدينة.

كن رحبا، قدّر وتفهّم أنهم كانوا صغارا، لم تسعفهم المعارف، خاضوا حروبهم بما أتيح لهم من إمكانيات. ما الذي يضير في نقلهم تخطيط المدينة. النوايا حسنة. خطأ بسيط، جل من لا يخطئ، الكمال لله وحده!

تأمل الناظر فكرته ومسار الكلام. قال: مصَّر الضباط الأحرار قلب المدينة ومنحوه للطبقة الوسطى، ما معنى ذلك؟ هذا موضوع شائك ومعقد يحتاج مقالا. كيف أمزج الحكاية بالمقال، لا مانع من مقال قصير تحتويه الحكاية، ولكن الموضوع يتطلب مقالا طويلا، حتما سيكون ناتئا، ثم إن الروايات على ما أعرف لا تفضح أفكارها بالتقرير المباشر، لا تقدم الأمور هكذا، بل تضمِّنها حياة شخصيات تروح وتغدو، تعيش وتموت، فيُجَسِّد مسارها ومصيرها تفاصيل الفكرة والمنظور. ليست مهمتي الآن نقل تفاصيل الانتقال وأشكاله، وتحليل كيف ولماذا ورث من ورث القاهرة الرومية، أريد أن أحكي عن المكان الذي ولدت فيه. لا خبرة لي بكتابة الروايات، أنا لا أكتب رواية بل أنظر في وسط المدينة حيث حكايتي، أتأمل القديم والمستجد من ملامحها، هذا ما أقصد.

شاخت المباني، تآكلت بفعل القدم. سكنت مناورها الجرذان. فاضت شوارعها بمن يملك المال اللازم للشراء. لا ليسوا بالضرورة أغنياء بل ميسورين بالقدر الذي يسمح بالشراء. لم يعد الأغنياء هم رواد جروبي والأمريكين، الأغنياء الأغنياء لا يشترون الآن من شارع قصر النيل، يذهبون إلى أوروبا أو أمريكا للشراء، يقصدون الأصل مباشرة، أو يقصدون «المولز»، مجمعات تجارية قائمة بذاتها أو ملحقة بفنادق الخمس نجوم، أشهرها طبعا مركز التجارة العالمي، ليس مركز نيويورك الذي ضربته الطائرات، بل صورة مصغرة منه، يحيل إليه، يحمل اسمه. مبنى من عدة طوابق يطل على النيل في بولاق، قرب

المطبعة القديمة. قطعة من أمريكا، هذا هو المقصد، متقنة أو خلاف ذلك، لا يهم كثيرا. ليس المشروع جديدا، سبقته شوارع حي المهندسين ومدينة الضباط، لم تجمع المركز في بناية بل بسطته بطول الشارع، على عدة شوارع. توقف الناظر، قال: أنزلق مرة أخرى إلى كتابة مقال. هز كتفيه، تمتم: أقصد المقال!

انتقل المشروع غربا، عبر النيل، واستقر به المقام في الحي المعروف بالمهندسين، وهو في الأصل خططتان لحيين سكنيين أولهما مدينة الضباط الواقعة على جانبي شارع واسع وممتد، رأى الضباط لائقا أن يطلقوا عليه اسم أول شهيد منهم في حرب 1948. (في مارس سنة 1953 أقامت حكومة ثورة يوليو بحي الغفير مقبرة لشهداء حرب فلسطين ضمت الجنود والضباط، المسلمين والمسيحيين، المصريين والعرب من غير المصريين، وعلى رأسهم البطل أحمد عبد العزيز. بعد بضع سنوات أطلقت حكومة الثورة اسم أحمد عبد العزيز على الشارع).

يمتد شارع البطل أحمد عبد العزيز شمالا حتى يقطعه شارع آخر واسع أُطلق عليه اسم جامعة الدول العربية، تقع فيما وراءه باتجاه الشمال، مدينة المهندسين. ثم تداخل الحيان وسقط اسم الضباط وبقي اسم المهندسين ليشملهما معا وما يحيط بهما من عمران. وحملت الشوارع المتفرعة منهما أسماء شهداء ومدن عربية. إلى الشرق من البطل أحمد عبد العزيز وموازٍ له شارع جول جمال الضابط السوري الذي استشهد في معركة بحرية مع الإسرائيليين. وكذلك إلى الشرق منه يصل بينه وبين النهر شارع عبد المنعم رياض الذي استشهد في حرب الاستنزاف. وإلى الجنوب الغربي فيما وراء شارع جامعة الدول، شوارع دمشق والقدس وغزة والعراق ودجلة والفرات والحجاز ووادي النيل وعدن، وميدان لبنان. تخطيط هذه الشوارع وأسماؤها تعود إلى الخمسينيات والستينيات، وفي السبعينيات يتوسع عمرانها ويستتب

ليصبح الحي الأحدث في القاهرة رغم أنه جغرافياً غرب النهر، يقع خارج نطاق القاهرة، يتبع إدارياً محافظة الجيزة فهو جزء منها.

لن يعرف أي من المواليد الذين وضعتهم أمهاتهم في شقق الحي، وفي مستشفياته الكثيرة شيئا عن أحمد عبد العزيز وجول جمال وعبد المنعم رياض. وعندما يكبرون قليلا ويصيرون أولادا وبنات أو شبابا في الجامعة سيقبلون على ماكدونالد وكنتاكي فرايد شيكن ومستر دونت وباسكين روبنز، وكلها متجاورة عند تقاطع شارعي البطل أحمد عبد العزيز وجامعة الدول العربية. ولن تشهد شوارع الحي المتفرعة من شارعي البطل أحمد عبد العزيز وجامعة الدول العربية شيئا من مظاهر الرابطة العربية سوى سكنى بعض الميسورين من أهل الخليج في البنايات الأعلى والأكثر فخامة، واحتفال صاخب بأبواق السيارات الفارهة والتهليل والغناء من داخل عربات حنطور سياحية مستأجرة ازدحم بها مفرق الشارعين يوم السابع عشر من يناير سنة 1991، وكان الشباب الكويتيون يعلنون ابتهاجهم بقصف بغداد الذي رأوا فيه بشائر تحرير الكويت.

صار حي المهندسين المركز التجاري الجديد للقاهرة الجديدة التي زحفت غربا كما فعلت من قبل. زحف بها الضباط الأحرار أولا، ثم تواروا بعد أن أسلموها لماكدونالد وما شابه. وفي الساحل أيضا ستنتقل المصايف بأثريائها غربا من الإسكندرية إلى العجمي، ثم من العجمي إلى ساحل مصر الشمالي، ولن تتوقف إلا على مشارف العلمين، ربما لتتفكر في قفزة تجنبها المقابر، فمن غير المناسب أن يصطدم المصطافون الذاهبون إلى زرقة البحر وألعاب الشاطئ بمقابر ممتدة على مدى البصر تستحضر عنف التاريخ وزواياه المعتمة وصورة مأسوية لأوروبا تتوجب التفكر والاعتبار، لا مكان للموت في فسحة المصطافين.

نعود إلى مركز التجارة العالمي الذي لم تضربه الطائرات، أقصد المركز القائم في أمان الله على شاطئ النيل بالقرب من المطبعة القديمة والمبنى الجديد لدار الوثائق والكتب. قطعة صغيرة من أمريكا التي هي بدورها قطعة من أوروبا. لا داعي أن أفيض في التفاصيل، يمكن للقارئ أن ينتقل بيسر إلى حي بولاق، يركب من ميدان التحرير أتوبيس أو سيارة أجرة تقطع به الميدان مرورا بمبنى الجامعة العربية ذي الواجهة الإسلامية، تنحرف به يمينا بحذاء النهر، تمر بفندق هيلتون ثم مبنى الاتحاد الاشتراكي القديم والتلفزيون ودار الوثائق وهيئة الكتاب (كلها مبنية على طراز المباني الجديدة لأوروبا المدمرة)، تواصل الطريق إلى أن تصل إلى مركز التجارة العالمي لتشترى بنطلون جينز ليفايز أو حذاء أديداس أو تليفون موتورولا، أو لا تشتري لأنك تقصد السينما في الطابق الرابع لتشاهد فيلما أمريكيا ترى فيه مركز التجارة العالمي الأصلي ذا البرجين فتطمئن على حالك لأن برجك قائم على غير البرجين الأصليين، أو تضيف لاستمتاعك بالفيلم انتباهك أنك ترى وثيقة من وثائق الماضي لغياب البرجين. وقد لا تدور أحداث الفيلم في نيويورك، فتكتفي بمتعة متابعة الغرب الأمريكي يتصدره الكاوبوي وهو يتخلص من جمهرة من السكان الأصليين، لينتهي الفيلم بانتصار الأخيار على الأشرار.

قال الناظر: علي أن أحكم هذا الاستطراد. كنت أكتب عن القاهرة الرومية التي حاصرتها النيران في السادس والعشرين من يناير عام 1952، تبحث لنفسها ما زالت عن منافذ. الفقر يحاصرها، يتبعها أينما حلت، اضطرت إلى القيام رأسيا في بروج مشيّدة. ولكن تلك حكاية أخرى.

الفصل العشرون

«طلسم الرمل يقابله في بر مصر صنم عظيم الخلقة والهيئة متناسب الأعضاء كما وصف، في حجره مولود وعلى رأسه ماجور، الجميع صوان مانع يزعم الناس أنه امرأة وأنها سرية أبي الهول المذكور، وهي بدرب منسوب إليها، ويقال لو وضع على رأس أبي الهول خيط ومد إلى سريته لكان على رأسها مستقيما، ويقال أن أبا الهول طلسم الرمل يمنعه عن النيل، وأن السرية طلسم الماء يمنعه عن مصر. . . »

لم تتوفر للمقريزي معرفة إيزيس ولا حكايتها، وإن وصلته أخبار التمثال الذي دُمر سنة 1311، أي قبل ولادته بأكثر من خمسين عاما. ولا بد أن التمثال كان هائل الحجم عاليا يفوق ارتفاعه تمثال رمسيس المشرف على محطة القطارات في باب الحديد أو تمثال نهضة مصر الذي كان قائما عند المحطة قبل انتقاله إلى مدخل جامعة القاهرة، أقول: لا بد أن تمثال إيزيس كان هائل الحجم ما دام رأسه وهو القائم في الوادي في مستوى رأس أبي الهول المستقر فوق هضبة الأهرام. ولما كان المقريزي يجهل إيزيس فقد قدر أن المرأة الساكنة في التمثال سرية أبي الهول، وأن القرص على رأسها ليس سوى «ماجور»، وهو في حقيقة الأمر تاجها المكون من قرص الشمس محاطا من الجانبين

يقرني حتحور، المرأة-البقرة التي تطعم أبناء الوادي والتي سفكت دمهم انتقاما في لحظة الغضب.

سمى المقريزي المرأة طلسما للماء مرة، وطلسم النيل في المرة الثانية، ولا ندري إن كان خياله أملى عليه الاسم أم أن الاسم وصله من بين ما وصله من الأخبار عن ذلك التمثال الغائب. يقول المقريزي إنها طلسم الماء لأنها تحرس البلاد من جور الماء عليها، ولو قُدِّر له أن يعرف ما نعرفه الآن بعد فك رموز تلك المنمنمات المنقوشة حفرا على جدران المعابد لانتبه إلى أنها طلسم الماء بما يتجاوز تأويله.

قال الناظر: غدا أكتب حكاية إيزيس، مسعاها شمالا وراء صندوق مغلق على جثمان أخيها، الشجرة التي نمت حول الصندوق وجعلته جزءاً من جذعها، تحول إيزيس إلى طائر سنونو يحوّم صارخا حول الشجرة، وأكتب أيضا رحلتها جنوبا في الوادي لجمع الأشلاء المتناثرة، امرأة في ثوب الحداد تصير حدأة على فرع شجرة، تلتقط في جسمها الطائر بذرة حملها من زوجها القتيل... سأختصر، سأختصر كثيرا، أكتفي بالكلام عن عنفها وعويلها وفيض النهر من ماء دمعها وهي تسعى مفردة بلا أب ولا أم ولا زوج لاسترجاع شقيقها.

سحبه النوم وهو يفكر في تمثال بعينه يبرز «عقدة إيزيس» الأشبه بعروة حبل مشنقة مستقرة بين ثدييها الممتلئين. لماذا اختاروا تلك «العقدة» رمزا للخصب؟

استيقظ مع آذان الفجر. بقي في سريره ملتفا بغطائه الصوفي. هل أُدخل موضوعا على موضوع؟ إيزيس بعيدة كتمثالها الغائب. هل أكتب عن زينب وهي تودع أخيها؟

قامت تعد له الجواد وهي تقول: ما أجلَدَني، ما أقسى قلبي، أي أخت تعد لأخيها جواد المنيّة. ركب وسار قاصدا الميدان. نادته،

التفت وراءه، قالت: أخي انزل من على ظهر فرسك. نزل. قبلته في نحره. شمّته في صدره. التفتت إلى ناحية المدينة وحدثت أمها، قالت: يا أمي، استرجعتِ الوديعة. سألها: أي وديعة يا أختي؟ قالت: حين دنت الوفاة من أمنا دعتني إليها وقبّلتني في نحري، وشمّتني في صدري، وقالت لي: يا زينب إن رأيت أخاك وحيدا فريدا في أرض يقال لها كربلاء فقبّليه في نحره فإنه موضع السيوف، وشمّيه في صدره فإنه موضع حوافر الخيل.»

مضى في طريقه. قصد النهر ليروي عطشه. مد الجواد رأسه ليشرب. رفع رأسه من الماء كأنه يقول يا سيدي لا أشرب حتى تشرب أنت. لم يشرب ولا شرب الجواد. أصابوه في كبده، ثم رموه في نحره. مال من على ظهر الجواد ليسقط، فمال الجواد معه. مال على الناحية الأخرى، فمال الجواد معه، قال له أنزلني، بسط الجواد قوائمه وأنزله على الأرض. وضع يده تحت نحره حتى امتلأت دما ثم رمى به إلى السماء، فلم تعد منه قطرة. ملأها ثانية ورماها ناحية المعسكر. ملأها ثالثة فخضّب بها وجهه ولحيته وهو يقول: هكذا أكون مخضّبا بدمي، غريبا مظلوما مغصوبا علي حقي إلى أن ألقى الله وأشكوهم إلى جدي.

انطلق الجواد إلى المخيم، سمعته زينب، فقالت لسكينة: يا سكينة هذا أبوك قد أقبل فاخرجي له، فلما رأت سكينة الجواد مخزيّا والسرج ملويّا مخضّبا بالدماء خاليّا من أبيها صرخت: «يا مهر حسين وين حسين ولّى؟»

خرجت زينب للبحث عن أخيها بين الشهداء والقتلى، وجدته ينزف على الطفّ. وضعت رأسه في حجرها وهي تصيح: أخي بحق أبينا كلمني. لم يجبها. أخي بحق جدنا كلمني. لم يجبها. أخي بحق أمنا كلمني. فتح عينيه وأجابها بصوت ضعيف: زينب، ماذا تريدين؟!

أغفى الناظر وبدا له أنه يستكمل في غفوته الاستماع إلى صوت زينب وهي تندب أخاها.

في الصباح استيقظ، قام من فراشه وأعد لنفسه كوبا من الشاي والتف بعباءته وراح يحتسيه وهو جالس على مقعده. قال: أشرب الشاي ثم أجلس للكتابة.

جاءت أم عبدالله، أنجزت أشغالها وغادرت. ظل جالسا في مكانه إلى أن انقضى النهار. أذن المؤذن لصلاة العصر ثم المغرب. لم يأت محمود.

جاءته شهرزاد، قالت:

- وجهك شديد الشحوب يا جدي، هل أنت مريض؟

قال:

- لست مريضا.

ابتسم، قال:

- ربما ازددت شيخوخة منذ الأسبوع الماضي، أو نسيتِ كم أبدو مسنا!

ربتت على رأسه.

جلست بجواره وفتحت حقيبتها، أخرجت منها ورقة مطبوعة من تلك الأوراق التي صار يألفها، يعرف أنها حصّلت ما فيها من موقع ما على الشبكة وطبعتها لتحتفظ بها أو لتطلعه عليها أو لتفعل الأمرين معا. سألته: تقرأ أم أقرأ لك؟ قال وهو يبتسم مستحضرا لعبهما معا قبل سنوات قليلة (تتقصد وجها صارما وتقول: اجلس يا جدي أنت تلميذ، وأنا المدرِّسة. ركِّز في الدرس عشان ما تسقطش في الامتحان! اسمعني كويّس يا جدي!). قال: أسمعك جيدا يا شهرزاد، احكِ. قالت:

«وكالات الأنباء، غزة، فلسطين المحتلة، 29 نوفمبر 2002:

«الجمعة الأخيرة من رمضان كان يوما غير عادي في مخيم البريج في غزة إذ رزقت عائلة الشهيد محمد الدُرَّة مولودا جديدا سمّي محمد، وكانت المفاجأة أن محمد الجديد يشبه محمد الشهيد، له نفس الملامح. استقبل المولود الجديد باحتفالات كانت كمن يستقبل شهيدا عائدا، توافد سكان المخيم والمخيمات المجاورة على بيت جمال الدُرَّة وزوجته يهنئون بالمولود الجديد، مستبشرين بولادته يوم الجمعة الأخيرة من رمضان الذي صادف الاحتفال باليوم العالمي للقدس.

جدة محمد الدُرَّة والدة جمال كانت مازالت تحتفظ بملابس الشهيد واحتفلت بالمولود الجديد على طريقتها الخاصة بأن منحته نفس الملابس: بنطال كان محمد قد قصه ليصنع منه شورت صغيرا كتب عليه اسمه، وكانت جدته تحتفظ به بعد موته وكان قلبها يقول لها أن محمد سيأتي من جديد.»

- أعد لك العشاء يا جدي؟

- لست جائعا.

لم تلتفت، طارت إلى المطبخ ثم عادت تحمل صينية ووضعتها أمامه. لم يأكل. فتحت شهرزاد التلفزيون لمتابعة نشرة الأخبار. كانت الفقرة الأولى عن صدور الأوامر بتحرك مزيد من حاملات الطائرات والجنود باتجاه منطقة الخليج تعزيزا للقوات المتمركزة في المنطقة لضرب العراق. أضاف المذيع: تتحرك بمقتضى هذا الأمر ثلاث حاملات للطائرات هي يو.إس.إس. هاري ترومان إلى البحر الأبيض المتوسط، ويو. إس. إس. جورج واشنطن من الشاطئ الغربي للولايات المتحدة إلى الخليج، وتلحق بها يو.إس. إس. أبراهام لينكولن من أستراليا أو يو.إس. إس. كيتي هوك من اليابان، تحمل

كل واحدة منهما 75 طائرة حربية و25 ألف جندي وترافق كل منها ست سفن حربية مزودة بقذائف كروز وتوماهوك. أعقب الخبر تقرير مفصل معزز بالخرائط عن القواعد العسكرية الأمريكية ومراكز تجمع القوات وأعدادها الحالية والمتوقعة في الكويت وقطر والبحرين وعُمان وتركيا وجيبوتي وقاعدة دييجو جارثيا.

قالت شهرزاد:

- ما الذي سنفعله يا جدي؟

قال:

- سأنام يا شهرزاد!

غير ملابسه، غسل وجهه وفرك أسنانه. دخل حجرة نومه. قبل أن يأوي إلى فراشه ناداها، سألها:

- هل تعرفين حكاية إيزيس؟

- الأسطورة القديمة؟

أومأ برأسه، قالت:

- أعرفها، ولكن ليس تفصيلا.

- وحكاية زينب، السيدة زينب؟

تطلعت إليه متسائلة، قال:

- مخطوطة كتابي في دفترين، في أحدهما ما اعتمدته من الكتاب، والثاني دفتر المسودات، وهناك بعض الأوراق في الدرج الأيمن من المكتب. بإمكانك قراءتها، بإمكانك أن. . .

تلعثم،

- ربما. . .

سكت، قال:

- أشعر ببعض التعب.

ربتت على رأسه كأنها أمه وهو الصغير، أحكمت الغطاء على جسمه، قالت:

- لن تمرض يا جدي، ستصبح نشيطا مثل الحصان، وتكتب كل ما تريد. تصبح على خير.

- تصبحين على خير!

أغمض عينيه، رأى ما كتبته شهرزاد على هامش المخطوطة: «قرأت المخطوطة كما أوصاني جدي ليلة وفاته. علي الآن أن أرتّب أوراقه وأكتبها على الكمبيوتر وأسعى في نشرها.»

صاغ خياله موته وهامشا للكتاب وضعه على لسان شهرزاد، وعبارة انتهت، متبوعة بتاريخ اليوم نفسه ثم نام، ولكنه في الصباح قام. سمع صوت المؤذن من مسجد الرحمة، تمتم: «وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت». تناول الشاي وجلس أمام أوراقه، قال: أردت أن أنهي حكايتي على طريقة الأساطير، تنتصر للحق وتستقطر من ألم أبطالها إكسيرا لاستمرار الحياة، ولكن الأساطير تتشكل في الخيال بعد نهاية حكايتها بزمان، لم تنته بعد حكايتي، غدا أذهب لزيارة أبي الهول، طلسم الرمل في قول المقريزي، أتأمل وجهه، أتأكد أنه ما زال محتفظا بمسحة البهاء على وجهه كأنه يضحك أو يبتسم، أُتَمْتِمُ على طلسم الرمل، ثم أعود إلى بيتي لأواصل الكتابة، فما زلت كباقي خلق الله أسعى إلى تجنب الموت، إن استطعت إلى ذلك سبيلا.

انتهت

31 ديسمبر 2002

إشارات

- شهادة رجل الشرطة في الفصل الأول مقتبسة من قسم شهادات ووثائق في كتاب: **حريق القاهرة**، جمال الشرقاوي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1976.
- الاقتباسات من مسرحية **هاملت** في الفصل الثامن، ومن **الملك لير** في الفصل الثالث عشر من ترجمة المؤلفة.
- مقابلة كردي الواردة في الفصل الثاني عشر أجراها تسادوك يهشكليم، وهي منشورة في جريدة **يديعوت إحرنوت** الإسرائيلية في 31 مايو 2002. قمت بترجمتها إلى العربية عن ترجمة إنجليزية.
- الوثائق الخاصة بنشأة الحركة الصهيونية في مصر من ملاحق كتاب لانداو **اليهود في مصر في القرن التاسع عشر**، قمت بترجمتها عن الإنجليزية.
- حديث أم فارس عودة الوارد في الفصل الثالث عشر من مقابلة موقعة باسم كنعان منشورة في جريدة **الرياض** اليومية في 13/ 5/ 2002
- بعض المعلومات الواردة عن عائلة قطاوي وجروبي من مقالات لسمير رأفت منشورة باللغة الإنجليزية على الإنترنت في موقع خاص به، وقد نشرت أصلا في مجلة **كايرو تايمز**.
- التفاصيل الواردة في الفصل التاسع عشر الخاصة بالجناح المصري في معرضي باريس عامي 1867 و1889 من كتاب تيموثي ميتشل **استعمار مصر**.

صدر للكاتبة

1- **الطريق إلى الخيمة الأخرى: دراسة فى أعمال غسان كنفانى**، دار الآداب، بيروت، 1977

2- **جبران وبليك** *Gibran and Blake* (باللغة الإنجليزية)، الشعبة القومية لليونسكو، القاهرة، 1978

3- **التابع ينهض: الرواية فى غرب إفريقيا**، دار ابن رشد، بيروت، 1980

4- **الرحلة: أيام طالبة مصرية في أمريكا**، دار الآداب، بيروت، 1983

5- **حَجَر دافئ** (رواية)، دار المستقبل، القاهرة، 1985

6- **خديجة وسوسن** (رواية)، دار الهلال، القاهرة، 1989

7- **رأيت النخل** (مجموعة قصصية)، مختارات فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989

8- **سراج** (رواية)، دار الهلال، القاهرة، 1992

9- **غرناطة** (الجزء الأول من ثلاثية روائية) دار الهلال، 1994.

10- **مريمة والرحيل** (الجزءان الثاني والثالث من الثلاثية)، دار الهلال، 1995

نشرت الطبعة الثانية بعنوان **ثلاثية غرناطة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1998، و الطبعة الثالثة عن دار الشروق، القاهرة، 2001

11- **أطياف** (رواية)، دار الهلال، القاهرة، 1999، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1999

12- **تقارير السيدة راء** (مجموعة قصصية)، دار الشروق، القاهرة، 2001

13- **صيادو الذاكرة: مقالات في النقد الأدبي**، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، 2001

رضوى عاشور

قطعة من أوروبا

في نوفمبر عام 1943، اصطحب تشرشل، روزفلت لمشاهدة أبي الهول. لاحقا، كتب تشرشل في مذكراته: «حدّقنا فيها لبضع دقائق لفّنا فيها الصمت، وقد بدأ الليل يخيم بظلاله على المكان. لم تقل لنا شيئا. احتفظت بابتسامتها الغامضة.»

استوقفني تأنيث تشرشل لأبي الهول، عللت ذلك بتأثر المخيِّلة الإنجليزية بالصورة الإغريقية القديمة التي تقدمه على شكل امرأة لها جسم أسد ورأس إنسان، تطرح الأسئلة الصعبة، وتقتل من يخطئ في تقديم الإجابة الصحيحة.

لم يعبِّر تشرشل عن الفزع الذي عبّر عنه الرحالة الفرنسي فلوبير في القرن التاسع عشر في ما كتبه عن مشاعره وهو يتأمل التمثال: «جمّدنا بنظرته المفزعة».

وفي العام التالي حين تدور المعارك الطاحنة في العَلَمِين وتخلِّف آلاف القتلى، سيبقى اسما رومل ومونتجمري كاسمَي تشرشل وروزفلت مجرد كلمات، لا أدري إن كانت تشير إلى أماكن أو أشخاص أو أنواع من الطعام.

تدريجيا، ومع مرور الوقت، ستحمل الأسماء- والسنوا[illegible] معانيها، وتمتلئ بها كجرار كبيرة مستقرة في غرفة خزين، أو [illegible] على ظهر ناقة تشي خطواتها بحملها الثقيل. هل يمكن أن أعيد التشبيه؟ أحاول. ستحمل الأسماء- والسنوات أيضا- معانيها، وتمتل[illegible] كالمدينة نفسها: شوارعها وبناياتها والتماثيل في ميادينها. في ط[illegible] كانت الأماكن بلا حكايات، لا أعرفها إلا بالنظر وعبورا، مجرد [illegible] في خلفية مشهد أسريّ، أهرام الجيزة مثلا تصبح، حين نعرّ[illegible] حكاياتها، كالرمال التي تحيط بها، خلفية للرحلة المدرسية، أو [illegible] ثلاثة تناسب الجانب الأيسر من الصفحة البيضاء في كراسة الر[illegible] مجرد أشكال يخطها قلم الطفل في دقيقتين، خفيفة، كأنها لا شي[illegible]



ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت- لبنان
ص.ب 4006 - الدار البيضاء- المـ[illegible]

